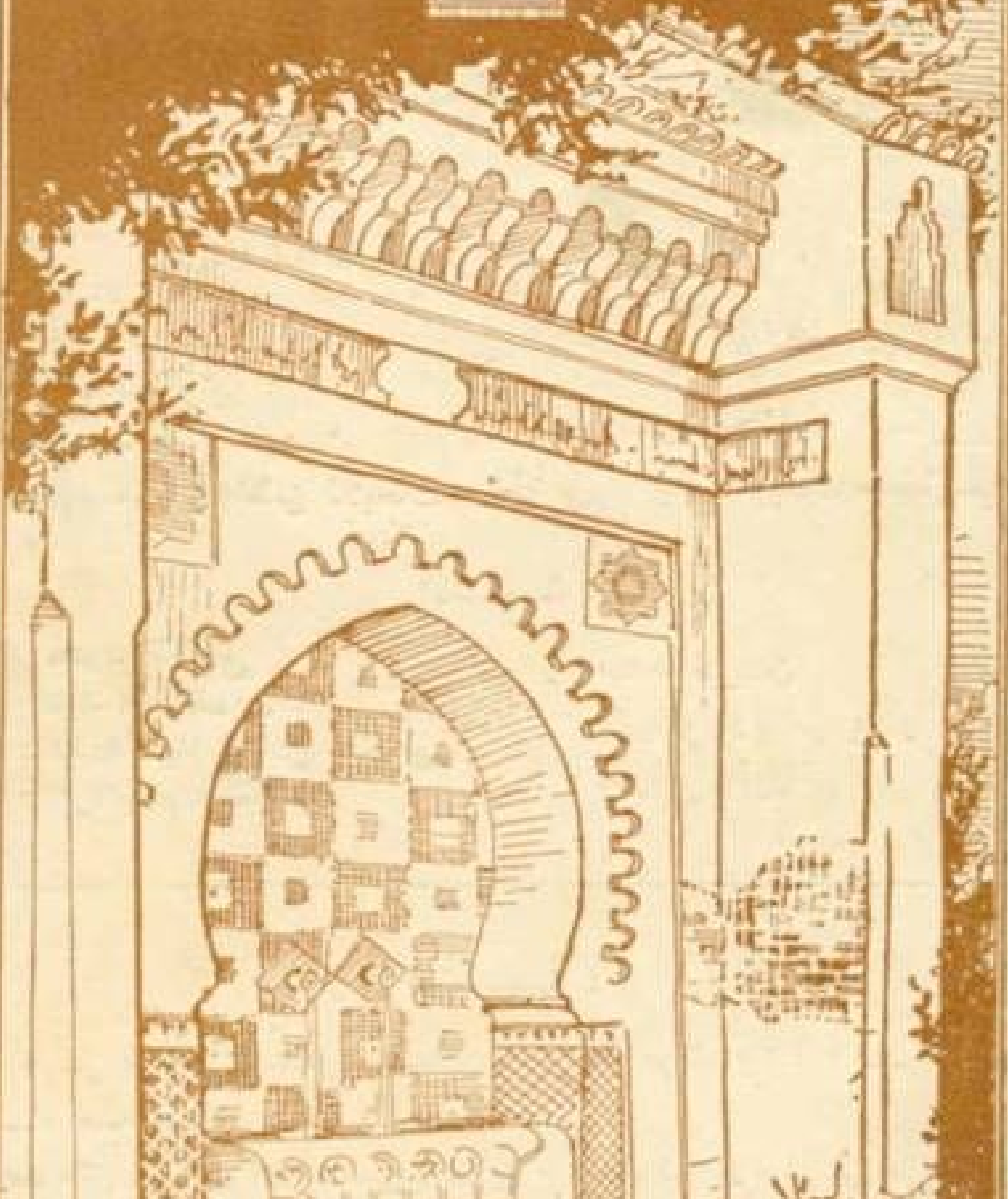
ولا غالب إلا الله

تطوان



المملكة المغربية
وزارة التربية الوطنية
والشبيبة والرياضة

نيابة الشمال

«تطوان»

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

تنبيه :

لا تقبل للنشر الا المواد المطلوبة والمقالات المعروضة لابد ان تمضى باسماء اصحابها .

يجب على المؤلفين او الناشرين الذين يرغبون فى الاخبار عن مؤلفاتهم فى «تطوان» ان يبعثوا نسختين الى سكرتارية هذه المجلة .

المراسلة الادبية توجه الى السكرتير وغيرها تبعث الى مدير «تطوان» ـ نيابة وزارة التعليم بتطوان (المغرب) .

ثمن النسخة :

فى المغرب وفرنسا واسبانيا .... 1.250 فرنك
فى باقى البلاد .... 4 دولارات

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

العدد الثاني السنة 1957

مطبعة كريماديس - شارع محمد الطريس 17 - تطوان

محمد المنوني

مظاهر يقظة المغرب الحديث

تصميم

هذا بحث يعرض مظاهر يقظة المغرب الحديث من احتلال الجزائر عام 1245 = 1830 الى فرض الحماية على المغرب عام 1330 = 1912 .

ولاجل أن يدخل البحث الى صميم الموضوع : سيستعرض أولا الحالة التي صار اليها المغرب في النصف الاول من القرن التاسع عشر م. هذه الحالة التي كانت السبب المباشر لظهور يقظة المغرب الحديث .

ثم يدرس ـ بعد ذلك ـ مظاهر هذه اليقظة في ثلاثة اطوار، تتناول منها هذه النشرة الطور الاول الذى يبتدىء من احتلال الجزائر حتى موقعة تطوان عام 1276 = 1860 .

ثم الطور الثاني الذى يبتدىء من موقعة تطوان حتى وفاة الوزير احماد عام 1318 = 1900 .

حالة المغرب في النصف الاول من القرن التاسع عشر م.

الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى الموافق أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، كانت دول الغرب لا تزال تحفظ للمغرب هيبته، لما تعلم من قوة اساطيله فى البحر، واستحكام دفاعه فى البر، ولم تنس اوربا ان المغرب استطاع ان يحرر اكثر ثغوره، ويطرد عنها الاجنبى، وآخر ذلك مدينة الجديدة التى حررها المغاربة من يد البرتغال عام 1182 = 1768. اى فى خلال القرن الثامن عشر الميلادى الذى ازدهرت فيه حضارة اوربا .

وكانت دول الغرب التى تستفيد من المياه المغربية دأبت على ان تؤدى للمغرب ضريبة سنوية ليستديم الصلح بينها وبين المغرب فى البحر، وقد استمرت السويد والدانمارك على اداء هذه الضريبة، حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى .

وسبب ذلك كله ان كثيرا من معدات الحرب وسائر وسائل الحياة كانت متقاربة في الجملة، وكانت مدنية أوربا لا تزال لم تخرج كثير من نظرياتها العلمية واعمالها التجريبية الى المجال العملي وحيز التطبيق. فلذلك لم يظهر قبل القرن الثالث عشر الهجرى كبير تفوق للمغرب على غيره .

حتى اذا حل القرن التاسع عشر م اخذت المدنية الغربية تاتى ثمراتها، فاستخدمت القوة البخارية، والقوة الكهربائية، وتوصلت بهما الى مخترعات كثيرة، وعظيمة، قلبت الاوضاع، وقربت الابعاد، ورفعت مقام الغرب عاليا.

لم يقتبس المغرب أول الامر من هذه المدنية، شانه في ذلك شان سائر العالم الاسلامى الذى وقف كله حذرا من هذه الحضارة الجديدة التى رءاها تدشن بانقضاض الغرب على الشرق : هذه جنود نابليون بونابرت تهاجم مصر والشام وتحتلهما، بينما انجلترا تتوغل في الهند، والادهى من هذا وذاك أن دولة الاسلام العظيمة دولة آل عثمان تشتبك منذ أواخر القرن الثاني عشر الهجرى مع روسيا في سلسلة حروب تخرج منها الدولة العلية وقد انفصمت منها اجزاء لصالح روسيا.

ومع هذا كله فيا ليت العالم الاسلامى ابتدأ إذ ذاك ياخذ من حسنات مدنية أوربا، ولو فعل لتغير مجرى تاريخ هذه المدنية، ومجرى تاريخ الشرق

كله، ولكن المسلمين لما وقفوا من هذه المدنية موقف الحذر ولم يأخذوا بها، انقلبت عليهم شرا مستطيرا لا يبقي ولا يذر. وقد وصف هذه الحالة بعض الكتاب الكبار (1) في العبارات التالية :

«... لهذا شقي الشرقيون المسلمون في أول أمرهم بالحضارة الغربية شقاء بالغا، وذاقوا من الاتصال بها بلاء، شديدا، حتى لم يقو الجميع على احتمالها، فاخذت نواحي الحياة الشرقية تتهدم الواحدة تلو الاخرى... ولا تكاد تمر العشرات الاولى من سني القرن التاسع عشر، حتى يبدو للناس أن الشرق الاسلامي سائر حتما الى الزوال».

وكان نصيب المغرب من شرور هذه المدنية التي تتطاير على من لم يأخذ بها ـ ان اضطر السلطان سليمان لان يمنع المغاربة من التجارة لاراضي الغرب ! (2)

كارثة الاسطول المغربي

والادهى من ذلك ان هذا السلطان اضطر لان يحل الاسطول المغربي العتيد ! ففي عام 1233 = 1817 منع رؤساء الاسطول المغربي من الجهاد في البحر، ووزع بعض قطعه على الايالات المجاورة للمغرب مثل الجزائر وطرابلس، والباقي انزل منه المدافع وغيرها من آلات الحرب، واعرض عن امر البحر رأسا بعد ان كان الاسطول المغربي اكثر واحسن من اساطيل الجزائر وتونس (3) .

ما الذى حمل المولى سليمان على اتخاذ هذا القرار الخطير الذى ترك شواطىء المغرب مكشوفة ليس لها من أسطول يحميها ؟ هل حب العزلة بلغ به الى هذا الحد ؟ كلا ... بدون شك هناك سبب قاهر هو الذى دفع به للاقدام على هذا العمل البالغ الغاية في الخطورة، وليس ذلك الا ضغط ماكر من بعض الدول التي ضاقت بالاساطيل العربية العتيدة، فصارت تستعمل مختلف الوسائل لتدميرها : مرة باسم منع القرصنة، ومرة بهجوم سافر عليها، حتى تبقى الشواطىء التي تقلق بال هذه الدول مكشوفة، ولاجل أن

---

1) هو الدكتور حسين مؤنس في كتابه : «الشرق الاسلامي والعصر الحديث» ص 114 ـ 115.

2) الاستقصا ج 4 ص 151 .

3) المصدر ج 4 ص 151 .

نقتنع بوجود هذا الضغط العنيف على سلطان المغرب، نسوق امثلة للمؤامرات التي كانت تبيتها طائفة من الدول الكبار للقضاء على الاسطول الاسلامي أينما كان بالشرق او المغرب :

جاء في «كتاب الجزائر» للاستاذ احمد توفيق المدني : (1)

«قرر مؤتمر «ايكس لا شابيل» في 30 سبتمبر 1818 = [1234] : الغاء القرصنة. وسافر وفد انجليزي فرنسي الى الجزائر ليقنع الباشا بوجوب العدول عن تلك الحرب البحرية. الا ان كل المحاولات ذهبت عبثا، وأصر حسين على أنه يستمر على حربه البحرية مع كل دولة لا تتعاقد معه بمعاهدة، وفي 12 جويلية 1824 جاء الاسطول الانجليزي لمحاربة الجزائر، واستمرت الحرب الى يوم 29 جويلية، ولم يستطع الانجليز ان ينال من حصون الجزائر او اسطولها اى منال فقفل راجعا» .

واذا كانت انجلترا اندحرت في هذه المرة امام الاسطول الجزائري ، فقد نجحت الى حد بعيد ـ بعد هذه الموقعة بأعوام ثلاثة فقط ـ في اغراق سائر الاسطول العثماني العتيد .

ففي عام 1223 = 1827 إبان ثورة اليونان على الدولة العلية ـ بينما الاسطول العثماني واساطيل الولايات التابعة للخلافة : مصر، وطرابلس، وتونس، والجزائر. راسية للاحتراس بالسواحل اليونانية قبالة أساطيل الدول المعاضدة لليونان تحت قيادة الاميرال الانجليزي، في هذا الوضع، ومن غير اعلان بالحرب، ورد الاسطول الانجليزي على الاسطول العثماني في صورة المعاضد، لان السلم كان متأكدا بين الدولتين، ولم يكن بينهما شائبة حرب بالمرة، واشارت الاساطيل بعضها الى بعض بعلامات السلم، فلم تلبث ان تخللت بين الاساطيل العثمانية، حتى اذا تم تمكنها منها اطلقت عليها النيران من جميع الجهات في آن واحد، مع شدة الالتحام والتداخل، والمسلمون فى حالة الدعة اعتمادا على السلم المحقق، فهلكت جميع تلك الاساطيل وغرقت فى البحر دفعة واحدة بمن فيها ... (2)

وبعد هذه الحادثة التي لا تحتاج الى تعليق، لا نعدم شواهد اخرى تثبت تضايق هذه الدولة ومن على شاكلتها من الاساطيل الاسلامية، وتقيم بعض

---

1) ص 42 .

2) انظر «صفوة الاعتبار، بمستودع الامصار والاقطار» تاليف الشيخ محمد بيدم الخامس التونسي ج 4 ص 43 و ج 5 ص 55 ، مع «تاريخ الدولة العلية العثمانية» تاليف محمد فريد بك ص 217 ـ 218.

العذر للمولى سليمان فيما اقدم عليه، وسنجد ذلك هذه المرة في موقف الانجليز والالمان من الاسطول العربي في عمان وزنجبار والبحرين :

ففي عام 1224 = 1809 تمكنت «شركة الهند الانجليزية» من ارسال اسطول الى عمان ليحارب بعض العرب بتهمة القرصنة .

وكرر الانجليز عملهم في عمان مع طوائف اخرى من العرب وصفوهم بالقرصان .

ومن عام 1271 = 1854 صارت انجلترا تصارح بحقيقة مقاصدها، وهي انها لا تطيق أن ترى على ثبج البحر مقاتلا واحدا ان لم يكن تحت رايتها .

وكانت نهاية ماساة هذا الجزء من الشرق العربي ان هدم الانجليز والالمان دولة زنجبار، كما هدموا دولة عمان، ودمروا اسطولهما، كما دمروا اسطول البحرين (1) .

فهذه بضعة شواهد ناطقة ببدى خطورة الغارة التي شنتها بعض دول اوربا ضد الاساطيل الاسلامية شرقا ومغربا.

ومما يكشف عن المؤامرة المدبرة ضد الاسطول المغربي بالخصوص ماساة هذا الاسطول أيام السلطان المولى عبد الرحمن خلف المولى سليمان.

فقد تجاهل السلطان الجديد المؤامرة المبيتة، واصدر قراره عام 1243 = 1827 بانشاء بعض القراصين لتضم لما كان قد بقي من عهد جده السلطان سيدى محمد بن عبد الله ، واذن لرؤساء البحر بالعدوتين في الخروج فيها ، فخرج الرئسان الحاج عبد الرحمن برگاس والحاج عبد الرحمن بريطل وغنموا بعض مراكب النمسا لما لم يكن معها رخصة العبور...

فماذا كانت نتيجة هذا القرار الذى تجاهل فيه سلطان المغرب نيات اوربا ؟ كانت النتيجة ان تعرضت احدى موانيء المغرب لهجوم قطعة من الاسطول النمساوى الذى ضرب عام 1245 = 1829 مرسى العرائش وانزل جنوده للبر لتحرق اسطول هذه المرسى ، وعلى الرغم من صد المغاربة لهذا الهجوم بقوة ، وطردهم للمهاجم ، فقد تدخلت انجلترا مع المغرب حتى انتهى الامر بما طالما تمنته هذه الدولة واصدقاؤها من جعل حد لنشاط الاسطول المغربي (2) .

---

1) توجد تفاصيل عن مأساة هذا الاسطول العربي في «حياة الشرق» لمحمد لطفى جمعه ص 86 ـ 102 .

2) راجع الاستقصا ج 4 ص 183 ـ 184

وقد علق مؤرخ المغرب الناصري (1) على هذا الهجوم النمساوي وبين الظروف التي حل فيها الاسطول المغربي وقال :

«واعلم ان هذه الوقعة هي التي كانت سببا في اعراض السلطان المولى عبد الرحمن عن الغزو في البحر، والاعتنـاء بشأنه، فانه ـ رحمه الله ـ لما أراد احياء هذه السنة صادف ابان قيام شوكـة الفرنـج، ووفـور عـددهم وادواتهم البحرية، وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدفاع، والتجادل والنزاع، ويهيج الضغن بين الدولة العلية ودول الاجناس الموالية لها، حتـى كاد عقد المهادنة ينفصم، واكـد ذلـك اتفـاق استيلاء الفرنسيين على ثغر الجزائر، فوجم السلطان رحمه الله، واعمل فكره ورويته، فظهر له التوقف عن أمر البحر رعيا للمصلحة الوقتية، ولقلة المنفعة العائدة من غزو المراكب الاسلامية، وانضم الى ذلك اعلان الدول الكبار من الفرنج مثـل الانجليز ، والفرنسيس : بأن لا تكون المراكب الا لمن يقوم بضبط قوانين البحر التـي يستقيم بها امره، وتحمد معها العاقبة، وتدوم بحفظهـا المـودة على مقتضى الشروط، ومـن مهمات ذلـك ترتيب القنـاصل بالمراسي التي تريد الدولة دخول مراكبها اليها وتجارتها فيها اى دولة كانت، ومـن هذه المهمات ما قد لا يساعد عليه الشرع او الطبع مثل الكرنتينات وما يترتب عليها، الى غيـر ذلك مما فيه هوس كبير، فاشتد عزم السلطان رحمه الله على ترك ما يفضي الى ذلك، وتاكد لديه اهماله لتوفر هذه الاسباب...» هذا تعليق «الاستقصاء على هذا الحادث الشنيع، وهناك جانـب خطيـر في المؤامـرة ضد الاسطول المغربي يشير له المؤرخ ابن زيدان(2) ويعلـق به على حل هذا الاسطول في العبارات التالية :

«وحدثني من وثقت بخبره انه لما بويع المولى عبد الرحمن علـق بعض الاجنـاس المجاوريـن للايالـة المغربية الاعتراف بسلطنته على ابطال القوة البحرية فامتنع، وبعد مراجعات وقع الاتفاق على بناء الابراج بثغر الرباط. فأمر ببناء برج السراط، وبرج السقالة، وبـرج الـدار، وبـرج القصبـة ، والسقـالـة .

ثم ان المترجم هو الذى امر على وجه السر بتغريق الاسطول البحرى المغربي لامر أوجبه» .

---

1) في المصدر نفسه ج 4 ص 184
2) الاتحاف ج 5 ص 153 ــ 154

ولم يبين المؤرخ ابن زيدان «الامر الذي اوجبه»، وحقيقته ان فرنسا انتهزت فرصة انهزام المغرب في «موقعة ايسلي» ففرضت على سلطانه ان يلقى من البحر القراصين المغربية، وتحت هذا الضغط العنيف لم ير سلطان المغرب بدا من أن يبادر فينزل بالاسطول المغربى نهايته الشنيعة (1)

وهذا يفيدنا أيضا تاريخ ذلك الحادث المشؤوم، وانه كان اثر معركة ايسلي الواقعة عام 1260 = 1843.

هكذا يختفي الاسطول المغربي من الوجود بعد تاريخ مجيد، وماض حافل بجلائل الاعمال، مليء بثايات البطولة والشجاعة المثالية .

وهكذا تنجح المؤامرات الدنيئة في القضاء على قوة المغرب البحرية بعد ما قضت وستقضى على قوات بحرية اخرى فى مختلف بقاع العالم الاسلامى

ابتدىء بحل هذا الاسطول ايام المولى سليمان ثم اجهز عليه نهائيا ايام السلطان المولى عبد الرحمن بعد ما كان الى عهد قريب جدا يغالب اساطيل الغرب فيغلبها ! (2) فما السر فى هذا التقهقر المفاجىء الذي جعل أسطول

---

1) توجد هذه الحقيقة في مذكرات للطاهر بن محمد ابن عبد السلام ابن الحاج الاودي احد أفراد البعثة الحسنية. اطلق عليها اسم: «الاستبصار» «نسخة خاصة» .

2) مثال لذلك : «المعركة البحرية» التي دارت على شواطىء طرابلس الغرب بين الاسطول المغربي والاسطول الامريكي أوائل القرن التاسع عشر م. حيث انتصر فيها الاسطول المغربي !

ففى عام 1803 = 1218 وجهت امريكا اسطولها الحربى لحصار «طرابلس» التي كانت سفنها تضر بالسفن الامريكيه في ذلك الحين، فهب المغرب لنصرة القطر الشقيق، وسار الاسطول المغربى يسابق الرياح، ويطير باجنحة النسور والعقبان، لكون سفنه كانت خفيفة، جامعة بين الشراع : «القلوع»، والمجاذف، فكانت قوة سيرها مضاعفة، فسبق الاسطول الجزائرى عن نجدة اخوانه الطرابلسيين، وما كاد الاسطول الامريكي يصل الى طرابلس حتى اعترضه الاسطول المغربي فقطعه عنها، وابلى بلاء حسنا، فلم تمر الا هنيهة حتى صيره على وجه الماء !

ولما بلغ ذلك مسامع امريكا بعثت عمارة أخرى الى طرابلس، ولكن لقيها الاسطول المغربي ثانيا فبدد تلك العمارة الامريكية. ودام النضال بين الاسطولين زمنا الى سنة 1815 = 1231 حيث صار لامريكا أسطول قوى لا يستهان به، فركن الطرفان للمسالمة، وربط المعاهدة الودادية.

من مقال للمؤرخ المغربي الكبير محمد بن علي الدكالي السلوى نشره في جريدة «المغرب» عدد ممتاز رقم 346. السنة الثالثة.

المغرب العتيد يستسلم لنهايته الشنيعة بدون حرب ولا قتال ؟ السبب واضح : انه الشرارة الاولى من المدنية الغربية تطير على المغرب فتقضي على أسطوله. وفي الامر ايضا درس قاس للمغرب الذى لم يأخذ بالصالح من هذه الحضارة الغربية، لان من طبيعة هذه المدنية انها تقضي على كل من لم يأخذ باسبابها سيما من كان جارا قريبا لها مثل المغرب .

سمع خير الدين التونسي (1) بعض أعيان اوربا يقول ما معناه .

«ان التمدن الاورباوى تدفق سيله على الارض، فلا يعارضه شيء الا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لاوربا من ذلك التيار، الا اذا حذوه، وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق » .

مأساة الجزائر

وكارثة ثانية او شرارة اخرى تطير على المغرب فتكون اكبر من سابقتها: انها هجوم فرنسا على الجزائر الشقيقة عام 1246 = 1830 ثم تدخل المغرب تدخلا مسلحا لنصرة الجارة القريبة بدون جدوى عام 1260 = 1844.

تلك المصيبة أنست ما تقدمها   وما لها مع طول الدهر نسيان

فماذا كانت نتيجة هذا الحادث الجلل بالنسبة للمغرب ؟ كانت ابعد مما يتصور، واكثر من أن يحيط بها وصف .

ظهر للملأ مدى الضعف والفوضى التي صار اليها الجيش المغربي في هذا العهد المظلم، بعد ما كان الاوربيون لا يزالون ينظرون له نظرتهم يوم كان يحرر الشواطئ المغربية ويغالبهم فيغلبهم، حتى اذا كانت موقعة ايسلي انكشف المرض الذى نزل بهذا الجيش، فانهزم ـ لاول لقاء ـ جنوده البالغون ثلاثين الف جندى امام الجيش النظامي الذى لم يكن يتعدى ـ فيما يقال ـ ثمانية آلاف جندى فقط .

ومن أهم أسباب هذا التاخر الذى طرأ على جيش المغرب، عدم اخذه بالانظمة الحديثة التي كان خصمه متوفرا عليها. وكان هو على الضد من ذلك، حتى

---

1) ذكر هذا في كتابه: «اقوم المسالك، في معرفة احوال الممالك» ص 50

ان قائد الجيش الفرنسي الماريشال بيجو لما اشرف على الجيش المغربى من عل قال : «ليس هذا جندا، انما هو غوغاء» من كثرة ما كان عليه من الفوضى والضعف (1) .

وصاحب الاستقصا (2) هو الآخر لم ير بدا من أن يسجل على الجيش المغربي هذه الظاهرة المؤلمة فى العبارات التالية :

«... فالحاصل ان جيش مغربنا اذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لامير الجيش، لا يملك من أمرهم شيئا، وانما يقاتلون هداية من الله لهم، وحياء من الامير، وقليل ما هم، وقد جربنا ذلك فصح، ففروا عن السلطان المولى سليمان فى وقعة ظيان اولا، وفي وقعة الشراردة ثانيا، وكان السلطان المولى عبد الرحمن اهيب في نفوسهم منه، فكانوا يلزمون غرزه، لكنه لما بعثهم الى تلمسان فعلوا فعلتهم، وسلكوا عادتهم، ولما شهدوا مع الخليفة سيدى محمد بن عبد الرحمن وقعة ايسلي جاءوا بها شنعاء غريبة في القبح ... »

ويفيد هذا النص ان انحطاط الجيش المغربي انما ظهر ابتداء من أيام المولى سليمان، وهو العهد الذى أخذت تتبدل فيه احوال المغرب نتيجة لتغير الاوضاع في أوربا.

وتبع احتلال الجزائر وضعف المغرب عن نصرتها ان اصبح المغرب المنيع الجناب بالامس القريب، يعيش في هذا العهد المظلم تحت تهديد مستمر لاستقلاله، فمن مشاكل الحدود التي تثار في كل مناسبة، الى اغتصاب لبعض اجزائه: من فرنسا تارة واسبانيا اخرى ، (3) الى تدخلات لا حد لها فى شؤون المغرب الداخلية، الى اثارة قلاقل، وخصوصا بالمغرب الشرقى، بل كاد المغرب يفقد استقلاله نهائيا عقب موقعة ايسلي لولا التنافس الدولي الذى عاش في ظله استقلال المغرب حتى أوائل القرن العشرين .

واذا أردنا أن نستخلص مقدرا ما أصاب البلاد فى كارثة الجزائر وسابقتها : نجد المغرب اصبح فاقدا قوته البحرية، مضيعا هيبة جيشه البرى، مهددا استقلاله من طرف الجار الاوربى القريب، فماذا تبع هذا الوضع المقلق؟

---

1) «كتاب الجزائر» ص 53.

2) ج 4 ص 219

3) من امثلة هذا استيلاء اسبانيا على الجزائر المغربية الثلاثة الواقعة على ساحل الابيض المتوسط، وهي المعروفة «بالجزر الجعفرية» وذلك عام 1834 = 1260. اى في العام الذى كانت فيه «موقعة ايسلي» .

نشأ عن ذلك كله ان فتحت ابواب مراكش للاوربيين بعد ما كانت مغلقة في وجوههم الا في احوال خاصة، فأخذوا يتسابقون لاكتساب النفوذ فيها، وكثر ترددهم عليها بالتجارات اولا، ثم بعد ذلك بالمشروعات، الامر الذي نشأ عنه عواقب وخيمة سياسيا واقتصاديا، وقد تبسط صاحب الاستقصا (1) في شرح هذه العواقب الاقتصادية وقال :

«وفي سنة احدى وستين ومائتين والف أخذت السكة في الارتفاع ... ولما أخذت السكة في الارتفاع اخذت الاسعار في الارتفاع أيضا، وحاول السلطان ـ رحمه الله ـ حصرها فلم تنحصر، وعلة ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما وقع مع الفرنسيين هذا الصلح ـ وهو الواقع بعد معركة ايسلي ـ واسقط السلطان عن الاجناس ما كانت تؤديه، كثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب، وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لاهله، وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها، وانفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل، فظهر اثر ذلك في السكة وفي السلع، اما السكة فلان سكتهم كانت هي الغالبة، وهي اكثر روجانا من سكة المغرب، فلا بد أن يكون الحكم والتأثير لها، والتجار يعتبرون فيها من الفضول والارباح الناشئة عن تغاير القطرين ما لا يهتدي اليه غيرهم من العامة، وتبعهم على ذلك تجار المسلمين، واما السلع فلان تجار النصارى يغالون في اثمانها اكثر من غيرهم كما هو مشاهد .

ثم ما دامت بلاد الفرنج مترقية في التمدن وحسن الترتيب واتساع الامن والعدل، الا وسككنا واسعارنا دائمة الترقي في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء، فتأمله، والله الموفق» .

هكذا يشرح صاحب الاستقصا الخطر الذي خيم على الاقتصاد المغربي في هذا العهد، ويجعل ذلك نتيجة لانفتاح ابواب المغرب اثر وقعة ايسلي، ونتيجة ايضا لتقدم اوربا وتأخرنا .

تدهور الاقتصاد المغربي :

وخطر آخر اصاب الاقتصاد المغربي في الصميم لما وقع في اوربا اكتشاف المناسج الميكانيكية التي تنسج بدون واسطة اليد، فقد أخذت منسوجات هذا الاختراع الجديد تدخل للمغرب في أواخر دولة السلطان المولى سليمان، ثم تكاثرت مع مر الزمن حتى قضت على المناسج المغربية اليدوية التي لم تتطور اذ ذاك بكل أسف .

---

1) ج 4 ص 198 .

وقد استطاع الغربيون ان ينسجوا على غرار المنسوجات المغربية لما وقع بيد تجارهم بالمغرب الملحم الخم، والمقصر المصنوعـان بسلا والرباط، فبعثوه الى بلادهم، ونسجوا على منواله فجاء الطف من المغربي، وأخف، وارخص ثمنا. واقل كلفة، فراج في مدن المغرب من حينئذ ويقال : ان أول مثال نسج عليه الافرنج : الصنفان المعروفان بالمزراية والكتان. ذهب به بعض تجار سلا مـن رؤساء البحر بها الى بلاد اوربا آخر دولة السلطان المولى سليمان، فان هذا التاجر ذهب بالملحم المقصر، والخم، ورجع ببدلهما من منسوجات الافرنج.

ومن هذا الوقت اخذت صناعـة القطـن والكتان تضعف شيئا فشيئا، ويجلب من بلاد الافرنج ما يستغنى به عما يصنعه المغاربة ويزهد فيه لرخص الافرنجي ولطافته. بعد ما كانت هذه الصناعة على غاية من الازدهار بالمغرب، فان معامل القطن والكتان وطرازاتهما بعدوتي سلا والرباط فقـط ـ كانـت تكاد ان لا تحصى كثرة، ولما تقهقر أمرها في أيام المولى سليمان وما بعده من ايام المولى عبد الرحمن. كانت الطرازات التي بقيت في سلا فقط دون الرباط ستمائة معمـل (I).

وما أصاب هذه الصناعة اصـاب باقي الصناعـات المغربية الاخرى التى تقدمت عند الغرب وبقيت على حالها عندنا .

وكان من نتيجـة هذا الغزو الاوربي للصناعات الوطنية، أن افتقر أهلها وضعف حالهم، ونزل بالمغاربـة ضـرر كبير يدفع ما في ايديهم من النقود ، والاحتياج الى الاجنبي في الملبوسات والمصنوعات وغير ذلك .

وفي هذا الصدد يقول خير الديـن التونسي فـي كتابه الجليل «اقـوم المسالك، في معرفة احوال الممالـك» (2) :

«... ولا يخفى ما يلحق الامة بذلك ـ عدم مجاراة المدنية النافعة ـ مـن الشين، والخلل في العمران، وفي السياسة. اما الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تأخر الامة في المعارف. واما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذى هو اصل مهم من أصول المكاسب، ومصداق ذلك ما نشاهده مـن أن صاحـب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع

I) «الاتحاف الوجيز، باخبار العدوتين لمولانـا عبد العزيـز» تاليف المؤرخ المغربي محمد بن علي الدكالي السلوى المتقدم، المكتبة الوطنية بالرباط رقـم D. 42 ، D . 1320

2) ص 7 ـ 8

القطن مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة، ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجي بثمن يسير، ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة باضعاف ما باعه به. وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج أرضنا الا قيمة موادها المجردة، دون التطويرات العملية التي هي منشأ توفر الرغبات منا ومن غيرنا. ثم اذا نظرنا الى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها، فان وجدناهما متقاربين خف الضرر، واما اذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة، وأما الخلل السياسي فان احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها، وموهن لقوتها، لا سيما اذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التي لو تيسر شراؤها زمن الصلح لا يتيسر ذلك وقت الحرب ولو باضعاف القيمة، ولا سبب لما ذكرناه الا تقدم الافرنج في المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية، فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن في ذاته، ويستسهل الامتناع عما به قوام نفعه بمجرد أوهام خيالية، واحتياط في غير محله.

ومما يحسن سوقه هنا قول بعض المؤلفين من الاورباويين فى السياسات الحربية : ان الممالك التي لا تنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية، والتراتيب العسكرية يوشك ان تكون غنيمة لهم ولو بعد حين، وخص التراتيب الحربية لانها موضوع كتابه، والا فالواجب مجاراة الجار فى كل ما هو مظنة لتقدمه سواء كان من الامور العسكرية او من غيرها»

الطور الاول

1860 = 1276 1830 = 1245

رأينا كيف اصطلحت الاحداث الجسام على هذا المغرب، وكيف ترادفت عليه الهزاهز حتى كانت كارثة الجزائر.

ان هذه الكارثة اطلعت المغرب بصفة خاصة على مدى التأخر والانحطاط الذى وصل اليه الجيش المغربي الباقي على وضعيته القديمة ـ أمام الجيش الاوربي المنظم والمسلح على احدث طراز، كما ان هذه الكارثة خلقت للمغرب جارا قويا لا حد لاطماعه التوسعية. وايضا اوجبت على المغرب ان يعين ويفك الجارة الاسيرة، وهكذا خلق احتلال الجزائر ارتباكا في النفوس، وبلبلة في

الافكار، تمخضا عن ظهور حركة انبعاث جديد، ويقظة في البلاد، كانت النواة الاولى، والحجرة الاساسية للوطنية المغربية الحديثة.

ان هذه اليقظة سببتنا ولها هذا البحث ـ ان شاء الله ـ ويدرس مختلف مظاهرها في الفترة الواقعة بين احتلال الجزائر واحتلال المغرب، أي من عام 1245 = 1830 الى عام 1330 = 1912.

وكما أشرت له سابقا، فقد مر هذا الانبعاث بثلاثة اطوار : بدأ ضعيفا ومحدودا في الطور الاول الذي يبتدىء من احتلال الجزائر الى موقعة تطوان عام 1276 = 1860، ثم أخذت هذه النهضة تؤتي ثمراتها من حادثة تطوان حتى وفاة الوزير أحماد عام 1318 = 1900، وهذا هو الطور الثاني، وفيه كان النشاط الحكومي اظهر من النشاط الشعبي، على خلاف الطور الثالث الذي ينتهي عند اعلان الحماية عام 1330 = 1912 فقد كان النشاط الشعبي فيه اظهر من العمل الحكومي .

يقظة شعبية

ونبدأ الآن بالطور الاول الذي يمتاز بأنه لم تنجز فيه أعمال تذكر ، شأن الحركات الاولى، وانما وجد فيه شيء من اليقظة الشعبية اخذت تبدو في غير ما مناسبة .

ولم تتخذ هذه اليقظة شكل حزب وطني، وانما كان هناك بعض مؤلفين يبثون افكارا يقظة في مؤلفاتهم، وكان ايضا شعراء وخطباء يذيعون تلك الافكار التي كانت تهدف الى المطالبة بتجديد الجيش المغربي، وتنادي بالجهاد لتحرير الجزائر .

الكردودي 1268 = 1851

ونجد في مقدمات شخصيات هذا الطور : محمد بن عبد القادر بن احمد الكلالي الشهير بالكردودي الفاسي مؤلف كتاب «كشف الغمة، ببيان ان حرب النظام حق على هذه الامة». ولنبرى بعض افكار المؤلف وروحه اليقظة نورد فقرات من هذا الكتاب يقول في أوله : (1)

«اما بعد فاني لما رأيت أسباب الجهاد قد اهملت، وءالاته قد اغفلت، وليله اعتم بعد أن كان مقمرا، ونهاره اظلم بعد ان كان نيرا، وغصنه ذوى بعد

1) ص 2 ـ 3

ان كان مورقا، وحسنه انطفا بعد أن كان مشرقا، ورأيت العدو الكافر دمره الله واهلكه، وظفر أيدي المسلمين بجميع ما ملكه، قد استولى على مملكة الجزائر، وقهر كل ذى سطوة فيها من ملك او ثائر، بحروب على هيئة مخصوصة وصفوف كابنية مرصوصة، ثم مد يد عزمه، وكشف عن ساق حزمه، لقتال اهل المغرب الاقصى، واخذ ثغوره التي لا يعد فضلها ولا يحصى، فتوجه لقتاله جيش لا معرفة له بحقائق الحروب واوصافها، ولا علم عنده بتفاصيل انواعها واصنافها، ومن كان منهم ببعض ذلك عارفا، كان له الجبن او ضعف الايمان عن مباشرة القتال صارفا، بل انهزموا جميعا عند اللقاء، واستبدلوا السعادة بالشقاء، وجروا على الاسلام ذيل العار، فاستوجبوا عقوبة الدنيا وعذاب النار فانا لله وانا اليه راجعون، لعظيم ما نحن به مصابون .

على مثل هذا يقتل المرء نفسه ويحلو له مر الممات ويعذب

حملتني الحمية الدينية، والغيرة الاسلامية، على ان وضعت هذا الكتاب الجامع لمحاسن اللباب، المشتمل على صفة الحروب واسبابها، وموجبات الظفر والهزيمة وءادابها، مع ما تتوقف عليه من الشورى والعدة والشجاعة، واحوال الجند التي بها ينتظم عقد الجماعة، الى غير ذلك من حكم ووصايا، وحض في ميادين الهيجاء على احتساء كؤوس المنايا ....»

ومن افكار هذا الكتاب في تنظيم الجيش: ما جاء في الباب الاول بعد ان قرر ان مرجع الحرب الى نوعين : نوع بالزحف صفوفا، ونوع بالكر والفر قال : (1)

«وقد اعتنى الروم لوقتنا هذا بامر الصفوف وبالغوا في ترتيبها وتسويتها بما لا مزيد عليه، فجعلوا في المقدمة صفوفا اربعة او خمسة : صفا وراء صف تتخللها مدافع كبار، وفي الساقة والجناحين مثل ذلك، والخيالة وراء الصفوف مما يلي القلب، وملئوا القلب بالرجال والاثقال، والجميع كبكبة واحدة، رسنها بيد واحد في القلب، يتكلم معهم في بوق، أو يقرع الطبل على هيئة يفهمون منها مراده، فيصدر الكل عن رأيه، فاذا التقى الجمعان رمى أهل الصف الاول المقابل للعدو رمية رجل واحد، ثم يجثون على الركب فيرمي من ورائهم كذلك، وهكذا فيصير الرمي متتابعا لا ينقطع، وبندق الرصاص يقع كالمطر الوابل، وهم في اثناء ذلك يرمون بالمدافع الكبار، فاذا رأت الخيل فرصة في عدوها اخترقت الصفوف لانتهازها، ثم تعود لمحلها .

---

1) ص 6

وللمبالغة في تسوية الصف واقامته، لا تجد واحدا منهم خـارج الصف فتختطفه خيل العدو، فاذا سقط واحد من الصف الاول مثلا خلفـه من الصف الذى قبله، وخلف هذا واحد مـن الـذى قبلـه، وهكذا الى ان يصل ذلك الى الاخير فيخلفه واحد من القلب، ويحمل الساقط من هو معين لحمله لا غيره، فيجعل في كراريط الموتى ان كان ميتا، او الجرحى ان كان جريحا، وكل هذا محافظة على اقامة الصف وتسويته، وترتيـب الجيش علـى هذه الصفة هو المسمى بالنظام... ثم قتال الزحف بالصفوف هو الذى دل الكتـاب والسنـة عـلـيـه ».

ومن صفحات الكتاب التقدمية تحدثه ـ ق ذلك العهد: عهد السلطان المولى عبد الرحمن ـ عن قيام النظام البرلماني في اوربا وتركيا ليلوح من وراء هذا الى المطالبة باقامة هذا النظام بالمغرب، ذكر هذا فى الباب الخامس اثناء حديثه عن الشورى وقال : (1)

«قلت والروم لعهدنا، وكذلك الترك فيما يبلغنا، قصروا الشورى على اربعين رجلا فلا يبرم أمر عندهم الا ان صدر عن رأيهم واشارتهم، وتسمى هذه الجماعة بالكرطي»

وهذا الكتاب وضعه مؤلف باسم السلطان عبد الرحمان، وطرز طالعتـه بذكره، ورتبه على عشرة ابواب وخاتمة، وهو مطبوع على الحجر بفاس في صحائف 111 راجع ترجمة المؤلف في «السلوة»(2).

ابـن عــزوز اواخر القرن 13 هـ

يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط رقم D 1623 طرف من رسالة مخطوطة منسوبة لابن عزوز؟ الذى الفها للسلطان عبد الرحمن وسماها: «رسالة العبد الضعيف، الى السلطان الشريف» وموضوع هذه الرسالة فـى تنظيم الجيش المغربى، افتتحها بعد خطبة قصيرة بقوله يخاطب الملك المغربى :

«اما بعد فلا شك ان غرضك السديد، وتدبيرك المفيد، تعلق بالعسكر، واراد جمع الجيش الاكبر، مع علم سيدنا ايده الله ان العسكر يحتـاج الـى التهيىء لما لابد له منه ، فحينئذ يقبض ويجمع على الهيئـة المخصوصـة له، والقانون الذى عليه مداره.

1) ص 46

2) ج 2 ص 333

وها أنا ارتب لك ذلك في هذه الرسالة ، وارجو به الفوز يوم القيامة، بشفاعة جدك صاحب العمامة، صلى الله عليه وءاله وسلم عدد الرياح الذارية ، والامطار النازلة ، ونفصل له اربعة فصول : الاول في ذكر التهيىء له ، والثاني في كيفية جمعه وكيف يجمع من المدائن والقرى والبوادى، وربما اشير الى بعض المسائل من تعلمه مع اختصار، والثالث في كيفية تهيئه وسفره لقتال العدو وصفة القتال ، والرابع اذكر فيه توبيخ بعض امراء الحوز، وبعض امراء الجند، واذكر فيه من يليق ان يتولى امر العسكر حال جمعه وسفره وتهيئه لقتال العدو اذا وجد وتوفرت فيه الشروط الآتية»

وقال في الفصل الثاني :

«اعلم ايها المنصور بعون الله ، المجاهد في سبيل الله ، المخلص الاعمال لله ، ان النصارى ملكوا جزائر، وسبوا نساءها ، واخذوا اولادها ، وغنموا اموالها ، فلم يكفهم ذلك، وانتشروا في ساحتها حتى وصلوا الى وهران، وتلمسان ، وام عسكر ، ومغنية ، وتافنة ، وغير ذلك من المدائن القريبة منها والبعيدة عنها ، فغرسوا الاشجار ، واكلوا الثمار وشيدوا البنيان ، واتسعوا في الاوطان ، وركبوا الخيول ، وقتلوا الفحول ، وعجبتهم انفسهم ، وفرحوا بكثرتهم ، وغلظت شوكتهم ، وتجاسروا على القريب منهم والبعيد عنهم ، وطمعوا في هذا المغرب وفي الوصول الى مدينة فاس ، التي هي دار ملكك ومحل حكمك وولايتك ، فوجب عليك ــ نصرك الله ــ التهيىء لهم ، وجمع العساكر للقائهم »

والموجود من هذه الرسالة يقع في صحائف 11، ويقف اثناء الفصل الثاني .

والغالب ان مؤلفها هو الامام الحكيم عبد الله ابن عزوز القرشي المعروف عند العامة بسيدى بلة المتوفي بمراكش اواخر القرن الثالث عشر، والمترجم بكتاب «السعادة الابدية، في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية» (1)

التسولي 1258 = 1842

وممن يحق ان يذكر في صف المصلحين في هذا الطور ابو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المدعو مديدش المتوفى عام 1258 فقد ضمن جوابه

---

1) ج 1 ص 92 ــ 96

«البسيط»(1) الذي اجاب فيه عن الاسئلة التي رفعها ـ الى علماء فاس ـ محيي الدين الامير عبد القادر الجزائري عدة توجيهات وافكار تتناول واقع الحياة اذ ذاك بالمغرب. ومما كتبه بخصوص تنظيم الجيش (2) :

«...ولذلك قالوا يجب على الامام ان يهتم بامور الجهاد فيأمر كل قبيلة بتعلم الحروب والتدريب ، وان رأى ان يعين من كل قبيلة مائة او اكثر تتعلم الحروب مهيئة نفسها لكلمة الامير ، وتكون تلك المائة من الوجوه الذين لا يولون بالادبار ، وعند كل خمسة اشهر ونحوها يامر بالضرب بين يديه بمرءا منه ، فمن رءاه منهم كثير الاصابة والتدريب احسن اليه ، وقربه لديه. وهكذا حتى يعرف من كل قبيلة ابطالها وشجعانها، فيعينهم حينئذ للاستنفار: الامثل فالامثل، ومن وجده من القبائل لم يعتن بما امره به من تعلم الحروب اهانها واهان قائدها ولامهم على مخالفة امره، ولا يتكل في اختيارهم على غيره، فينتظم الامر حينئذ، فاذا احتاج الامير الى اقامة جيش لفجأ العدو ونحوه اقامه في ساعة واحدة من الابطال، لانهم مكتوبون عنده في الديوان من كل قبيلة، ولا يحتاج حينئذ الى فريضة الحراك، لانهم اذا وكلوا لفرضهم لا يحركون الا اوباش الناس الذين اذا قاتلوا العدو ولوا الادبار ، فيفسد الامر، ويختل الملك، وربما كانوا لا يفرضون الحركة الا بعد انتهاز العدو في المسلمين الفرصة» .

ومما ورد فى هذا الكتاب فى موضوع الدفاع عن الجزائر (3) :

«تنبيه اذا نزل عدو الدين بارض الاسلام او قريبا منها مريدا الدخول اليها فان الجهاد فرض عين على اهل ذلك البلد وعلى امامهم، شيوخا وشبانا، احرارا وعبيدا، بل وان على مرأة ان كان لها قوة، ولا يتوقف قتالهم للعدو النازل على مشورة الامام، ولا سيما ان بعد منهم، بل وان لم يكن لهم امام تعين عليهم مدافعته ونصب الامام، فان لم يقدروا اهل ذلك البلد مع امامهم على مقاومة العدو ـ تعين على اقرب الائمة اليهم وعلى رعيته ان يعينوهم ،

---

1) للتسولي جوابان عن «الاسئلة الجزائرية» : «بسيط» وهو الذى يقتبس منه هذا البحث . وهو مطبوع على الحجر بفاس، و «وجيز» وهو وارد «بالمعيار الجديد» في موضعين : ج 3 ص 42 ـ 46 التي ورد فيها على حدة ، و ج 10 ص 205 ـ 212 ورد مع جواب القاضى عبد الهادى العلوى فى المسالة

2) ص 3 ملزمة 6.

3) ص 8 «م» 8

فان لم تكن فيهم كفاية ومقاومة ايضا وجب على من والاهم، وهكذا حتى يأتي الوجوب منسحبا على جميع المسلمين.

فقطر الجزائر مثلا حيث لم يقدروا على دفعه لعدم من يضبط كلمتهم، ولعدم وجود القوة منهم، بدليل انه يتردد العدو اليهم ويأخذ مدائنهم شيئا فشيئا ـ فانه يجب على من والاهم من ائمة المشرق وائمة المغرب الى سوس الاقصى والى بغداد بل والى الهند مثلا: أن يعينوهم بالجيوش والعدة والعدد، وان عصا من والاه ولم يعن ـ تعين على من والى من والاه وهكذا...»

ذلك بعض ما ورد في اجوبة التسولي، هذا التاليف الذى يعد اول مظهر لليقظة الوطنية بالمغرب الحديث.

ونود الا نترك هذا الكتاب حتى ننقل عنه للمرة الاخيرة خطبة كان انشأها مؤلفه التسولي ثم خطب بها غب احتلال فرنسا للجزائر، حرض فيها على الاستعداد، ودعا للجهاد، نثبت محل الحاجة منها كمثال لاحدى مظاهر تلك اليقظة، وكانموذج لصدى احتلال الجزائر في الجامع المغربية قال (1) :

«... فحرضوا انفسكم واشياعكم عليه ـ الجهاد ـ بقلب وقالب وجازم الاعتقاد، واكثروا من الاهبة والنفر اليه وبادروا له بغاية الاستعداد، فان لم تشغلوهم شغلوكم، وان لم تقاتلوهم قاتلوكم، كيف وهم لكم بالمرصاد.

او لا ترون انهم نزلوا على من بالقرب منكم واستولوا لهم على اعظم الثغور، وصارت تخلى رعبا منهم المنازل والقصور، ويغتالون لهم الرقاب والاموال والاولاد، فانظروا ايدكم الله لانفسكم، فان فساد الكفر لا يعدله فساد، يبث له الشرك والتثليث وينسخ كلمة التوحيد، ويمحي اثر قائلها من الارض والبلاد، او لا تتيقنون أن الله سبحانه أمرنا بالغلظة عليهم والتقوى وكثرة الاستعداد، او لا تعلمون ان الله وعدنا بالنصر عليهم وهو سبحانه ان وعد بشيء لا يخلف الميعاد، فقال جل من قائل : «ان تنصروا الله ينصركم» وقال: «وليجدوا فيكم غلظة» وقال : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة» وقال : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» وقال : «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» وقال : «وقاتلوا المشركين كافة» وقال : «ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم» أى أحسبتم ان تتركوا فلا تومروا بالقتال فى الجهاد أو لا تمتحنوا ليظهر الصادق في ايمانه من الكاذب، ويتميز كل على الانفراد،

---

1) ص 2 ـ 3 «م» 8

وقال : «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين» اى لنعاملنكم معاملة المختبر بأن نامركم بالقتال في الجهاد حتى يتبين الصابر على دينه من غيره ونظهر اخباركم للحاضر والباد، فتنبهوا أيدكم الله فانكم بهذه الآيات القرآنية المخاطبون، وبالاحاديث المصطفوية المقصودون، اذ بيدكم الحل والعقد، والرعية في طوعكم فكيف بامرها بالجهاد تبخلون، وانتم خلفاء الله في ارضه فكيف على دينه لا تغيرون، أامنتم مكر الله فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون، أاتخذتم عند الله عهداً فأنتم عليه متوكلون، أم تعتقدون ان كفاركم اليوم لا يقصدونكم بالقتال والجلاد، أم تقولون نحن اشتغلنا اليوم بجهاد انفسنا ورعيتنا وبالخدمة على الاولاد، والنبي عليه وءاله الصلاة والسلام انما بعثه الله مجاهدا، وفى هذا العرض الادنى زاهدا، متقنعا باليسير، وهو يستعد لعدوه الاستعداد الكبير، فاذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون، واذا لم تهتدوا به فبما تهتدون، واذا لم تشمروا عن ساق الجد في هذه البرهة ففي اى وقت تشمرون، واذا لم تستعدوا في هذه الفسحة فمتى تستعدون، افلا تتذكرون ان الله سبحانه امرنا بالذهاب اليهم وقتالهم في أراضيهم، فكيف ان قدموا الى برنا هذا بالغي والفساد، ام لنا براءة استثنانا الله تعالى بسببها من عموم دعوة الجهاد، فالجهاد فريضة عين على من نزل بهم عدو الدين، فان لم تكن فيهم كفاية او لم تجتمع لهم كلمة فعلى الذين يلونهم وهكذا الى ان تحصل الكفاية ولو اتصل ذلك من مثل المغرب لبغداد او غير ذلك من الافاق الحاضر والباد، فأيقظوا انفسكم من وسن الغفلة، وانتهزوا من العدو الفرصة ما دامت منكم فسحة الاستعداد، قبل ان يتفاقم الهول ويحق القول ويسد الباب، ويحق العذاب، وتسترق بالكفر الرقاب، ويحصل الفوت بسبب الازدياد، فانكم ان لم تستعدوا فهم لكم بصدد الاستعداد، والوقوف لكم بالمرصاد، ولا تتكلوا على ما يخبركم به ضعفاء العقول من وفائهم باستمرار العهود، وعدم نقضهم للميثاق المعقود، فان ذلك كله مردود، اذ لا ميثاق ولا عهد لاعداء الدين واهل الفساد، ونحن لا نعتبر عهودهم وشهاداتهم بالاضافة اليهم فكيف نعتبرها بالنسبة الينا باجماع اهل العلم والاجتهاد،

راجع ترجمة التسولى في السلوة (1) .

---

1) ج 1 ص 238 .

محمد ابن ادريس 1264 = 1847

أما الشخصية الرابعة من رجال اليقظة في هذا الطور فهو الوزير الشهير محمد بن ادريس العمروي الفاسي المتوفي عام 1264.

له عدة قصائد في الدعوة الى الجهاد لانقاذ الجزائر من ذلك قوله :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم ... الى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم ... من بعد ما سام اهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه ... ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت ... عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه ... فعنده المكر والمكروه في نمط
وانتم القصد لا تبقن في دعة ... ان السكون الى الاعدا من السقط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط
قد يغبط الحر في عز يخلده ... وليس حي على ذل بمغتبط (1)

ومن ذلك ايضا قصيدته النونية المسماة : «سرية النصر، لاهل هذا العصر» تحتوى على مائتين وعشرين بيتا يقول في أولها :

فرض على كل مسكين وسلطان ... حمل السلاح على عباد اوثان
فحمله شرف عال ومفخرة ... خص الاله بها اعز عبدان
لا شيء أحسن من صوت السلاح على ... الاعناق في طاعة المولى ورضوان
فهو الوسيلة في نصر الاله لكم ... ونصرة المصطفى اجل عدنان
وليس يجحد فضل حمله ملك ... وليس يأنف عنه كل خاقان
به نبيكم الالاه شرفه ... بحمله لامتثال امر رحمان
به ازيلت لهذا الدين غربته ... وطار صيتنا به بكل بلدان
والانتهاء كالابتداء قاعدة ... في الفقه مقروة في كل ديوان (2)

ومن اشعاره ايضا في الموضوع : القصيدة الطنانة التي انشدها عند ما استولت فرنسا على مدينة تلمسان، واولها :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد ... فالكفر قد شاركم في البلاد
والشرك قد نصب اشراكه ... مستعبدا بكيده للعباد

---

1) الاستقصا ج 4 ص 106 مع «الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية» مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط رقم 1463

2) «الحلل البهية في تاريخ الدولة العلوية»

ويا حماة الدين ما صبركم — والمشركون يطلبون البداد
ما هذه الغفلة عن ضدكم — وأنتم في الحرب أسد الجلاد
ان بني الاصفر اعداءكم — اطمعهم نومكم في السواد
ويا أباة الضيم هل نهضة — تسربل الكفر ثياب الحداد
قوموا لنصر دينكم قومة — تحطم أهل الشرك حطم الجداد
اين بنوا العرب الذين لهم — قدم صدق فى جهاد الاعاد
وأين اهل البر من بربر — ومن لهم في الدين بيض أياد
وأين من حاز النهى والتقى — ومن له في الله حسن اعتقاد
وأين اهل الدين قاطبة — وسادة الناس الصلاب الشداد
واين سكان الحواضر مع — أهل المداشر واهل العماد
أين الجبال وقبائلها — أهل البسائط واهل الوهاد
كم وقعة تتلى لاسلافكم — بالسن المدح لنا وتعاد
فاين ما أعددتم لهم — من قوة الرمى وسبق الجياد

الى ان يقول :

واسطة المغرب قد حازها — والامر جد والبلا فى ازدياد
حوى الجزائر ووهرانها — وراع حاضراً بذاك وباد
مصائب صبت على معشر — يبكي من الاشفاق منها الجماد
يكاد يفضي المرء من حرها — على حشاه ، وتذوب الصلاد
اخوانكم دينا وجيرانكم — اضحوا رعايا الشرك بين أعاد
ساموهم هونا ، وازروا بهم — فى الدين حتى ركنوا لارتداد
وطمعوا فيكم فكونوا يدا — فان تثاقلتم فانتم مراد
قد ملكوا الاحرار من غدرهم — ودللوا بالكره صعب القياد
من خلقت لحية جار له — فلتكن لحيته فى اعتداد

ومنها :

تذكروا وقعة أندلس — وابصروا منها سبيل الرشاد
لتعلموا غدر العدو وما — رمى به من كل خطب نئاد
تحملوا من غدرهم صبة — امرض حملها القلوب وءاد
ان الخداع عنده سنة — والنكب دينه متى ما أراد
سلوا الجزائر وما قد لقوا — من غدره بعد عهود شداد
لا قرب الرحمن دار امرىء — مال الى الاشراك يوما وعاد ...

ومنها :

«اه على الاسلام قد ضعفت انصاره بعد قوى واشتداد
«اه على مساجد رجعت بعد الصلاة خان خمر وناد
«اه على صوامع ابدلت بعد الاذان نقر ناقوس صاد
«اه على مدارس اصبحت بعد دروس العلم ماوى الوغاد
«اه على مكاتب قد خلت وعادها بعد النفاق الكساد
«اه على حواضر وقرى وجنة للكفر فيها مراد
«اه على الابكار قد أصبحت بعد الصيانة دواعي فساد
«اه على الحرم قد هتكت ولم يغر لهتكها ذو فؤاد
«اه على ثغور عز غدت بعد التبسم كساها الحداد
اما لاهل الدين من واعظ أما لاهل العقل من ذى رشاد
يا أيها الناس اتقوا ربكم وجاهدوا فى الله حق الجهاد (1)

الى آخر هذه القصيدة الطويلة التي بلغ عدد ابياتها 111 بيتا .
راجع ترجمة هذا الشاعر فى الاتحاف(2) والاعلام (3).

محمد غريط 1280 = 1863

هو الوزير محمد بن محمد بن عبد الله غريط المكناسي ثم الفاسي المتوفي عام 1280 هـ. وهو الخامس من رجال هذه اليقظة المباركة، له اشعار في واقعتي الجزائر وتطوان، وهذا نص القصيدة التى أنشأها بعد احتلال تلمسان :

مالي ارى جفن أهل الغرب وسنانا من بعد ما أخذ الرومي تلمسانا
كأنهم ما دروا ماذا يريد بهم عدو دينهم ، لا نال امكانا
ولا على فعله فى دفتر وقفوا باهل أندلس يا بيس ما كانا
لا عذر للمسلمين في التكاسل عن جهاده حسبة منهم وايمانا
أين الكماة الحماة ما لهم رقدوا والكفر فى اخذهم ما زال يقظانا ؟

1) عن نسخة من هذه القصيدة «اخر مجموع مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط رقم D 1388 مع تصحيحها على النسخة المطبوعة، منها بفاس بذيل «كشف الغمة» المتقدم .

2) ج 4 ص 189 — 239

3) ج 5 ص 263 — 292

اين الاباة لمس الضيم مالهم … اليه لم ينفروا رجلا وركبانا ؟
كأن أهل جزائر وغيرهم … ليسوا لنا باعتبار الدين اخوانا
كأن ما هم به من الهوان على … من قد عداهم من اهل الذين قد هانا
يا معشر المسلمين استيقظوا وخذوا … من العدا حذركم سرا واعلانا
فليس يومن غدرهم وان بعدوا … فكيف اذ اصبحوا للحد جيرانا
ان لم يفاجئه من تلقائكم مدد … يمد نحوكم للكيد اشطانا
ويستهشهم ظننا بانكم … كمن له شيعة اضحوا واخدانا
فجددوا عزمكم عن قتالهم … واستخلصوا منهم قرى وبلدانا
تلك الجهات بها الاسلام يندبكم … لتهدموا بيعا بها واوثانا
وتنقذوا اهلها من العدو فقد … اراهم من شنيع المكر الوانا
والدين أوجب أن نسعى لنصرتهم … بالنفس والمال اشياخا وشبانا
والله منا اشترى نفوسنا كرما … بجنة جمعت حورا وولدانا
وكم وكم «اية في حضنا وردت … على الجهاد فما اقل جدوانا
وكم وكم من حديث في فضائله … يصير الجبنا النكاص شجعانا
موتوا كراما فان الحر يانف من … معيشة تدع الحليم حيرانا
لا موت افضل من موت الجهاد لمن … يرجو من الله رحمة ورضوانا
ان تنصروا الله ينصركم فلا تهنوا … ولتخلعوا في ابتغاء القوم ارسانا
اخوانكم قبل ـ مع نزور عدتهم ـ … غزوا، واخلوا من الكفار اوطانا
وكم لهم في جهاد الشرك من أثر … املى به الناس ديوانا فديوانا
ولستم باقل منهم عددا … فكيف منكم يرى العدو اذعانا
كونوا صلابا على أهل الصليب فلا … دين لمن لعدو دينه لانا
وليس يعطى الدنية الكريم ولو … اضحى لنار عدو الدين قربانا
وكل ذى همة يستعذب الموت في … ما يرفع القدر في الدارين والشانا
بيعوا نفوسكم واغزوا عدوكم … كفى بصفقة من لم يغز خسرانا
وشمروا، وانهضوا، وسارعوا، وعلى … جلاده اخوة كونوا واعوانا
ما قصر العمر اقدام على خطر … ولا أنال الخلود الجبن انسانا (1)

ولهذا الشاعر ترجمة في الاتحاف (2)

---

1) ذيل «كشف الغمة» المتقدم مع نسخة مخطوطة من القصيدة .

2) ج 4 ص 248 – 254

محمد بن الشيخ سيدى الشنجيطي 1284 = 1867

الى جانب الآثار اليقظة المتقدمة ـ يكون من الطريف ان يسجل هذا البحث انه في هذا «الطور الاول» اخذ يظهر في شنجيط ايضا نوع من الانبعاث يرمي الى الدعوة للاستعداد لمقاومة التوسع الاستعماري، ونستطيع ان تجد صدى هذا الانبعاث عند الاديب الشنجيطي محمد بن الشيخ سيدى ابن المختار بن الهيب الابييرى ثم الانتشائي المتوفي عام 1284، فقد كانت قصيدته الآتية : صرخة داوية لايقاظ النفوس من سباتها، ودعوة صارخة للاستعداد لمقاومة كل تعد .

والقصيدة طويلة ومن منتخباتها قوله :

ترانا عاكفين على المغاني لفرط الشوق تدبها حيارى
اسارى لوعة واسى تنادى وما يغني النداء عن الاسارى
ولو في المسلمين اليوم حر يفك الاسر او يحمي الذمارا
لفكوا دينهم وحموه لما اراد الكافرون به الصغارا
حماة الدين ان الدين صارا اسيرا للصوص وللنصارى
فان بادرتموه تداركوه والا يسبق السيف المدارا
بان تستنصروا مولى نصيرا لمن والى ومن طلب انتصارا
مجيبا دعوة الداعي مجيرا من الاسواء كل من استجارا
وان تستنفروا جمعا لهاما تغص به السباسب والصحارى

وبعد ما افاض في وصف هذا الجيش قال :

فمن يك هكذا يحيى حميدا ويستحلي بموطنه القرارا
ومن لا فالممات به جدير ولو للنار بعد الموت صارا
فيا للمسلمين لها امور ! لها الاكباد تنفطر انفطارا
تهاونتم بموقعها وما إن تهاونتم بها الا اغترارا :
لصوص لا تخاف البأس منكم ولا العقبى فترضى ان تدارا ...
وروم عاينوا في الدين ضعفا فراموا كلما راموا اختبارا
فان أنتم سعيتم وانتدبتم برغم منهم ازدجروا ازدجارا
وان انتم تكاسلتم وخمتم برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فالفوكم ـ كما يبغون ـ فوضى حيارى لا انتداب ولا ائتمارا
وما ظنوا لعظم ـ جابروه كسارى ـ بعد هيضته انجبارا

وقالوا : ان للفرس اهتزازا — وثاروا كي ينالوا منه ثارا
ولم اعرف وسوف ترون عما — قليل : صبح ليلكم استنارا :
مهي حور المدامع عاطفات — تخوض بها القراقير البحارا
اذا التفتت لجانبها تلافت — ـ حذار الموج ـ لوحا او دسارا
لئن كانت مراكبها المهاري — وان كانت مراودها القفارا
تلطمها العلوج على خدود — كسى الوانها الفزع اصفرارا

وقد اطال في وصف الحالة المؤلمة التي يتوقعها لهؤلاء ثم قال :

فيا للمسلمين لما دهاكم — الى كم لا تردون الحوارا
أجيبوا داعي المولى تعالى — او اعتذروا ولن تجدوا اعتذارا
اجيبوه بدنياكم تعزوا — وتدخروا من الاجر ادخارا
فاحدى الحسنيين لكم أعدت — حمالة قادر حاز اليسارا
بجنة اشترى منكم نفوسا — وما لا ياربا حكم تجارا (1)

الى آخر هذه القصيدة التي يبلغ عدد ابياتها 109

المحاولات الاولى لتجديد المغرب

الآن ـ وقد انتهى عرض ما طالت اليه اليد من آثار يقظة المغرب الشعبية في هذا الطور الاول ـ لا ننسى ان نسجل انه في الطور نفسه وعلى عهد جلالة السلطان المولى عبد الرحمن : بدأت ـ ولو ببطء، وفي نطاق محدود ـ المحاولات الاولى لتجديد المغرب.

ففي هذا الطور بدأت تجربة تنظيم الجيش المغربي على طراز حديث، وانما لم تدرس هذه التجربة هنا وتأخرت للطور الثاني لتتناسق مع المحاولات التي بذلت لتنظيم هذا الجيش من طرف جلالة محمد الرابع وابنه المولى الحسن خلال «الطور الثاني»

شكوى

هذا ولتكن خاتمة حديث الطور الاول اثبات شكوى للسلطان المولى عبد الرحمن من الوضعية التي «ال اليها المغرب» وقد بث هذه الشكوى خلال

---

1) القصيدة بطولها واردة في «الوسيط» ص 248 ـ 254 ضمن ترجمة صاحبها .

قصيدة وجهت على لسانه الى الجناب النبوى الكريم (1) فقد جاء فى هذه القصيدة لدى ذكر الامة المغربية ما يلى :

«... واني قد استرعيت منهم رعية وحملت من اعباء امرهم اصرا
أروم لها التوفيق والرشد والهدى وارجو لها الاسعاد والحفظ واليسرا
وءامل من جدواك كل عناية ونصرا عزيزا يهدم الشرك والكفرا..
وقد جاوروا من عصبة الكفر أمة تريد بنصب الماكرين لها الجرا..
واظهر لها من عز جاهك نصرة ترد على الاعقاب من سامها ذعرا
وتخلى ديار المسلمين من العدى وتكسبها من بعد نجسهم طهرا
وتتركهم صرعى بكل ثنية وتملأها دينا كما ملئت كفرا

الطور الثانى

1276 = 1860 1318 = 1900

يمتاز هذا الطور بانه عهد اصلاح وتجديد من طرف الحكومة المغربية ، كما يمتاز بأن مركز المغرب فيه ازداد تحرجا وضعفا بعد حادثة تطوان التي هي مبدأ الطور الثاني، فان هذه الموقعة ازالت الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال الغربيون بسببها، وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله، وكثرت الحمايات التى تشأ عنها ضرر كبير (2) .

وفي هذا الطور ايضا بدا واضحا تدهور الاقتصاد المغربى الذى بقى على وضعيته القديمة امام تقدم اوربا المدهش في التجارة والصناعة، وقد شرح هذه الظاهرة صاحب الاستقصا (3) فى العبارات التالية :

«واعلم ان احوال هذا الجيل الذى نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذى قبله غاية التباين، وانعكست عوائد الناس غاية الانعكاس، وانقلبت اطوار اهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم : لا في سككهم، ولا فى اسعارهم، ولا فى سائر نفقاتهم، بحيث ضاقت وجوه الاسباب على الناس ،

---

1) القصيدة من شعر الوزير محمد بن ادريس العمروى المتقدم وهى واردة فى «الاتحاف» ج 5 ص 271 — 273

2) الاستقصا 4 ص 222

3) ج 4 ص 278

وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش، حتى لو نظرنا في حال الجيل الذى قبلنا، وحال جيلنا الذى نحن فيه، وقايسنا بينهما، لوجدناهما كالمتضادين والسبب الاعظم في ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من اهل الاوربا للناس، وكثرة مخالطتهم لهم، وانتشارهم في الافاق الاسلامية، فغلبت احوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته اليها جذبة قوية».

هكذا يشرح هذا المفكر الكبير حالة الاقتصاد المغربي في هذا الطور، فاذا أضفنا هذا لما قبله ـ ندرك الحالة السيئة التي «ال اليها المغرب في هذا الطور : سياسيا، وعسكريا، واقتصاديا، بينما الدول الاوربية ـ وفي مقدمتها التي يهمها أمر المغرب ـ بلغت في هذا الاوان : الاوج في التقدم والرقي .

ومما ينبغي أن يسجل هنا : ان المغرب في هذا الطور اشتد التنافس الدولي حوله، فقد صار موضع اهتمام اربع من الدول الاوربية : اسبانيا، انجلترا، فرنسا، المانيا الحديثة العهد بتوحيدها .

اما اسبانيا فكان اهتمامها بالمغرب راجعا الى الصلة التاريخية القديمة التى كانت تربط بين البلادين، واما اهتمام انجلترا فكان اقتصاديا وحربيا ، وكان الاهتمام الاخير منحصرا فى منع اية دولة اوربية قوية من ترسيخ اقدامها فى ساحل مراكش الشمالي الذى يطل على البحر المتوسط، حتى لا يكون وجودها هناك مهددا لحصن جبل طارق .

واما اهتمام فرنسا فكان استعماريا محضا، لان فرنسا لم تتطلع الى ابتلاع تونس في شرقي الجزائر، ومراكش في غربها، الا لكيما تؤسس فى شمال افريقيا امبراطورية شاسعة تستعيض بها عن الامبراطورية التي كانت لها في اوربا في عهد نابليون الكبير.

اما اهتمام المانيا فكان تجاريا بحتا، ولذا كانت تلك الدولة رائجة جدا، وءاخذة في النمو (1) وقد دام هذا التنافس حتى عام 1322 = 1904 حيث انسحب من الميدان انجلترا واسبانيا، ثم انسحبت المانيا بعد ذلك عام 1329 = 1911 .

الى هذه الحالة صار المغرب فى هذا الطور، فماذا فعله اولوا الامر فى المغرب حينئذ، وهما ـ بصفة خاصة ـ الملكان : محمد الرابع، والمولى الحسن؟

---

1) «مذكرات لورد غراي وزير خارجية بريطانيا العظمى سابقا، تعريب علي احمد شكري : مقدمة المغرب ص 48 ـ 49

وحقا انهما بذرا البذور الصالحة، ووضعا اللبنات الاولى لاصلاح الحالة بالمغرب، ولو ساعدتهما الظروف، وساعدت الذين أتوا بعدهما، لتحول المغرب من ذلك التاريخ، الى امة لها مكانتها ومقامها، كما صارت اليابان امة عظيمة وهي التي كانت بعثاتها تدرس بأوربا في الوقت الذى كانت توجد هناك بعثات المغرب، ولكن اليابان كان بعيدا عن اوربا فلم تعمل هذه لعرقلته ما عملت في المغرب الجار القريب لاوربا، ولنرجع الى صلب الموضوع لنرى ماذا فعل اولوا الامر لتجديد المغرب في هذا الطور ؟

١ – تنظيم الحكومة المغربية

ان اول ما يلاحظ في هذا الطور : ان المغرب اصبح ذا حكومة منظمة تشتمل على عدة وزارات بعد ما كانت – الى عهد قريب – لا تتوفر الا على وزير واحد يكون بمثابة معين للملك في اشغاله، والوزارات التي صارت تتألف منها حكومة المغرب الجديد هي :

1 – الصدارة، وفي ضمنها أيضا وزارة الداخلية.

2 – وزارة الخارجية.

3 – وزارة الحرب، ويطلق على صاحبها «العلاف الكبير» وهو الرئيس الاعلى للجيش .

4 – وزارة الشكايات : «العدلية».

5 – وزارة المالية : «أمين الامناء».

وكان الذى أحدث وزارتي الحرب والعدلية هو السلطان محمد الرابع، ثم أحدث السلطان الحسن وزارتي الخارجية والمالية، اما الصدارة فهي الوحيدة التي كانت موجودة من قبل .

وفي العهد الحسني صار تنظيم مصلحة الكتاب كما يلي :

فقد كانت هذه المصلحة مقسمة الى عدة دواوين للكتاب في كل واحد منها رئيس له عدة كتبة نحو الستة دواوين، منها ما كتابه يبلغون الستين، ومنها ما كتابه يبلغون العشرين ففوق، ومنها ما دون ذلك، والجميع فى شغل شاغل مما يصدر لهم عن السلطان المولى الحسن (1).

---

1) البستان الجامع لكل نوع حسن، وفن مستحسن، فى عد بعض مئاثر السلطان مولاى الحسن» تاليف محمد بن ابرهيم السباعى المراكشى نسخة المكتبة الوطنية بالرباط رقم 1346 D

إصلاحات في الخارجية المغربية

والذي يستحق الدراسة كثيرا في موضوع الحكومة المغربية هو «الخارجية»، فلذلك سنتناولها هذه العجالة في شيء من التبسط :

لقد ادخلت إصلاحات جوهرية على الخارجية المغربية، فقد احدثت لها وزارة على حدة كان صاحبها مكلفا بالنظر في أمور المحميين، والوساطة بين السلطان وبين سفراء الدول، وعقد الشروط والمعاهدات بينه وبينهم، وكتابة الرسائل اليهم، واصدار الاوامر للعمال فيما يتعلق بايالاتهم من دعاوى أهل الحماية، ومباشرة أمر كل وافد اجنبي للمغرب، وكان الذي يتولاها في العهد الحسني : هو محمد المفضل غريط اول وزير للخارجية المغربية (1)

وسوى وزارة الخارجية احدث بطنجة ـ مقر نواب الدول ـ : منصب النائب السلطاني الذي كان مكلفا بمفاوضة هؤلاء النواب ـ في عين المكان ـ في القضايا التي بينهم وبين المغرب، وقد تعاقب على هذا المنصب السادات : محمد الخطيب التطواني، محمد بركاش الرباطي (2) محمد الطريس التطواني.

وفي هذا الطور صار للمغرب قنصلية بمصر القاهرة ـ وسنتحدث عنها بعد ـ كما كان له قنصلية اخرى بجبل طارق، على ان هذه الاخيرة كان يقوم بها الحاج سعيد جسوس منذ عام 1260 (3) ثم صار يقوم بها عام 1316 : عبد السلام بوزيان (4) .

والى جانب هذه الاصلاحات الشكلية ادخلت على سياسة المغرب الخارجية اصلاحات جوهرية كانت تهدف الى الدفاع «باللسان والقلم»، وسلوك سياسة التوازن لتحقيق اهداف الخارجية المغربية .

وكانت سياسة التوازن تدور على استغلال التنافس الدولي حول المغرب ومماطلة نواب اوربا في مطالبهم، وكان بطل هذه السياسة هو السلطان المولى الحسن الذي كان يسميها : «عدم تفضيل اجنبي على آخر في المغرب».

---

1) الاتحاف ج 2 ص 514

2) المصدر ج 3 ص 570. وقبل محمد الخطيب كان يتولى اشغال النائب السلطاني : السيد بوسلهام بن علي أزطو العرائشي، ولكن بالتبع لوظيفته التي هي باشوية مدينة طنجة، وكان تكليفه بهذه الاشغال اواسط أيام السلطان عبد الرحمن عام 1258 = 1842.

3) الاتحاف ج 5 ص 59 مع «مجموعة لظهائر العلوية»، ص 18 .

4) الرحلة الطنجاوية، الممزوجة «بالمناسك المالكية»، تاليف الحسن ابن محمد الغسال الطنجي «نسخة خاصة».

سلك المغرب هذه السياسة ـ مؤقتا ـ الى أن تتقوى الدولة المغربية وتنهض من كبوتها .

اما أهداف سياسة المغرب الخارجية في هذا الطور فكانت هي التالية :

1 ـ المحافظة على حدود المغرب التاريخية.

2 ـ مقاومة التدخل الاجنبي.

3) تطوير علاقات المغرب مع بعض الدول.

١ ـ الحدود المغربية

أما الحدود المغربية التاريخية فقد استطاع اولوا الامر في هذا الطور ان يحافظوا عليها في سائر جهاتها.

ونذكر اولا اقليم شنجيط الذي بقي حتى هذا العهد نافذا فيه حكم ملوك المغرب الى نهر السنيغال، ومن شواهد ذلك الرسالة التالية الصادرة عن السلطان المولى الحسن :

«نأمر من يقف عليه من عمالنا الى نهر السنغال يستوصى «كذا» خيرا بماسكيه الطالب عبد الله بن العبدى الحرطانى واخوته ويوقرهم ويحترمهم ويكف اليد العادية عنهم ويأخذ بايديهم فيما يعرض لهم في امور تجارتهم رعيا لانحياشهم للدين والصلاح وسلوك سبل النجاح، والله ولي التوفيق، والهادى الى سواء الطريق، والسلام، صدر به امرنا المعتز بالله في الثانى من شعبان المبارك عام ثلاثة وثلاثمائة والف» (1) .

* * *

ومما ينبغي ان يذكر بعد شنجيط بيعة تيندوف الاقليم المغربي الكبير لملك المغرب فان العلامة الجليل الشيخ محمد المختار بن الاعمش الجكني الذى كان يقيم بتيندوف : بعث الى السلطان محمد بن عبد الرحمن برسالة يبايع فيها عن نفسه وقبيلته وجاء فيها بخصوص هذا الصدد :

«وقد بايعناك على السمع والطاعة، ولزوم السنة والجماعة، والتمسك بالدعوة ببقائها الى قيام الساعة، فى الرضى والسخط، والمكره والمنشط ، والعسر واليسر، والقل والكثر، والشدة والرخاء، والسراء والضراء، وعلى ما بويع عليه رسول الله صلى الله عليه وءاله وسلم وخلفاؤه الراشدون...

---

1) «صحراء المغرب» السنة الاولى عدد 4

وما ثبطنا عن القدوم اليكم الا خوف نقض العهد من قتلة الشرفاء كما خبره لديكم، والا المرض والكبر الملازمان للشخص والغير، وهات يدك يقبلها قرطاسي نائبا عني وعن جميع ناسي» (1)

وبعد شنجيط وتيندوف يأتي اقليم «توات» الذى استنفد اولوا الامر في هذه الحقبة طاقتهم في الاحتفاظ به ولا سيما السلطان المولى الحسن الذى اتصل به بتافيلالت وفد من «توات» عام 1311 ﻫ(2). وهذا مسعى واحد من مساعي هذا الملك الديبلوماسية للاحتفاظ باقليم «توات» وهو الذى نجده في الرسالة التالية وملحقها :

«خادمنا الارضى الحاج محمد الطريس، وفقك الله. وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فتصلك مبيضة تامرك ان تكتب بها لكل واحد من نواب الاجناس الاربعة : الالمان، والنجليز، والاسبنيول، والطليان، وما يجيبونك به وجهه عزما، ثم من اقتضى الحال مشافهته قبل الكتابة له فشافهه، والكتابة لابد منها لكل من المذكورين ليحصل الجواب الذى هو المقصود، واذا وصلك هذا الكتاب بطيه المبيضة المشار لها : فأجب بالوصول عزما، والاجوبة وجهها بعد ذلك والسلام، في 23 محرم عام 1309».

وهذا نص المبيضة :

«وبعد فان جنس الفرنسيس ادعى ان الصقع التواتي من حيزه ومن عديد رعيته، مع أن ذلك لم يدعه من قبل، ولا طمحت نفسه اليه، ولا كان لهم في حساب، حتى حدث ذلك الآن لما املوه ولم يعتبروا ما هو مقرر من الدلائل والحجج على كون ذلك الصقع من عمالة رعية سيدنا نصره الله في القديم والحادث منها، وهو اقوى دليل، واعدل شاهد على منع دعواه والحجة قائمة عليه به : ان كارطة «الخريطة» العمران المجعولة بموافقة سائر الاجناس عام 1884 عجمية مذكور فيها ان بلاد توات من حساب رعية سيدنا ايده الله تحت برعية تونس، وهذه الكارطة كما في علمكم سلمها الاجناس كلهم واعطوا خطوط ايديهم على صحتها وتسليمها ومنع كل من يريد نقضها ولا شك ان تحت يد دولتكم نظيرا من هذه الكارطة «الخريطة»، ومنها أن أهل هذا الصقع ما برحوا يخطبون باسم مولانا نصره الله في الجمع ويدعون لجنابه العالي بالله على منابرهم الى الآن، ومنها ان العمال من «جوارهم» «كذا» وهم الذين يتولون

---

1) هذه الرسالة يوجد اصلها بمكتبة كاتب السطور.

2) الاتحاف (2) 271.

عليهم ويدفعون زكواتهم واعشارهم لبيت مال رعية سيدنا نصره الله، وفي كل سنة كان الامناء يتوجهون لحيازتهـا ومكاتبهم تتوارد على الحضرة الشريفـة ولم تنقطع وفودهم عنها، وكانوا فى طاعة سادتنـا الملـوك اسلاف سيدنا ايده الله، ومكاتبهم ووفودهم لم تنقطع عنهم مدة حيازتهم كذلك، ولا زالت موجودة قائمة العين عندهم.

وقد امرني مولانا نصره الله بالكتابة لك ولغيرك من نواب الدول المحبة بالتعريف بذلك لتتأملوا فيه ويظهر لكم عـدم الحـق للمدعـي فيما يدعيـه وتجيبوا بما ينقطع به طموحه لما يؤمله، فانكم ــ مع هذا البيان ــ بالضرورة لا تخفى عليكم وجوه مدافعته وقطع نظره عن مراده والسلام» (1)

هذا مثال واحد من عديد الامثلة للدفاع عن صقع توات الذى ابتدأ احتلاله من طرف فرنسا آخر هذا الطور ثم وقع احتلاله نهائيا اول الطور الثالث الذى سنتحدث فيه عن هذه الكارثة.

* * *

وبعد توات تاتي «حدود المغرب الشرقية» فقد كانت المحافظة عليها في نطاق معاهدة طنجة 1260 = 1844 من اهم ما تعتني به الدبلوماسيـة المغربيـة حينئـذ.

ومن مظاهر ذلك الاعتناء انه فى عام 1301 هـ ارسل السلطان المولى الحسن بعثة خاصة تحت رئاسة أخيه الامير عرفة بن السلطان محمد الرابع لتراقب حدود المغرب الشرقية حتى يتبين كيف يسير الفرنسيون فى تطبيق معاهدة طنجة الآنفة الذكر، وسارت البعثة حتى وقفت على الحدود المذكـورة وادت مهمتها على احسن حال.

وقد دون اعمالها احد اعضاء البعثة «علي السوسي» في رحلة سماهـا : «منتهى النقول، ومشتهى العقول» رتبها على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمتين، ذكر فى اولها انه الفها لما ذهب للصحراء لقضايا ثلاثة : (1) النظر فى الشقاق الواقع بين قبائل بنى يزناسن (٢) الوقوف على الحدود الواقعة هنـاك بيـن المغرب وفـرنسا. (٣) الوقـوف على الحـدود بين المغـرب وفرنسا فى ارض

1) هذه الوثيقة تـوجد ضمن اوراق النائـب السلطانى بطنجة الحاج محمد بن العربى الطريس المحفوظة بالمكتبة العامة بتطـوان وقد اثبتها مؤرخ تطوان الاستاذ الكبير محمد داود فى «تاريخ تطوان» المخطوط ج 8 ، وثبت نصها أيضا فى «صحراء المغرب» السنة الاولى، العدد 8.

فجيج . ومن هذه الرحلة نسخة بالمكتبة الوطنية بالرباط رقم D 633 ضمن مجموع يشتمل عليها وعلى قصيدة للمؤلف نفسه فى فتح السلطان المذكور للقطر السوسى .

ومن قضايا الحدود التي اثارت اهتمام المغرب في هذه الحقبة مسألة «موسى طرفاية» للتى احدثتها شركة «نرف وست افرك» الانجليزية التى يرأسها المسمى «مكينسي» (1)

وخطورة المسالة اتت من كون هذا العمل انما وقع استنادا على اتفاق مع بعض رؤساء تلك الجهات البشير بن بيروك الودنوني وبدون سابق علم من حكومة المغرب الشرعية.

وقد قاوم المغرب هذا العمل منذ كان محاولة ومساومة : هذه فقرات من كتاب للملك محمد بن عبد الرحمن يستنكر فيه اى محاولة من هذا النوع وذلك بتاريخ 1278.

«.. ومن المعلوم ان اهل تلك البلاد من جملة رعيتنا وايالتنا، فليس لاحد منهم ان يفعل فى شبر منها ما شاء ، ولا تسلمها تلك القبائل ولو افناهم القتال عن آخرهم..» وان ذكروا لك (2) ان اهل تلك الجهة هم الطالبون لذلك والراغبون فيه، فاجبهم بأن الامر بخلاف ذلك، وبان قبائل تلك النواحى رمت ولد بيروك عن قوس واحدة، وليس معه احد فيما رام فعله والذكر لهم في ذلك ما يليق ان يذكر...»

وبعد هذا الملك ها هو ابنه المولى الحسن يعلن عن مقاومته للمشروع فى كتاب وجه به للنائب محمد بركاش بتاريخ 1297 = 1879 : «... واما الفرنصيص فبصره واعلمه بأنا لم نسكت للنجليز على مكينسى بل لا زال الكلام معهم في ذلك، وقد تكلمنا مع باشادوهم حيث كان بحضرتنا العالية بالله في شان من ذكر، والمحل الذى نزل به فادعى ان ذلك المحل خارج عن ايالتنا فلم نقبل منه ذلك، ورددناه عليه بما كنا وجهنا له نسخة منه، ومن جملته الاسترعاء على نزول المذكور هناك بغير اذننا ، وتعرفه مع قبائل ايالتنا افتياتا، وجعل الدرك عليه في كل ما ينشأ عن نزوله بناحية مراكش من الضرر والخسارات، لا فى الرعية ولا فى الديوانات، ولا فى غير ذلك، لمخالفته للشروط والقوانين ، وفي كل ما يقع له ولمن معه ، لا فى ابدانهم ، ولا فى امتعتهم، لنزولهم هناك من غير اذن، ولا درك فيه على المخزن، ولا على

1) توجد معلومات مهمة في هذا الموضوع بالاتحاف (1) 380 ــ 387.

2) المخاطب هو الامير المولى العباس

قبائل تلك الناحية، والتأكيد عليه في الكلام مع دولته في غلق ابواب المضره التي فتحها مكنيسي باتهاضه من تلك الناحية ، ونحن على نية توجيه من يتكلم مع دولتهم ...(1) »

ومع هذا كله ابى عناد الشركة الانجليزيـة الا ان تنفـذ الفكرة فبنت المرسى ولكن سلطان المغرب المولى الحسن كان لها بالمرصاد فقاومها بكـل وجه حتى انتهت المشكلة بتغلب الجانب المغربى، وتم الاتفاق على تسليم البناء المحدث بمرسى طرفاية للحكومة المغربية التي التزمت بان تـؤدى للشركـة تعويضا عن بنائها ، وكان ابرام هذا الاتفاق اول عهد السلطـان عبد العزيـز الذى صادق عليه بتاريخ 16 رمضان عام 1312 وجاء الشرط الاول منه هكذا :

«اذا اشترى المخزن زينة المحل المذكـور مـن الكبانية المذكورة لا يبقى كلام لاحد في الاراضي التي من وادى درعة الى رأس بوخـادورا المعـروف بالطرفايا المذكورة ، وكذلك فيما فوق هذا المحل من الاراضي لكون ذلك كله من حساب ارض المغرب».

ثم وقع تسليم البناء المحدث للوفد المبعوث من طرف ملك المغرب لهـذه الغاية وذلك في محرم فاتح عام 1313 = 1895 وبذلك تم انتصار المغرب نهائيا في مسالة «مرسى الطرفاية».

٢ ـ مقـاومة التدخـل الاجنبـى

كان الهدف الثاني لسياسة المغرب الخارجية : مقاومة التدخل الاجنبى اى مقاومة تدخل الدول صاحبة الامتياز بالمغرب وهـي المانيـا ، والنمسـا ، وبلجيكا ، والدانمارك ، واسبانيا ، وامريكا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وايطاليا، وهولاندا ، والبرتغال ، والسويد ، وهذه الدول هي التي شاركت في مؤتمـر مدريد الآتي .

وان اول مظهر لذلك التدخل كان هو «مشكلة الحمايات» التي يقصد منها تمييز بعض المواطنين الملحقين بالاجانب بكثير من الامتيازات التي يحرم منها بقية المواطنين .

ومنذ منتصف القرن 19 ـ حيث نشأت طائفة المحميين ـ كانت الحمايات لا تشكل خطرا كبيرا على المغرب ، وانما صارت كارثة على المغرب والمغاربة بعد حرب تطوان حيث صار بالتدريج للدول المتقدمة امتيازات تجعل لممثليهـا

---

1) يوجد النص الكامل للكتاب بالاتحاف (2) 333 ـ 335 .

فى المغرب الحق في تعيين ما يشاءون من عدد المترجمين والخدم من المغاربة او غيرهم ، ولهم ان يتخذوا نوابا عنهم في كل ثغر من ثغور هذه البلاد، ولكل واحد من هؤلاء النواب الحق فى اتخاذ ترجمان واحد وبواب واحد وخادمين ، ويعفى هؤلاء جميعا من جميع ما تفرضه الحكومة المحلية على رعاياها من تكاليف غير متفق عليها، الى آخر ما تضمنته معاهدة المغرب مع انجلترا سنة 1273 = 1856 التى كانت الحجر الاساسى للامتيازات التى نالتها الدول الاخرى

والى جانب هذا كله استغل الاجانب هذه الظروف السيئة التي احاطت بالبلاد فاغتصبوا كثيرا من الحقوق بالاكراه من غير اعتماد لا على نصوص من المعاهدات ولا على تشريع مغربى داخلى، فتفاحش بصفة خاصة توزيع الحمايات على المواطنين المغاربة على خلاف نصوص المعاهدات بشكل واسع النطاق زاد من ارتباك الحكومة المغربية .

وقد صور السلطان المولى الحسن هذه الحالة اصدق تصوير لما قال للنائب محمد بركاش : «ان ادارتنا تكاد لا تجد فى البلاد من هو باق تحت سلطانها من كثرة ما منحته الدول الاجنبية من حمايات غير مشروعة»

وقد انضاف لهذه المفسدة ان الحمايات كانت تقف حجر عثرة في سبيل ادخال الاصلاحات على المملكة المغربية.

لهذا كله اخذ السلطان المولى الحسن بمجرد ما تسلم مقاليد الحكم يفاوض الدول الاكثر مصالحا بالمغرب فى تعديل أمر الحمايات ، وهذا كان أهم أهداف سفارة الحاج محمد الزبيدى الرباطي التي بعثها هذا السلطان غب بيعته لاربع دول : فرنسا، بلجيكا، انجلترا، وايطاليا عام 1293 = 1876 (1)

ثم ما زال هذا الملك يوالى المساعى لتعديل امر الحمايات حتى توصل الى عقد «مؤتمر مدريد» الذى انعقد بعاصمة اسبانيا وحضر فيه الى جانب المغرب 12 دولة وهى صاحبة الامتيازات الآنفة الذكر وقد صادق هذا المؤتمر على وثيقة تشتمل على ثمانية عشر فصلا، حررت بمدريد في 3 يوليه عام 1880 م. الموافق 24 من رجب عام 1297 هـ. والوثيقة مذكورة بنصها فى الاتحاف ج 2 ص 421 ـ 428 وتوجد صورة فتوغرافية منها «بمجموعة الظهائر المغربية»

وان مقررات هذا المؤتمر ـ وان لم تستجب لرغبة المغرب ـ فانها افادته في حصر عدد المحميين، وتقييدهم في دائرة خاصة، كما أنها منعت التجنس

---

1) انظر كتاب «مركز الاجانب في مراكش» ص 36 ـ 37 مع الاتحاف ج 2 ص 279 ـ 280 ، 301 ، 311 ـ 312 .

بالجنسيات الاجنبية على المغاربة، واخيرا كان المؤتمر بمثابة اللبنة الاولى لتدويل «المسالة المغربية» .

وسوى مسالة الحمايات فهناك مظاهر أخرى للتدخل الاجنبي اخطرها الذى كان ياتي من الجمعيات اليهودية باوربا، ذلك انه فى عام 1278 = 1862 م. تاسس فى أوربا : «الاتحاد الاسرائيلي العام» الذى كان يهدف الى النهضة باليهود في سائر أنحاء العالم نهضة شاملة، تاسس هذا الاتحاد في فرنسا، ثم امتدت فروعه الى ممالك أوربا.

وكان في مقدمة أعماله ان صار يتدخل في شؤون اليهود الموجودين فى الممالك الاسلامية ويتبنى مطالبهم وتظلماتهم ليقدمها للمسؤولين فى هذه الممالك، وكان يلقى اعانة وتاييدا من طرف بعض الدول الكبرى باوربا .

نال المغرب نصيبه من هذا التدخل فقابل كل قضية بما تتطلب من العلاج المستمد من دستور البلاد الشرعى الاسلامي، وكان أول تدخل فى شؤون يهود المغرب هو الذى يحدثنا عنه صاحب الاستقصا (1) ويقول :

«وفي هذه السنة ـ 1280 ـ ورد يهودى من اللوندرة على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب، وذلك لانه لما كانت وقعة تطوان ودهم الناس ما دهمهم من أمر الحمايات، واكثر من تعلق بها اليهود، لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبها بيهود مصر ونحوها، فكتبوا الى يهودى من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشابيل، وكان هذا اليهودى قارون زمانه، وكانت له وجاهة كبيرة في دولة الانجليز، فكتب يهود المغرب اليه أو بعضهم يشكون اليه ما هم فيه من الذلة والصغار، ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان في الانعام عليهم بالحرية، فعين هذا اليهودى صهرا له للوفادة على السلطان رحمه الله فى هذا الغرض وفى غيره، واصحبه هدايا نفيسة ، وسال من دولة الانجليز ان يشفعوا منه عند السلطان ويكتبوا له فى قضاء غرضه، ففعلوا وقدم على السلطان بمراكش، وقدم هداياه، وسال تنفيذ مطلبه، فتجافى السلطان عن رده مخففا، واعطاه ظهيرا فتمسك به اليهود، يتضمن صريح الشرع، وما اوجب الله لهم من حفظ الذمة، وعدم الظلم والعسف، ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى. ولما مكنهم السلطان من هذا الظهير اخذوا منه نسخا وفرقوها فى جميع يهود المغرب، وظهر منهم تطاول وطيش وارادوا ان يختصوا في الاحكام فيما بينهم، لا سيما يهود المراسي، فانهم تحالفوا

---

1) ج 4 ص 227 ـ 28.

وتعاهدوا على ذلك، ثم ابطل الله كيدهم، وخيب سعيهم، على ان السلطان لما احس بطيش اليهود عقب ذلك الظهير بكتاب آخر بين فيه المراد، وان ذلك الايصاء انما هو في حق اهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم ، واما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لا يعني، فيعاملون بما يستحقونه من الادب» .

هذا ما جاء في الاستقصا باختصار، ويفيد مصدر (1) «اخر ان يهود المغرب رفضوا ذلك التدخل وارسلوا الى اخوانهم بأوربا يطلبونهم ان يدعوهم على عادتهم المالوفة، ولا يتدخلوا فيهم، وأعلنوا للحكومة والشعب بذلك.

ثم بعد هذا تكرر تدخل «الجمعيه اليهوديه الانجليزية» في شؤون يهود المغرب مرات : من ذلك ما وقع أول عهد السلطان المولى الحسن فقد تقدمت له «الجمعية اليهودية الانجليزيه» بتهنئه بالملك، واردفت ذلك بأن طلبت منه تحسين احوال الرعايا الاسرائيليين .

ولما كانت السفارة الزبيديه بلندرة عام 1293 = 1876 بعثت هذه الجعيمة للسلطان المغربي بواسطة السفير الزبدى كتابا ببعض المطالب المتعلقة بيهود المغرب، وهو محرر في 25 شهر تموز سنة 1876 = 1294 (2)

وفي عام 1297 = 1880 نجد يهوديا انجليزيا يزور مدريد اثناء انعقاد «مؤتمر الحمايات» بها ليعمل على عرقلة اعمال النائب المغربي بالمؤتمر (3)

وكما قلنا اولا فقد عالج المغرب هذا النوع من المشاكل بمهارة ودهاء مستمدين من دستور البلاد الاسلامي، وهذه رسالة كتبها وزير خارجية المغرب ليهود مراكش تقدمها كمثال لسياسة المغرب الحكيمة ازاء هذا المشكل

«من عبد الله تعالى وزير الامور البرانية بالحضرة العالية. اعز الله امرها، وابد فخرها.

الى كافة يهود ملاح مراكشة : اخص منهم حزانة جموعهم واساقفتهم وتجارهم واعيانهم .

اما بعد فقد بلغ لشريف علم حضرة سيدنا العالية بالله، اعزها الله : ان عاملكم القايد محمد ويدة السوسي لم يحسن السيرة معكم، وعاملكم معاملة غير مليحة، وشدد عليكم، فلم يلق ذلك بسيدنا نصره الله ولم يعجبه ،

---

1) «صفوة الاعتبار بمستوع الامصار والاقطار» تاليف الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي ج 1 ص 64. وفيها زيادة توضيح للموضوع.

2) ثبت نص هذه الرسالة بالاتحاف ج 2 ص 298 ـ 301

3) هذا يوخذ من رسالة في «الاتحاف» ج 3 416

لانكم أهل ذمته، ومن رعيته، فلا يحب أيده الله ان يقع لكم تضييق او ظلم من أحد او معاملة بمكروه، وانما يحب أن تكونوا في أمن وأمان من ذلك، وعلى حالة مليحة، وفي عيشة مرضية، وعز به الحال دام تأييده ونصره حيث بلغه ذلك عنكم من عند «الناس» ولم يبلغه من عندكم، اذ كان من حقكم ان تكتبوا لاعتابه الشريفة بالاعلام بذلك كما يكتب بعض تجاركم ومقدميكم لها في الامور، وقد امرني نصره الله بالكتابة لكم بان تكونوا تكتبوا لنا بما يقع لكم وذلك لنطالع به علمه الشريف، كما أمرني ايده الله باعلامكم بأنه أصدر امره الشريف للعامل المذكور بان يحسن السيرة معكم ويعاملكم بمثل ما يعامل به من الى نظره من المسلمين من الحكم عليكم في الدعاوى المخزنية بما يقتضيه الحق فيها مثل ما يحكم به على المسلمين، ويجريكم مجراهم في جميع الامور من غير فرق ويرد دعاويكم الشرعية لاساقفتكم وحزانتكم، ويمشي مع أهل الحماية منكم على مقتضى الشروط والقوانين، ومن حاد منهم عنها يطالع به شريف علم مولانا دام علاه والتمام في 7 جمادى الثانية عام 1315» (1) .

هذا ولنذكر اخيرا ان يهود المغرب ـ بالرغم عن كل شيء ـ استمروا يدفعون الجزية للحكومة المغربية حتى أوائل القرن العشرين م.

٣ ـ تطوير علاقات المغرب مع بعض الدول

ان هذا الاصلاح تناول ـ بالخصوص ـ علاقات المغرب مع مصر، والدولة العثمانية، أما مصر : فمن أول هذا الطور أخذت تدخل علاقات المغرب معها في عهد جديد ! فقد حاول الملك محمد الرابع: أن يستعين بمصر ـ الى جانب اوربا ـ فيما يعتزم ادخاله على البلاد من اصلاحات.

وهكذا جلب هذا الملك من مصر صناعا اختصاصيين للعمل في معمل السكر الضخم الذى احدثه بمراكش . كذلك وجه بعض البعثات الى مصر أيام سعيد باشا (2) واسماعيل باشا، وتوجد بعض معلومات عن هذه البعثات

1) هذه الرسالة وردت بالاتحاف ج 2 ص 265 ـ 266 .

2) انظر ص 56 من هذا البحث .

في مراسلات (1) جرت بين الملك محمد الرابع والخديوى اسماعيل باشا :

ويوخذ من مكتوب مصرى الى ملك المغرب : أن هذا الاخير كان بعث برسالة للخديوى اسماعيل بشأن بعض الطلاب الذى أرسل من المغرب ليتدرب على أشغال الطبع بمصر، ويوخذ ـ أيضا ـ من المكتوب نفسه : خبر رسالة ثانية بعثها الملك المغربي لعزيز مصر تتضمن الرغبة في تعليم ثلاثة طلاب مغاربة بعض الفنون العسكرية.

ويفيد مكتوب مصرى آخر : أن هناك رسالة ثالثة بعثها محمد الرابع لاسماعيل باشا في غرض تهنئة .

ونرى من المفيد لهذا الموضوع : ان نقتبس من المكتوب المصرى الاول موضع الشاهد منه ونثبته فيما يلي :

«... هذا وقد سررت بورود مشرفكم الكريم، المتضمن لزوم المطبعة لذلك الجناب الفخيم، وما يحتاجه المخصوص الوارد بشأنها من مزيد التمرين والتفهيم، وذلك لما فيها من الاعانة على طلب العلم الشريف وتعليمه، وتسهيل السبيل فى نشره بين البرايا وتعميمه، وصيانة كتبه الشريفة من تحريف الكاتبين ، وتقريب تناولها الى ايدى الطالبين والراغبين ، وهذا دليل ظاهر، وبرهان باهر، على مزيد عنايتكم فيما فيه المصلحة العامة، ورعايتكم لما يعود على الناس بالفائدة التامة، واهتمامكم بامر العلم الكريم واهله، وقيامكم بما يجب من حق فضله، فمتع الله ببقائكم الملك والعليا، ونفع بوجودكم وسعودكم الدين والدنيا، وقد ارسلنا الموما اليه الى دار الطباعة، وأكدنا على مأمورها بارائته كل ما يلزم لهذه الصناعة، والاعتناء بتمرينه على استعمال ادواتها، وتوقيفه على كيفية ادارة «الاتها، وسائر كيفياتها .

ثم ورد مشرفكم على يد الثلاثة المعلمين فى صناعة البارود، المراد تعليمهم صناعة التبرديج ورعايتهم حتى يتحصلوا على هذا الغرض المقصود ، فارسلناهم الى الباشا وكيل ديوان الجهادية المصرية في الحال، وأوصيناه برعايتهم والاعتناء بتعليمهم كل ما يلزم لتلك الصناعة من الاعمال والاشغال ، وأخذها عن اهلها المتقنين، واربابها الماهرين المتفننين، حتى يتحصلوا على البراعة، في أشغال تلك الصناعة .

1) هذه المراسلات لم أقف منها الا على النص المصرى، وهما رسالتان صادرتان عن الخديوى اسماعيل باشا الى جلالة الملك محمد الرابع وقد وردتا فى «الآثار الفكرية»، ص 54 ـ 56. وهما من انشاء الكاتب المصرى الشهير عبد الله فكرى باشا ناظر المعارف المصرية إذ ذاك.

هذا والمرجو مواصلة المراسلة على الدوام، وكل ما لزم من هذا الجانب فهو رهين الاعلام، والمسؤول لنا ولكم من الله الكريم المتعال : دوام حسن الحال وحسن المئال، بجاه رسول الرحمة ونبي الكمال، حرر في شوال سنة 1283» .

هكذا كانت علاقات المغرب بمصر ايام جلالة محمد الرابع، ثم في بقية هذا الطور : بلغ تمتين العلاقات بين القطرين الى درجة التمثيل السياسي، فصار يوجد في مصر القاهرة قنصلية مغربية تعاقب عليها عدة مغاربة :

١ – الحاج عبد الواحد التازى الفاسي ابن الحاج عبد الغنى «المزعلك»، هكذا ورد اسمه في بعض الرحلات(1) كوكيل للمغرب بمصر عام 1295 ﻫ، ثم ورد ذكره في مصدر (2) آخر كوكيل للغرب بمصر عام 1306 ﻫ.

٢ – الحاج محمد لحلو الفاسي : اجرى ذكره كنائب للمغرب بمصر: رحالة (3) مغربي زار مصر القاهرة آخر عام 1315 ﻫ.

٣ – الحاج محمد بن العباس ابن شقرون : تحلية المطبوعات الحفيظية بمصر : بوكيل دولة المغرب الاقصى سابقا .

* * *

وبعد مصر نحاول ان نعرف التجديد الذى دخل على علاقات المغرب بالدولة العثمانية في هذا الطور :

ان هذا التجديد – فى اطار اتحاد اسلامى – هو الذى كانت الدولتان فى العهد الحسني تعملان لتحقيقه، وقد تبادلا فى هذ الصدد مراسلات (4) واتصالات، وان هـذا كان أحد أهداف سفارة السيد الحاج العربي بريشة التطوانى للاستانة حيث اقتبل بها بغاية الحفاوة من السلطان العثماني : عبد الحميد، وهذا ايضا كان موضوع زيارة السيد ابراهيم السنوسي – «اتي الذكر – للمغرب، وفي النهاية تم الاتفاق على تبادل التمثيل

---

1) نقل ذلك في «الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» ج 3 ص 381.

2) كلمة التصحيح الختامية لطبعة شرح القسطلانى على البخارى الواقعة بالمطبعة الاميرية بمصر عام 1306 ﻫ.

3) هو الحسن الغسال فى رحلته المارة الذكر (4) يوجد بعضها بالاتحاف ج 1 ص 359 – 363.

الديبلوماسي بين الدولتين، ورشح لتمثيل المغرب الشيخ ابراهيم السنوسي الفاسي العلامة الشهير، كما رشح لتمثيل الدولة العثمانية الامير محيي الدين نجل الامير عبد القادر الجزائرى، ثم حال دون تحقيق هذه الغاية معارضتها من طرف اكثر قناصل الدول الموجودين بطنجة ووقوفهم ضدها الامر الذى اضطر السلطان المولى الحسن الى تأجيل هذه القضية حتى تسنح الفرصة، ولكنه مات ــ رحمه الله ــ وما سنحت الفرصة (1)

٢ ــ تجديد الجيش المغربي

يمكن القول بأن اصلاح الجيش المغربي كان أول اصلاح تناول جهاز الدولة المغربية، فبعد «موقعة إيسلي» : بدأت المحاولات الاولى لتجديد الجيش المغربي ايام السلطان عبد الرحمن، الذى نظمت في عهده بعض فرق من الجيش على نسق نظام الجيش التركي الحديث، وقد اسندت قيادة هذه الفرق لضابط مسلم يسمى عليا التونسي (2) .

وعلى ما يقول البعض (3) فقد كان عدد هذا الجيش النظامي يبلغ ستة عشر الفا، وكثيرا ما كان يطلق عليه اسم «العسكر» او «النظام» (4)

والذى كان يرعى هذا الجيش ويتبناه هو الخليفة اذ ذاك سيدى محمد ابن عبد الرحمن الذى جاء في ترجمته (5): «أنه ابتدأ تنظيم هذا الجيش الحديث أيام خلافته عن والده بعد موقعة ايسلي» .

---

1) «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» ص 87 ــ 88 مع بعض المحادثات الموثوق بها.

2) هكذا في الاتحاف ج 5 ص 238 ــ 239: استنادا على ان مؤلفه وجد في قائمة الخارج لعام 1265 : «مرتب العسكر» وفي صحيفة 77 منه : ان احداث هذا الجيش كان عام 1261 حيث كلف السلطان المذكور عامليه : اشعاش وأزطوط بتنظيمه، وعلى هذا يكون ابتداء تنظيم الجيش من هذا التاريخ .

3) هو الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه : «صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار» ج 1 ص 65 .

4) تقدم ص 15 نقلا عن كتاب «كشف الغمة» : «وترتيب الجيش على هذه الصفة هو المسمى بالنظام» .

5) الاستقصا ج 4 ص 222 الاتحاف ج 3 ص 567.

واشتهر هذا الجيش النظامي حتى بلغ مسامع والـي مصر محمد علي باشا الذي أهدى اليه 35 كتابا فنيا (1)، وعن هذا الجيش يقول في «فواصل الجمـان (2)» :

«ولم تكن وزارة الحرب عند ملوك المغرب بولايـة معروفـة، ولا الى شخص معين بمصروفه، وكان الجيش كله على النهج القديم، ليس له علـى الطريق الحديث ترتيب ولا تنظيم، الى ان وقع للسلطان سيدى محمـد بن مولانا عبد الرحمن زمن خلافته عن أبيه ما وقع من الكسرة القوية، بحـادثة ابي سراوة مع العساكر الفرنسوية، فعلم أن ما أصاب جيشه العديد، هـو من عدم تنظيمه على الطراز الجديد، ولما رجع الى منصة خلافته... نظم مـن أبناء القبائل ثلة، وجعل لها وزارة مستقلة (3) ورتب لها ضباطا، وابدى بهـا سرورا واغتباطا، فصارت يد قوتها بنحور العصاة دافعة، وبنواصـي اهـل الزيغ سافعة، وأصبحت دائرة نفوذها واسعة، ممتدة الى الانحاء الشاسعة».

وتفيد الفقرات الاخيرة من «الفواصـل» : أن هذا الجيش الحديث أتى اكله، وصار يباشر مهمته الى جانب الجيش المغربي القديم، وهذا ما تنطق به الاشعار الآتية قريبـا، وايضا تفيد ذلـك الفقـرات التالية الواردة أثناء ظهير (4) للسلطان المولى عبد الرحمن يخاطب فيه ولده سيدى محمد: «وهذا العسكر النظامي حيث ظهر ثباته واقدامه ونكايته في العدو، استكثر منه على قانونه واعداد عدته».

ونستطيع أن نجد بعض وصف هذا الجيش النظامى فـى القصيدة (5) الآتية، التى أنشاها الشيخ الكبير يوسف بن بدر الدين المدنى فـى احدى قدماته (6) على المغرب، يصف الجيـش المغربـي الجـديد، ويمدح منشئـه السلطان المولى عبد الرحمن :

---

1) الاتحاف ج 5 ص 155 .

2) ص 88 .

3) هذه الوزارة انما احدثها بعد مبايعته.

4) الظهيـر مؤرخ فى 6 رمضـان عـام 1263 وهـو وارد بتمامـه في الاتحاف (5) 81 ـ 83 .

5) وردت هذه القصيدة بتمامها في «الحلل البهية في تاريخ الدولة العلويـــة» .

6) **انظر** عن قدماته للمغرب : الاتحاف(5) 156.

امير المومنين له مزايا ... يضيق النثر عنها والنظام
واعظمها اذا ذكرت وعدت ... ـ وان كانت باجمها عظام ـ
«نظام» عقده للدين عقد ... نفيس زان جوهره نظام
وان ذكرته جيوش النصر طرا ... فهو لها المقدم والامام
يريك اذا نظرت له صفوفا ... لها بالنصر جد واهتمام
تطير لها قلوب الاسد خوفا ... ويفزع عند رؤيتها الحمام
فعند الرمي تصلى الجو نارا ... وعند الضرب يندق الحسام
وان صفت فتحسبها بناء ... شديد الرص رصصه انتظام
وان نطقت فبرق او رعود ... كساها من ملابسه الظلام
وان سارت لحرب فالمنايا ... تسير وطبعها جشت وهام
فقل للدين جاء النصر فاهنأ ... ولا تجزع ، فقد نظم «النظام»
وقل لابن الرسول ومن اليه : ... ملوك الارض تفزع اذ تضام
ليهنك اذ شددت بنظم جند ... عرى مجد فليس له أى انفصام
وفاق نظام جندك كل نظم ... وهل تحكي اسودكم الرئام
فكم جند تقدمه بجبن ... وطال بارضه منه المقام
وسدت دونهم ابواب نصر ... ولم يكمل لهم بهم مرام
فلما ان مننت بنظم جند ... تولى الكفر وانقطع الملام
وتم لكم بهذا الدين نصر ... ومدتكم ملائكة كرام
فعن قرب يكسر جيش كسرى ... وترشق في قياصره السهام
فطب نفسا بجندك فهو جند ... به الكفار طار لهم منام
فان يكن غيركم بالبدء يسمو ... سمو البدر زايله الغمام
فان بداية الاشياء سهل ... ولاكن الكمال هو الختام
وهل فضل الهلال اذا تبدى ... كفضله اذ يتم له التمام
فدم في الملك بدرا لست تخشى ... مدا التأبيد نقصا والسلام

وسوى هذه القصيدة الشرفية، فهناك نتف ضمن قصائد مغربية تتحدث عن جيش المغرب النظامي في هذه المرحلة الاولى ، ومن ذلك قول بعض الشعراء (1) :

---

1) هذه القصيدة نسبت للوزير محمد بن ادريس كما بالاتحاف (5) 249، ويبعد هذه النسبة : ان القصيدة تتناول حركة السلطان عبد الرحمان لزمور الواقعة عام 1269 هـ، في حين ان ابن ادريس توفى عام 1264، وعلى هذا تكون القصيدة لشاعر آخر غير ابن ادريس.

4 ـ «تطوان»

ولله في هـذا الوجـود خلاصـة عداهم ، لهم في كل صالحة ذكر
«عساكـر» فتح عـود الله رفعهـا اذا قوبلت،يسرى لنا صبها الكسر

ومن قصيدة (1) للشاعر الطيب بن عبد السلام التستري المكناسي :

جمعـت هـذا الجيش تبغـي بـه اشادة الديـن وقطـع الخنـا
فجـاء وفـق نـيـة والفـتـى ثمـار مـا يغرسـه قـد جنى

ومن قصيدة (2) لمحمد اكنسوس الشهير فى تهنئة السلطان محمد بن عبد الرحمن بالملك :

له العسكر الجرار تبرق فى الوغا صوارم منه والمدافـع ترعـد
يعد الـى الاعـداء كـل كتيبـة من الرعد يحدوها الوشيج المسدد
وكـل كمـى كالغضنفـر مغضبـا وكل صقيل وهو ماض مجـرد
يبد العد قبـل اللقـاء مهابـة فصارمه يفرى الطلى وهو مغمد

ومع الاستبشار ، البادى من هذه الاشعار يظهر ان تنظيم الجيش كان يلاقى معارضة من بعـض الجهـات (3)، وذلـك من أسباب انخرامه فى هذه المرحلة الاولى .

فلذلك لما وقعت حرب تطـوان اعاد الملك محمد بن عبد الرحمن إثرها النظر في أمـر الجيش النظـامي، وكان أول ما بدأ به في هذا الصدد : ان استشار عشرة من أئمة علماء المغرب في الحكـم الشرعي فـى هذا التنظيم، فعل ذلك ـ فيما يظهر ـ ليقطع بفتاويهم ـ التى كانت بالموافقة ـ كل جدال في المسألة، وكان العلماء الذين استفتوا : هم (١) قاضى فاس محمد بن عبد الرحمن العلوى المدغرى، (٢) ابو العباس احمد المرنيسى، (٣) أبو عبـد الله محمد الصادق بن محمد الهاشمي العلوى المدغرى قاضي سجلماسة ونواحيها. (٤) ابو محمد عبـد السلام بوغالب (٥) ابو عيسى المهدى بن سودة (٦) اخوه

---

1) توجد هذه القصيدة ضمن «مجموعة امداح في السلطـان عـبـد الرحمن بن هشام» اصل المجموعة فى المكتبة الاحمدية بفاس، ونسخـة منهـا بمكتبة كاتب السطور.

2) وردت في «الجيش» ج 2 ص 66 وفي الاستقصا ج 4 ص 211 ـ 213

3) بعد ما كتبت هـذا رأيت فـي «الجيش» الاشـارة لهذه المعارضة ج 2 ص 80.

ابو حفص عمر ابن سودة (٧) ابو عبد الله محمد بن محمد بن حمادى الحمادى المكناسى. (٨) ابو عبد الله محمد مسواك بن محمد التازى (9) الحاج محمد ابن المدنى گنون (١٠) أبو العباس احمد بن احمد بنانى المدعو كلا (1) .

وبعد هذا الاستفتاء شرع الملك المذكور فى تجديد الجيش المغربي، والمعلومات التي توصلت اليها عن هذا التجديد هي التالية :

احدث هذا الملك للجيش وزارة على حدة. يدعى صاحبها العلاف الكبير ، وهو أيضا الرئيس الاعلى للجيوش المغربية، وقد أسند هذه الوزارة للسيد عبد الله ابن احماد أخ السيد موسى بن احماد الحاجب الشهير .

كما أسند تدريب هذا الجيش الى السيد محمد خوجه التونسي الذى كانت رغبته قوية فى السير بالجيش المغربى فى طريق التقدم 2) .

وكان هذا الجيش النظامى يشتمل على الخيالة وبعض الرجالة الذين تأسسوا لاول مرة، وكان ينقسم الى عدة فرق، كل فرقة تسمى «الطابور» الذى يشتمل على 900 جندى فيه عدد من حملة الشواقير (3) .

ومن الفرق التى كان يتالف منها هذا الجيش : «فرقة الوصفان» رئيسهم الوصيف ابن المزوار ، «فرقة» اهل سوس» رئيسهم الحاج منو الشهير ، «فرقة الحاج عزوز بن الفتوح» ، «فرقة الحاج محمد الزروالى» وغيرهم (4) ولباس هذا الجيش كان من الملف الرفيع ، وكسوة رؤسائه مزركشة ومرصعة بخيوط الذهب ، ونعالهم من جلد احمر ، اما سلاح الجيش فكان من اعلى طراز (5) .

ومن الوثائق المتعلقة بهذا الجيش : الرسالة (6) الملكية التالية الموجهة لامناء مرسى الدار البيضاء ونصها بعد الافتتاح :

«... وبعد فانا لما اخذنا فى جمع «النظام» للمصلحة المتعينة، الواضحة البينة، المقرر امرها لدى الخاص والعام، واجتمع منه عدد يسير، واختبرنا ما صير عليه فى شهر واحد، فاجتمع فيه عدد كثير، فكيف إن جمعنا

---

1) على هذ الترتيب رأيت الاشارة فقط لاسماء هؤلاء الاعلام بخط القاضي المهدى بن سودة على هامش أول جوابه في المسالة .

2) انظر «الاتحاف» ج 3 ص 569 مع مجلة «المصباح» العدد الاول .

3) «الاتحاف» ج 3 ص 568 .

4) «الاتحاف» ج 2 ص 500 .

5) المصدر ج 3 ص 568 .

6) هذه الرسالة وردت فى «الاستقصا» ج 4 ص 222 .

منه عددا معتبرا يحصل به المراد، ويكون قذى في أعين أهل العناد، اقتضى الحال ذكر ذلك لكبراء التجار، لينظرو فيما يستعان به على أمرهم، اذ لابد من كفايتهم، والا انحل نظام جمعهم، وفي ذلك ما لا يجهلـه من له أدنـى عقل ومحبة في الدين، فاشاروا بفرض اعانة لا ضرر فيها على الرعية، وسطروها في ورقة. وهي كلا شيء بالنسبة لما ارتكبه الملوك في مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية، وللضرورة احكام تخصها، كما هو معلوم مقرر، ومسطر في غير ما ديوان محرر، ثم اقتضى نظرنا ان تسند الامـر في ذلك لاهل العلم ليقرروا للناس حكمه تقريرا تنشـرح لـه الصـدور، ويعمل بمقتضاه في الورود والصدور، وان كان جلهـم يعلم هذا، اذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها الا بجند قوى بالله، ولا جند الا بمال، وهو لا يكون الا من الرعية على وجه لا ضرر فيه، وقد أخذ الناس هذه مدة بحضرتنا العالية بالله، ومكناسة، وتازا، والعدوتين، ومـراكش في ذلك، وسلكـوا في ترتيبه احسن المسالك، ولا شك أن ببركة ذلك تعود عليهم في اموالهم واولادهم وانفسهم، فبوصـول هذا اليكم قوموا على ساق الجد في القبض من الناس بالباب على نحو ما في الورقة المشار اليهـا، ولا دخل للنصـارى في ذلـك، والله أسـال ان يبـارك للمسلمين في مالهم، ويوضعهم خلفا «امين والسلام، في الثاني والعشريـن من رجب عام سبعة وسبعين ومائتين والف» .

ومن الاشعار التي قيلت في جيش النظام في هـذه الحقبـة : الابيـات الآتية الوردة ضمن قصيدة للشاعر الكاتب محمد بن محمد غريط، في تهنئة الملك محمد بن عبد الرحمن بانتصار احرز عليه :

«... ورجـال العسكـر الساطي لهم ... اعيـن عـن أمـره مـا أن تـنـام
كلـفـوا بالضـرب والـطـعـن اذا ... صـار ليـل النقع كالجـون الركام
كيـف ينجـو في الصياصـي منهم ... كـل جبـار وزار بـالـذمـام
كانصبـاب السيـل ان شنـوا على ... زمـر الاعـداء غـارات الـحمـام
وهـم الانـصـار للـديـن فـمـا ... اعظم الفخر بفرسان «النظام» (1)

وقال المؤرخ أكنسوس المتقدم من قصيدة :

وعـدد امثـال لاسـود عسـاكـرا ... تخـر لهـا الاسد الضراغم سجدا
وتهتـز منهـا الارض عند ركوبهـا ... وتـرجـف اطـود الجـبـال تميدا

---

1) «فواصل الجمان» ص 164.

وتحسب أن الجو نار تأججت — يضج لها باغي الفساد مشردا
وتخفق ريح النصر بين بنودها — على غرة المنصور أكرم من غدا (1)

وقال الشاعر نفسه أيضا من قصيدة :

اعد عداد للعدا بعساكر — مسومة ركبان خيل ورجلان
ليوث افتراس كلما زارت على — ديار اناس زارها كل أحزان
فوارس تغتال النفوس كأنها — اذا صبحت ارضا عصائب عقبان
تراها كمثل السيل يخسف تحتها — ثراها وترمى كالاثير بشهبان
تصول باسياف تحيض ذكورها — وتسطو بأرماح كأنياب ثعبان
وتنشر رايات تنوش ذيولها — رياح سعود من رخاء سليمان
اذا اضطربت في الجو قال هبوبها — الا ان نصر الله والفتح وافان (2)

ثم خطى الجيش النظامي بعض الخطوات ايام السلطان الحسن، فانه لما وجد القوة العسكرية المحمدية غير كافية، ابتدأ أولا بفرض الجيش على بعض المدن فالزم أهل فاس بخمسمائة، والزم اهل العدوتين بستمائة، وألزم غيرهما من الثغور بمائتين مائتين (3) .

ثم بعد هذا اصدر امره لعمال الحوز والغرب بفرض العسكر عليهم وعين وزير العسكر محمد الصغير الجامعي للتوجه لدكالة للاتيان بما فرض عليهم وهو ألفان، ومن الشاوية كذلك، ومثلها لكل من الرحامنة، وحاحا، ومن قبائل أخرى ما عين لكل قبيلة منها، هذا زيادة على عدد الطبجية (4) الذين كانوا يفرضون على كل قبيلة (5) وبسبب هذا ارتفع عدد الجيش النظامي في هذا العهد. وصار مركبا من 25 الف جندى تقريبا، فيه الضباط المغاربة المدربون (6) .

واعتنى السلطان الحسن بهذا الجيش : فكان يباشر عرضه وترتيبه بنفسه، واستجلب له المدربين من انجلترا، وفرنسا، واسبانيا، وقد

1) الجيش ج 2 ص 79.
2) المصدر ج 2 ص 90.
3) الاستقصا ج 4 ص 243 .
4) هم رماة المدافع.
5) الاتحاف ج 2 ص 500.
6) البيان المطرب ص 40 .

اشتهر من هؤلاء المدربين : ماك لين الانجليزى قائد الجيش النظامي، وايركمان الفرنسى قائد جيش المدفعية (1).

وفي آخر حياة السلطان الحسن كان هؤلاء المدربون قد أدوا مهمتهم في تدريب الجيش المغربي، فصار هذا الملك يطلب سحبهم من حكوماتهم ، وكان جواب احداها وهي اسبانيا : أنها تساعد على هذا السحب بمجرد سفر مدربى الدول الاخرى (2).

ومن تتمة حديث هذا الجيش ايام السلطان الحسن : ان هذا الاخير لما أراد أن يجدد تنظيمه سال أهل العلم عن الحكم في توظيف المعونة لتنظيم الجيش المغربي، فتصدى للجواب ـ باشارة الباشا عبد الله بن أحماد ـ الفقيه السيد علي بن محمد السوسي من تلاميذ ابي الحسن التسولي، وكتب جوابا مطولا رتبه على مقدمة، وثلاثة ابواب، وخاتمة، وسماه بثلاثة اسماء ، اولها : «عناية الاستعانة، فى حكم التوظيف والمعونة»، يقع فى ورقات 82 مسطرة 23 ويحمل رقم 480 D من المكتبة الوطنية بالرباط، راجع ترجمة المؤلف فى السلوة (3) .

٣ ـ إحياء الاسطول المغربي

الى جانب الجيش البرى انشىء فى هذا الطور نواة قوة بحرية منظمة تنظيما حديثا، لتسد الفراغ الذى تركه ضياع الاسطول المغربى أيام السلطان عبد الرحمن بن هشام .

وكان إبتداء تأسيس هذه القوة البحرية الاولية فى أيام السلطان الحسن الذى اشترى من أوربا عدة بواخر وزعها على مراسي المغرب، بعضها كبير، وبعضها صغير لنقل السلع، كما أوصى على صنع بعض البواخر الاخرى، وفي أول عهد الدولة العزيزية اضيف لهذا الاسطول باخرة أخرى جديدة .

والمعروف لحد الآن من هذا الاسطول هي القطع التالية :

1 ـ الباخرة العظمى التي تحمل اسم «الحسني» اشتراها السلطان المولى الحسن، واستخدم بها ـ بمرسى طنجة ـ عدة وافرة من شباب

---

1) الاستقصا ج 4 ص 243 ـ الاتحاف ج 2 ص 493 .
2) الاتحاف ج 2 ص 494 ـ 495.
3) ج 3 ص 351 ـ 352 .

العدوتين سلا والرباط : بحرية، ومعينين. وقد استمر بعضهم يعمل بهذه الباخرة الى ما بعد وفاة السلطان الحسن (1) وقد تكون هذه الباخرة هي التي تسمى عند البعض : «احسان» .

2 ـ «قرصان حربي» وردت الاشارة له في بعض المقيدات (2) .

3 ـ الباخرة التي تحمل اسم «البشير» واسمها الكامل : «بشير الاسلام، بخوافق الاعلام» صنعت بايطاليا بأمر السلطان المولى الحسن، ووردت للمغرب بعد وفاته ايام المولى عبد العزيز، وكان بها من المدافع اثنا عشر، ومن الطبجية اثنا عشر، ومن البحرية اربعة واربعون شطر عدتهم من الرباط، والشطر الآخر من سلا، مع ما أضيف اليهم من طنجة، وتطوان من البحرية والمستخدمين بجهازها، ورئيسها ألماني يدعى متني، وأمين صائرها السيد عبد الكريم زيوزيو التطواني (3) .

وكان متولي النظر في شؤون هذه الباخرة هو النائب المغربي بطنجة الحاج محمد بن العربي الطريس التطواني اسند اليه هذه الخطة السلطان عبد العزيز بظهير مؤرخ في 29 رجب الفرد عام 1317 = 1899 ويتضمن ارشادات لرجال الباخرة بالقيام بوظائفهم الدينية والبحرية (4) .

وقد كانت هذه الباخرة تستخدم ايضا في ربط المواصلات بين المغرب وبعض الاقطار الاخرى، وعليها سافرت الى الجزائر لجنة الحدود المغربية الجزائرية عام 1319 (5) .

4 ـ الباخرة التي تحمل اسم «التريكي» اشتراها السلطان عبد العزيز لاول عهده، وفيها سافر الى مرسى طرفاية الوفد المغربي الذى توجه لتسلم هذه المرسى من التجار الانجليز (6) .

---

1) «زهر الافنان» ج 2 ص 304 ـ 305 .
2) «الاستبصار»
3) «مقدمة سوق المهر» ص «لـز» .
4) الظهير وارد بالاتحاف ج 2 ص 505 ـ 508، ومنه نسخة اخرى بمكتبة كاتب السطور .
5) يوخذ هذا من الظهير رقم «95» الوارد ضمن «مجموعة ظهائر علوية» .
6) يوخذ خبر هذه الباخرة من الاتحاف ج 1 ص 385 مع «الاستبصار» .

هذا وقد وصف في «الدائرة الوجدية» (1) بعض قطع من الاسطول المغربي يمكن ان تكون من المتقدمة او غيرها. فقد تحدث عن قطعتين مغربيتين ترجعان لاواخر العهد العزيزي : الاولى «طرادطوربيدى» من الفولاذ، طوله سبعون مترا، وعرضه عشرة امتار، وحمولته ألف ومائتا طن، وقوته البخارية تعادل 2500 حصان بخاري، وسرعته في الساعة 18 عقدة وبه عشرة مدافع من عيار اثنى عشر مترا.

الثاني : «مركب آخر» من ذوات الرفاس طوله 37 مترا، وعرضه 11 مترا، وحمولته 1164 طنا، وقوة «الاته تعادل 140 حصانا، وسرعة سيره نحو 10 عقدة في الساعة ويسمى «احسان».

ومن الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع : رسالة (2) وجهها السلطان المولى الحسن الى عامله بسلا لما حاول احياء الاسطول المغربي، وفيما يلي نصها بعد الافتتاح :

«خديمنا الارضى الحاج محمد بن سعيد السلاوى، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد : فنامرك ان تبحث في الثغر السلاوى عمن له خبرة بالرياسة البحرية، ويعرف كيف يسافر في البحر ببابور الكوشطة، ماهرا بذلك، بحيث لا يخفى عليه شيء من أمر تلك الرياسة، فاذا وجدت من قامت به الصفة المذكورة، فلا يخلو اما أن يكون متعددا، واما أن يكون منفردا، وعلى فرض التعدد فلابد أن يكون البعض أقوى مهارة من البعض، فلتبينهم لنا بأسمائهم، وأنسابهم ومراتبهم في الرياسة وما يحسنه كل واحد منهم من ذلك على الانفراد. مع كونهم بلديين، أو آفاقيين، او البعض بلدى والبعض آفاقي، حتى نكون على بصيرة من امرهم، واجعل يدك عليهم، وليكونوا على اهبة لما يرد عليك من قبلنا. بحيث اذا ورد عليك امرنا الشريف بما يكون فيهم كانوا متيسرين، وان لم تجد من قامت به تلك الصفة متعددا، فان وجدت واحدا فقط فسمه أيضا باسمه ونسبه ورتبته في الرياسة، وليكن متهيئا لما يرد عليك من حضرتنا الشريفة، وان لم تجد من قامت به تلك الصفة ولكنه اذا أريد تعليمه يقبل التعليم بسهولة اما لتقدم معرفة له بذلك. واما لكونه

1) ج 8 ص 719 – 720 .
2) وردت في «زهر الافنان» ج 2 ص 305 .

فطنا فكذلك بينهم لنا بأسمائهم وانسابهم، ومراتبهم فـي الذكـاء والفطنة، آفاقيين، أو بلديين، واطلع علمنا الشريف بكل ذلك علـى تفصيلـه عزما. والسلام. في ثالث صفر الخير عام تسعة وتسعين ومائتين والف» .

٤ ـ بنـاء المعامـل الحـربيـة

وقامت في البلاد حركة نشيطة لبناء المعامل الحربيـة حتـى تستغني البلاد عن غيرها ولو في بعض المـواد .

ومما بني منها في هذا الطور :

1 ـ معمل صنع القرطوس بمراكش الذى كان يستخدم بالبخـار .

2 ـ معمل آخر لصنع البارود المزدج بالمحـل المعـروف بالسجينة من مـراكش (1) .

3 ـ معمل السلاح بفاس الذى كان يسمى «مكينة العدة» انشىء قبل دار السلاح (2) .

4 ـ «دار السلاح» بفاس وموقعها داخـل باب الساكمة يمين المـار منه لباب المكينة حيث يتـراءى لـك مظهـر المعمـل الخارجي الفخم ، الـذى يشخص اهميته كاكبر معمل بالمغرب في عهده، وترى بابه مكتوبا باعلاه: « دار السلاح منشئها الامير مولاى الحسن» ، وكان تاسيسها على يد المهندس الايطالى لوطرى من عام 1305 حتى عام 1308 حيى انتهى العمل فيها (3) وفى عام 1309 كان افتتاحها في مهرجان عظيم اقامه السلطان الحسن بعد حفلات عيد المولد النبوى الذى احتفل به فى فاس (4) .

---

1) يوخذ من الاتحاف في الجزء 2 ص 499: ان المعملين معا مـن انشاء السلطان الحسن ، وفي الجزء 3 منه ص 565 نسبة المعمل الثاني للسلطان محمد بن عبد الرحمان ، والذى ذكر ان العمل الاول يستخدم بالبخار هو الطاهر بن الحاج الاودى في موضوعه : «الاستبصار» .

2) ورد ذكر هذا المعمل مع معمل القرطوس المراكشي اثناء رسالة حسنية في الاتحاف (2) 495 ـ 497.

3) الاتحاف (2) 495 وغيره .

4) «البستان الجامع لكل نوع حسن، وفي مستحسن، في عد بعض مآثر السلطان مولاى الحسن» نسخة المكتبة الوطنية بالربـاط رقـم 1346 D ومؤلفه هو محمد بن ابراهيم السباعى ثم المراكشى .

وكانت تشتمل على ثلاثة معامل كلها تستخدم بالماء : الاول معمل صنع البنادق تامة الادوات من حديد وعود وغيرهما، الثانى معمل صنع القرطوس الثالث معمل ضرب السكة المغربية (1) ، وبهذا الاخير وقع ضرب بعض قطع من السكة المغربية ايام مولاى الحسن ومولاى عبد العزيز صنف : 10 ، 5 ، 2 ، 1 موزونات ، ونصف الموزونة (2) وهى القطع النحاسية المكتوب على احد وجهيها انها ضربت بفاس .

هذا وفى «الاتحاف» (3) تفاصيل اخرى عن «دار السلاح» تثبت المهم منها فيما يلي :

«قد استخدم بهذه الدار طلبة البعثة المتخرجة من مدارس فرنسا وبلجيكا، وكان رئيسها الكولونيل الايطالى بريكلف. وكبارها هم: محمد الصغير والمختار الرغاى، ومحمد بن الكعاب، وادريس الفاسى ، والطاهر بن الحاج الاودى (4) ومحمد المنقرى، وعباس بن قاسم (5)، وعدد جميع العملة الذين كانوا بها ثلاثمائة عامل من فاس ، ومكناس ، ومراكش ، والرباط ، وسلوان وغير ذلك .

وكانوا ينقسمون الى اقسام ، لكل قسم قائد مائة ، ومقدم ، وملازم ، واجرتهم اليومية من اثنى عشر مثقالا الى مثقال واحد وكان يصرف لهم اللباس سنويا، وكذلك اللباس الذى يباشرون به العمل، وكانوا لا يخرجون منها الا باذن الكولونيل رئيسها، وقد وقفت على اذنين اصدرهما لبعض العملة بالعربية والفرنجية بتوقيعه ، وكان عدد ما يقبضه الامناء من مصنوعات الدار فى كل جمعة صندوقين، داخل كل واحد منهما ثمانية عشر بندقية بحرابها . وبلغ عدد ما كانت تدفعه من القرطوس شهريا : ثلاثمائة الف ، وكان نوع سلاحها يسمى باللسان الدارج «بوحفرة» وبالافرنجي «مرطني»، وبقي العمل مستمرا بها الى حدود سنة 1321»

---

1) هذا ماخوذ من الاستبصار ص 184 وغيرها.

2) «الاستبصار» مع الاتحاف (2) 499

3) ج 2 ص 498 – 499.

4) هو رئيس العملة بهذه الدار «الاتحاف» ج 2 ص 468 .

5) هذا ومن قبله انما ورد بالاتحاف ج 2 ص 468 وقد كان الاول رئيس قسم صناعة الزنادات بالدار ، والثانى رئيس قسم صناعة الجعاب بها.

هذا آخر المحتاج له من كلام «الاتحاف» ، وفي «الاستبصار»(1) ما يفيد ان «دار السلاح» كان العمل جاريا فيها اول العهد الحفيظي، وسوى المعامل المعامل الانفة الذكر فهناك «دار السلاح» بمراكش على غرار دار فاس، كان المولى الحسن يعتزم انشاءها من عام 1305 (2) فحالت عوائد دون ذلك .

٥ - «اصلاحات بالشواطىء»

يضاف لما تقدم الاهتمام الذى بدا في هذا الطور باصلاح الشواطيء وبناء التحصينات عليها ، حتى ان السلطان الحسن عين بكل مرسى مهندسا لتفقد قوتها والطواف عليها واخبار المسؤولين في اقرب وقت بالصالح منها والمفتقر للاصلاح ، وعين المولى احمد الصويري ـ الذى كان رئيس قواد المدفعية وخليفة وزير العسكر ـ واسطة بين اولائك المهندسين وبين الملك الذى كان بمجرد ما يتصل بالواقع يبادر بتنفيذ ما تتطلبه الحالة(3) ومن مظاهر ذلك الاهتمام : برج الفنار الذى بناه الملك محمد بن عبد الرحمن على ساحل البحر باشقار قرب طنجة ليسرج ليلا حتى يهتدى به السيارة فى البحر (4) .

كذلك قام المولى الحسن باصلاح ابراج طنجة وبناء خزائنها المعدة للذخائر، وتركيب مدافعها، وقد تم هذا على يد بعض المهندسين الانجليز بمساعدة الزبير سكيرج المهندس المغربي .

والمولى الحسن هو الذى بنى البرج العظيم خارج باب العلو من الرباط الذى يسمى بالبرج الكبير، او البرج الالمانى (5) لكونه بني على يد بعض المهندسين الالمانيين بمساعدة المهندس المغربى سكيرج الآنف الذكر، وقد بنى على هندسة جديدة لم تكن معروفة بالمغرب قبل، وجهز بأحدث المدافع اذ ذاك المجلوبة من معامل كروب بالمانيا (6) .

---

1) ص 91 .
2) هذا يوخذ من الرسالة الواردة فى «الاتحاف» ج 2 ص 495 – 497.
3) الاتحاف ج 2 ص 500 مع «الاعلام، بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» ج 2 ص 268 .
4) الجيش ج 2 ص 81. «الاستقصا» ج 4 ص 234. «الاتحاف» ج 3 ص 565 .
5) هذا البرج صار الآن تابعا للملجأ الخيرى بالرباط .
6) الاتحاف ج 2 ص 489 مقدمة الفتح ص 134 .

وهو ـ كما فى «مقدمة الفتح» (1) ـ البانـى لمرسى الرباط الحالية قبل أن تتناولها يد الاصلاح الحديث : جدد بناء ديوانتها الكبرى والصغـرى وزاد فى رصيفها، وشيد عدة اهرية ومستودعات لحفظ البضاعات .

واذ تركنا الربـاط ووصلنا لمدينة «الجديـدة» نجد الاصلاح يتـناول ابراجها واسوارها منذ عهد الملك محمد بن عبد الرحمن(2) الذى اعتنى ايضا بشأن الثغور وبعث من نوابه من يتفقد احوالها (3) .

وقد تبدو هذه التحصينات تافهة ازاء ما كان يتطلبـه المغـرب اذ ذاك، ولكن يجب ان نلاحظ أن المغرب فى هذا الاوان كانت يـده مغلولة عن بنـاء التحصينات الحربية كما يريد، حسبما اعلنت عن هذه الحقيقة وزارة الخارجية الحسنية فى بعض مكاتبها (4)، وفى الاخير : نذيل هذا الموضوع بظهير مهم يعطينا مثالا من اهتمام الجلالة الحسنية بتفقد الشواطـىء المغربية حتـى أنه عين لجنة لتفتيشها ثغرا ثغرا، وهذا نص الظهير (5) بعد الافتتاح :

«خالنا الارضى الطالـب محمد ولـد اب محمـد وخدامنـا امناء مرسى العرائش حرسها الله، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله .

وبعد فقد وجهنا حملته: كاتبنا مولاى احمد بن العربى البلغيثى وخديمنا مولاى عبد الرحمن بن احمد الوكيلى، والمهندس الطالب احمد الشاذلى البخارى، والطالـب المختـار الرغاى، لمعاينة ابراج الثغور، وتفقدها واختبار احوالها ، ثغرا بعد ثغر حتى تفتر مباسمها عن درر هاتيك الثغور، ويصير طيها لديهم في حيز النشور، ويعرفوا الصالح منها وغيره، وكذا المطافي وما هو من ذلك مفتقر للاصلاح، وقدر ما يقام به بتقدير ارباب البصر العارفين بذلك الاصطلاح ويعرفوا عدد المدافع في كل برج، والمهراس، وفرقة كل منهما، وكونهما من المدبر، او خالص النحاس، والصالح الفاسد، والمستعمـل والكـاسد، وعدد المدافع الفاسدة المنبوذة فى الفضاء والازقـة وبالصقاقيـل وغيرهـا: نحاسا وحديدا، التى لا تصلح لصالحة، وما هو منها صالح وانما يتوقف على الكراريط والعمائر فقط، كل نوع على حدته، وكذلك عدد الكراريط وما يطابق منها كل

---

1) ص 135 .
2) السلوة ج 3 ص 232 . الاستقصا ج 4 ص 234.
3) المصدر الاخير ج 4 ص 234.
4) هذا الكتاب ورد في «الاتحاف» ج 2 ص 503 ـ 505 .
5) هذا الظهير يوجد اصله بمكتبة كاتب السطور.

فرمة من فرم مدافع تلك الابراج كما وكيفا، وصلاحا وفسادا، وما يعمل فيه العلاج، وسائر الآلات الجهادية، وما يحتاج اليه كل برج من الاجزاء المادية، وما هو معين لكل مدفع في كل برج او في الخزائن من البنب والكور الموجودة فرمته في المدافع والمهارس المستعمل وغير المستعمل لفقدان فرمتـه فيهما، وفق ما يقع عليه العثور، ويعرفوا قناطير البارود التى بخزائنه بأنواعه، اخذا من الكناش، لا باعادة وزنه، لتعسرة او امتناعه، وجميع العدة بكـل خزين: الصالح منها والمتلاشي، وما فيها من التوافل والسكاكيـن وميـزان الخفيـف المفروغ والبارة وميزان ملحة البارود، حتى يعرفوا من الكل نهايته ومقداره، ويسردوا جميع الطبجية والعساكرية في كل ثغر، ويعرفوا منهم الاسم والعين والقادر والعاجز، والمعلم والمتعلم، من غير تلبيس ولا مين.

فنامركم ان تقفوا مع الموجهين المذكورين لثغر العرائش، حتى يستوفوا الغرض المذكور، على الوجه المبين فى هذا المسطـور، وان تبينوا لهم كل ما أمرنا ببيانه، ليكون لديهم واضحا فيرتبوه فى تقييده وعنوانه، كما نأمركم ان تنبهوا الطبجية على ضرب الاشارة مرتين فى كل جمعة، لتحصـل الدرايـة للمتعلمين وتقع بهم المنفعة، جعل الله ذلك فى طاعته ومرضاته، ومن العمـل المتقبل المبرور، العائد بالثواب المذخور، والسلام في 3 ربيع الثاني عام 1300».

٦ ـ بعـض مـدارس حـديثـة

من الاعمال البارزة فى هذا الطور: تلك البذرات الاولى التى وضعت لخلق نهضة عملية حديثة بالمغرب:

المدرسـة المحمديـة بفـاس:

وتمتد جذور هذه النهضة الى الوقت الذى كان فيه محمد الرابع خليفة لوالده لم يتول الملك بعد، فقد احدث بفاس الجديد جوار القصر السلطانـى «مـدرسة» لتعليم العلوم الرياضية: الحساب، التنجيم، الهندسة، الهيئـة.

وقد درس في هذه المدرسة عدد من الشبان توجهوا بعد لاتمام دراستهم بأوربا، مثل محمد الجباص الوزير الصدر السابق الذى أتم دراسته بانجلترا، ومحمد العلمى الشهير ببنانى الذى أتم دراسته بايطاليا، فى شبان آخرين توجهوا الى فرنسا والمانيا (1).

---

1) انظر الاتحاف ج 3 ص 367.

المدرسة الحسنية بطنجة

والغالب انها حلت محل المدرسة المحمدية بفاس، وكان يدرس فيها المواد الآتية : الحساب، الهندسة، التنجيم، الجغرافيــة، اللغة العربية، الضرورى من علوم الدين، احدى اللغات الاجنبية، ومدة الدراسة فيها ست سنوات، وممن درس فيها : البعثة الآتية الذكر التى درست فى فرنسا وبلجيكا (1)

٧ ـ بعثات الى مصر واوربا

1 ـ بعثات الى مصر :

وهذه بدون شك اولى البعثات المغربية الى الخارج والمعروف لحد الآن منها هي التاليــة :

أ) بعثة وجهها السلطان محمد الرابع الى مصر ايام الخديوى محمد سعيد باشا 1271 ـ 1280 وممن نبغ من أفراد هذه البعثة :

احمد شهبون مؤلف كتاب «الجغرافية المغربية».

محمد ابن كيران الفاسي مخترع «ثمن الدائرة» عوضا عن الربع المتداول

عبد السلام العلمى الامام الشهير مؤلف التآليف العديدة (2) .

وبدون شك فان توجيه هذه البعثة كان بين عــام 1276 الى عــام 1280 حيث أن هذه الحقبة هي التي تعاصر فيها الملكان محمد الرابع المبايع عام 76 وسعيد باشا المتوفى عام 1280 .

ب) ولا شك أن هناك بعثة أو بعثتين بعث بهما هذا الملك المغربــي الى مصر ايام الخديوى اسماعيل باشا، فان هناك مراسلــة (3) بين الملكين تتحدث عن رسالتين مغربيتين : الاولى : في شــأن شاب بعثـه ملك المغرب ليتمرن على أشغال الطبع بمصر، الرسالة الثانية : ترغب فى تعليم ثـلاث طلاب مغاربة بعض الفنون العسكرية، .

---

1) يوخذ خبر هذه المدرسة من «الاستبصار» للطاهر الاودى ص 83. وفي الاتحاف : لم يسم المدرسة، وانما ذكر عن بعض البعثات : أنهـم اقاموا بطنجة ثلاث سنين اخذوا بها مبادىء الحساب واللغات الافرنجية ج 2 ص 466

2) الدرر الفاخرة ص 95 ـ 96 وعلى ادراج عبد السلام العلمــي في هذه البعثة تلفت النظر الى ان الذى يصرح به العلمي نفسه في بعض مؤلفاته انه انما درس فى مصر ايام السلطان المولى الحسن.

3) انظر عن هذه المراسلة ص 39 ـ 40 من هذا البحث .

2 ـ بعثات الى أوربا

وكلها توجهت ايام السلطان الحسن، وهي ـ على قلة عددها ـ اكثر بكثير من سابقاتها الشرقية، اذ بلغ افرادها 332 توجهوا الى مختلف عواصم أوربا، موزعين على ثمان بعثات : ثلاثة منها ذهبت الى جبل طارق، وهي ـ تقريبا ـ عسكرية محضة، والخمسة الباقية ـ المتوجهة الى بلادات اوربية اخرى ـ كانت مختلطة : عسكرية وغيرها .

وعين باعثهم السلطان الحسن مع كل بعثة شخصية من أهل الدين والعلم لمرافقتهم وصيانتهم، وقد كان بعثهم على الترتيب التالي :

عـام 1291

ذهبت فيه بعثة من 15 طالبا قضوا اولا ثلاث سنوات بطنجة لتعلم مبادىء الحساب واللغات الافرنجية، وبعد ذلك توجهوا الى أوربا حيث توزعوا على عواصم خمس دول : انجلترا، فرنسا، المانيا، ايطاليا، اسبانيا، لكل دولة بعثة من ثلاثة أفراد، تدرس الرياضيات ولغة البلاد التي تتعلم فيها، وبعد ما مكثوا بأوربا خمسة أعوام رجعوا للمغرب .

أعـوام 1292 ـ 93 ـ 94

توجهت في هذه الاعوام الثلاثة ثلاث بعثات الى جبل طارق لتمكث ثمة كل واحدة من البعثات نحو العام ثم تعود بعد ما تتمرن على الفنون العسكرية الحديثة، وتاخذ بعض العلوم العصرية، وقد كانت بعثة 1292 تتالف من 25 جنديا، وبعثة 1293، تتركب من 85 فيها 70 جنود و 10 مدفعيين، و 5 أطباء الجيش، أما بعثة 1294 فعددها 170 فيهم 45 مدفعيون .

عـام 1295

ذهب فيه 13 طالبا من الرباط، وسلا، والعرائش الى «المدرسة الدولية» بمدينة طورين من ايطاليا حيث قضوا خمسة اعوام تعلموا فيها اللغة الايطالية والفنون العسكرية ما عدا واحدا منهم تخصص في العلوم السياسية.

بعثة اخرى :

هذه البعثة المؤلفة من 10 أفراد (1) ذهبت (2) اولا لطنجة التي قضت فيها ست سنوات حيث درس افرادها الرياضيات وغيرها في «المدرسة الحسنية» الآنفة الذكر، ثم توجهوا الى اوربا التي قضوا فيها سبع سنوات : اربعة بباريز عاصمة فرنسا، وثلاثة بمدينة «لييج» ببلجيكا، وبعد ما تخرجوا في صناعة الذخائر الحربية عادوا للمغرب عام 1305.

عام 1301 مع عام آخر

ذهب في العامين بعثتان الى بلاد المانيا لقضاء فترة من التدريب العسكري، وتحتوى بعثة عام 1301 على أربعة أفراد، والبعثة الاخرى الواقعة في العهد الحسنى والمجهول تاريخها بالضبط ـ كانت تتالف من عشرة جنود، وهنا ينتهي حديث هذه البعثات المغربية الى أوربا، وقد تحدث عنها هذا البحث في شيء من الاجمال، وتوجد بعض تفاصيلها في «الاتحاف» (3) .

٨ ـ محاولات لتطوير بعض الصناعات

ولم يخل هذا الطور من محاولات لتطوير بعض الصناعات المغربية، كتجارب في هذا الميدان وقعت في عهد السلطان محمد الرابع الذى أنشأ المعامل البخارية التالية :

معمل السكر :

تأسس هذا المعمل فى آخريات «أكدال» بمدينة مراكش، وبذل فيه مؤسسه محمد الرابع المال الطائل، وجلب له اختصاصيين من أوربا لبنائه حتى جاء على عمل متقن وهيئة ضخمة .

---

1) هذا ما في الاتحاف ج 2 ص 468 وفي «الاستبصار» ص 83 : ان عدد افراد هذه البعثة 50 زيادة على ثلاثة رؤساء عليهم.

2) في «الاستبصار» : حدد تاريخ ذهاب هذه البعثة لطنجة بعام 1292 في صحيفة 83، وبعام 1291 في صحيفة 95، ثم ان «الاستبصار» هو الذى سجل ـ ص 83 ـ ذهاب هذه البعثة لطنجة قبل ذهابها الى اوربا.

3) ج 2 ص 465 ـ 471.

وفي أول الامر كان معلمون أوربيون هم القائمين في هذا المعمل بعصر قصب السكر وتصفيته ، ولما عجزوا عن اتمام عمليتهم حل محلهم اختصاصيون شرقيون جلبوا من مصر القاهرة، ويوخذ من بعض الوثائق ان هذا المعمل ادى مهمته حينا من الدهر، ثم ءال أمره بعد ذلك الى التعطيل لقلة المادة، ومما قاله فى «الجيش» (1) عن هذا المصنع لدى تعداد بعض مآثر محمد الرابع :

«... من ذلك الآلة التى يعصر فيها السكر ويعقد، حتى يوجد فى كل حين ولا يفقد ، ويغنى عن جلبه من اقاصى البلدان ، لما اجرى الله العادة اليوم باستعماله في سائر الاوقات لاستصلاح الابدان، فأراد مولانا نصره الله ان يكفي الناس مؤنة اجتلابه، ورأى ان هذه البلاد ـ لكثرة مرافقها دون غيرها من الافاق ـ أولى به، فامر بغرس القصب الحلو واستنباته، وتهيئة المزارع الطيبة واختيار اطيب اوقاته، ووجه على من يحسن اعمال اخراجه من القوة الى الفعل بغاية ما يطلب من الاجارة او الجعل...»

وكان الذى اسند اليه انشاء هذا المعمل هو السيد محمد الدكالي الرباطي العارف ببعض اللغات الاوربية والمكلف من طرف ملك المغرب بتنمية مؤسسات الاشغال العمومية المختلفة ذات الاهمية وقد أبرم بتاريخ 8 اكتوبر 1862 = 1279 اتفاقية مع ميكانيكى انجليزى ليقوم بتركيب الآلات اللازمة لعصر السكر ، ويشرع في استعمالها على احسن ما يرام ، وليقوم ايضا بتأسيس المعامل وتركيب جميع الآلات كيفما كانت (2) .

معمل القطن

هذا المصنع ـ الذى كان مقره بمدينة مراكش ـ وردت على المغرب ادواته اوائل دولة الملك محمد الرابع عام 1279 او قبله ومن وقت تأسيسه لا نسمع عنه حديثا او خبرا حتى عام 1288 حيث تتحدث رسالة : بان مهندسا اوربيا قام بهذا المصنع وبمعمل السكر أحسن قيام ، وبعد هذا ينقطع عنا خبر مصنع القطن بالمرة .

---

1) ج 2 ص 80 .

2) حديث هذا المعمل مستقى من «الجيش» ج 2 ص 80 مع الاستقصا ج 4 ص 234 والاتحاف ج 3 الذى تحدث عنه من ص 556 الى ص 563 .

هذا وتفيد وثيقة أخرى بان محمد الرابع اوصى على معمل ثان للقطن ليبنى في مدينة الرباط ، ولا ندرى هل وصل لهذه المدينة ، واذا كان وصل فهل أدى مهمته أولا (1) .

رحى بخارية :

استجلبها محمد الرابع عام 1279 = 1862. ونصبها بمدينة طنجة لينتفع السكان بالطحن فيها (2) .

ذلك ما وقفت عليه من حديث تلك المعامل الفنية التي يبدو ان نشاطها كان ضئيلا .

٩ - « بعض تقدم في تجارة المغرب الخارجية »

والى جانب هذه المحاولات الصناعية ـ فان التجارة المغربية في هذا العهد اخذت تتطور بما انفتح امامها ـ اكثر من ذى قبل ـ من الاسواق الخارجية نتيجة لتقدم المواصلات في الخارج ، وللتسهيلات المحلية . وقد أم هذه الاسواق في أوربا وغيرها مغاربة مقتدرون اسسوا تجارات واسعة، وادا روها بشكل اثار اعجاب الملاحظين ، وقد تحدث عن نشاط المغرب التجارى في هذه الحقبة رحالة تونسي (3) وقال :

«...ولهم ـ المغاربة ـ اليد الطولى في التجارة ، بحيث ان تجارة داخل المملكة ـ اعنى غير المراسي التي على البحر ـ هي بيد الاهالي ، ويرسلون منهم الى اقاصي الممالك لعاطاة الاشغال التجارية ، ووصلها بمملكتهم ، حتي لا تكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة في احدى قارات أوربا وآسيا وافريقيا الا وفيها من تجارهم من له مزيد الرواج والثروة، ولهم براعة في ادارة التجارة يتاكبون بها الاورباويين»

وبعد هذا الرحالة التونسي: ها هو كاتب شرقي مشهور (4) يسجل هو الآخر تطور تجارة المغرب الخارجية في العبارات التالية :

---

1) انظر عن هذين المصنعين الاتحاف ج 3 ص 564 و 560 .
2) المصدر ج 3 ص 563 ـ 564 .
3) هو الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه «صفوة الاعتبار ، بمستودع الامصار والاقطار » ج 1 ص 62 ـ 63 .
4) هو محرر «تقويم المؤيد» سنة 1324 هجرية ص 294.

«...وللمراكشيين باع طويل في التجارة ، واقدام لا يجاريهم فيه بقية المسلمين ، فانك تجد من المشتغلين الرابحين بها : أبناء البناني في «منشستر» منذ 40 سنة وعائلة بوهلال في «جنوة» وعائلة بنيس في «ليفربول» وعائلة الحلو في «مرسيليا» وعائلة جسوس في «لندرة» وعائلة القباج في «همبورغ».

ومن مظاهر هذا التطور الذى طرأ على التجارة المغربية مشاركة المغاربة في المعارض الدولية باوربا ، ففي هذا الطور استدعي المغرب لثلاثة معارض فى سنوات مختلفة :

الاول : «معرض باريس الثاني» فقد كتب نابليون الثالث للسلطان محمد الرابع يرجوه مشاركة المغرب في المعرض العالمي الذى اعتزم اقامته بباريس عام 1285 = 1867، ولبى ملك المغرب الدعوة، فبعث الحاج محمد بن العربى القباج الفاسي من كبار التجار وبعث معه كل غريب مما اختص به المغرب من سروج مذهبة، ومناطق مزخرفة، وقطائف منمقة، وغير ذلك من الاعلى الى الادنى حتى الزليج الفاسى، والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه فى محاله(1)

ويوجد بالمجموعة المعنونة بـ «معرض سنة 1967 العمومي» فصل عن الرواق المغربي في هذا المعرض، وفي ظهر الصحيفة المكتوب فيها هذا الفصل : صورة قلمية للرواق المغربي تمثل بناء خشبيا قائما على اقواس واساطين، فى يساره دكان يرى ببابه رجل عربى الشكل، بين يديه اثواب كانه يهش فى وجه فتيات من زائرات المعرض، وينوه لهن بسلعته، وبجانب هذا الدكان ـ وسط واجهة الرواق ـ سقاية على الشكل المغربي الاندلسي الجميل، ينبع الماء من انابيبها الكثيرة، وبجانب السقاية يظهر قوسان وقف بأحدهما عسكرى، ولعل هناك كان الاروى الذى به جياد عربية بعث بها سلطان المغرب لتعرض على انظار الزائرين (2).

ثم شارك المغرب للمرة الثانية في معرض باريس الثالث المقام عام 1295 ـ 1878 ومن اغرب ما أرسله سلطان المغرب المولى الحسن لهذا المعرض دار كلها من خشب على هيئة ديار فاس، وبها النقش حديدة وغيرها، وكذلك فرشها (3) .

---

1) الاستقصا ج 4 ص 231 ـ 232.
2) «جريدة السعادة» عدد 4474 السنة 34.
3) «صفوة الاعتبار» ج 3 ص 81 .

وفي عام 1306 = 1889 شارك المغرب للمرة الثالثة في معرض باريس الرابع حيث عرض منتوجات وطنية (1) .

وان هذه البارقة التي برقت على الاقتصاد المغربي في هذا الطور أخذت توتي ثمراتها الاولى، فمثلا في أيام محمد الرابع لاحت على المغرب سمة اليسار، فغلت الدور والاملاك، حتى كانت في بعض السنين لا تسمسر، ومن يشتري دارا انما يشتريها بالتنقير عنها والطلب من ربها بالثمن الجافي، واتخذ ذوو اليسار المراكب الفارهة، والكسى الرفيعة، والذخائر النفيسة، وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع، لا سيما بفاس ورباط الفتح، ولاحت على المغاربة حضارة جديدة مطبوعة بالطابع الاوربي (2) .

ومما يدخل في باب انعاش الاقتصاد المغربي. ونختم به هذا الموضوع ما قام به السلطان الحسن من رفع المكوس في سائر الابواب بالمدن والقرى المغربية كلها، واسقاط ذلك بالمرة، وقد تحدث في الاستقصا (3) عن هذا الحادث فكتب ما ملخصه :

«وفي أواسط ربيع الاول من سنة 1303 : ورد امر السلطان ايده الله بتسريح ما كان موظفا على ابواب المدن والقرى، مما كانت تؤديه العامة على احمال السلع والتجارت من المكوس، وكتب في ذلك الى عامل سلا وقته، ولما ورد كتاب السلطان فرح الناس به، ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد من خالص نياتهم، تطلب الله تعالى أن يتمم نعمته على المسلمين بتسريح ما بقي موظفا من مبيعات الاسواق، ويريح الناس من شؤمه، فانه لا شيء أشأم من هذه المكوس على الدول، نسأل الله العافية» .

١٠ - تجديد العملة المغربية

من القضايا التي كانت تتطلب علاجا في هذا الطور : مشكلة «العملة المغربية» التي كان يروج الى جانبها عملات اجنبية مختلفة، لاحتياج المغاربة لها في شراء حاجياتهم من الخارج، وفي بعض المعاملات الداخلية .

---

1) «الاستطلاعات الباريسية» اسم رحلة الشيخ محمد السنوسي التونسي ص 201 .

2) الاستقصا ج 4 ص 233 .

3) ج 4 ص 264.

ومنذ عام 1261 = 1845 أخذت العملة المغربية فى التدهور : ارتفاع فى العملة الاجنبية، وهبوط فى السكة الوطنية، وهذا ما حفز المغرب في هذا الطور : أن يحاول تاسيس عملة مغربية جديدة لا تتأثر بتقلبات السكة الاجنبية .

وكان الذى أسس أول الامر هذه العملة: هو الملك محمد الرابع الذى أمر عام 1285 بضرب «الدرهم الشرعى» وحاول ضبط السكة به، وحمل الناس على أن لا يذكروا فى معاملاتهم وانكحتهم وسائر عقودهم الا الدرهم الشرعي، واذاع في ذلك منشورا على سائر ولاة الامصار جاء فيه :

« ... ولما رأينا ما حدث فيها ـ السكة المغربية ـ من التغير وعدم الضبط، ونشأ عن ذلك من الضرر للمسلمين وبيت مالهم ما لم يخف على احد ـ اقتضى نظرنا السديد ردها لاصلها الاصيل، الذى أسسه أسلافنا الكرام سنة ثمانين ومائة والف، اذ لنا فيهم أسوة حسنة في الاجمال والتفصيل، فرددنا الدرهم الكبير المسكوك على وزن الدرهم الشرعي، والمنهاج المرعى، كما كان على عهد جدنا سيدى الكبير (1) قدسه الله، وجدد عليه وابل رحماه، بحيث تكون عشرة دراهم منه هي المثقال كما هو معلوم : اى عشرة دراهم من الدراهم التي كانت تروج قبل على عهد اسلافنا ـ رحمهم الله ـ هي المثقال، وبهذا العدد الذى هو عشرة منه في المثقال تكون جميع المعاملات والمخالطات فى البيع والابتياع وغيرهما بين جميع رعيتنا السعيدة فى كل البوادى والحواضر، وبه أمرنا جميع العمال، ومن هو مكلف بعمل من الاعمال، واشاعته ليبلغ الشاهد الغائب، وبه يقبل لجانب بيت المال، وامرناهم بالعمل بهذا الامر الذى أصدرناه، وأبرمناه بحول الله وامضيناه، وان يعاقبوا كل من عثروا عليه ارتكب خلاف ذلك، وبأن يسلكوا به أضيق المسالك، جزاء وفاقا على مخالفته، وتعديه الحد وافتياته» (2).

هذه خلاصة محاولة محمد الرابع لانقاذ العملة المغربية من الازمة التي صارت اليها ، ومن سوء الحظ ان تفشل هذه المحاولة وتعود

---

1) السلطان محمد بن عبد الله.

2) الاستقصا ج 4 ص 231 .

السكة المغربية الى حالتها الاولى من التدهور وعدم الضبط، ومثال واحد لذلك ـ يبين امثلة عديدة ـ تجده في الاستقصا (1) اثناء حوادث عام 1294 .

وان هذا ما حدا بالسلطان المولى الحسن ان يعمد ـ عام 1298 = 1881 للعمل على تأسيس عملة مغربية اخرى تكون ـ في وقت واحد ـ مبنية على الدرهم الشرعى، ومساوية للسكة الاوربية الحديثة، وهذه هي التى صارت ـ بعد ضربها ـ تعرف بالسكة الحسنية التى تتكون من خمس قطع : الريال الحسنى، ونصفه، وربعه، وعشره الذى وزنه درهم شرعي، ونصف العشر، وقد شرح هذا السلطان تصميم العملة الحسنية الجديدة في رسالة (2) بعث بها للنائب السلطانى بطنجة نص المراد منها :

«... وبعد : فقد اقتضى نظرنا الشريف ضرب سكة شرعية تتصارف بها رعيتنا في ايالتنا السعيدة، وتكون على كيفية مخصوصة، وعمل خاص، موافق للشرع، مبنى اصلها على الدرهم الشرعي الذى كان في أيام جدنا الاكبر مولاى اسماعيل رحمه الله، وجدنا الاقدس سيدى الكبير نعم الله روحه والمنصور السعدى، وابي الحسن المريني، وغيرهم من ملوك دول المغرب السالفة رحمهم الله ـ جارية على عرف البلد الجارى بين الناس في المعاملات والزكاة، والقسامات، والفرائض، والبيوعات، والشراءات، ونحو ذلك، وان يضرب منها مقدار عشرين مليونا من الفرنك الفرانصيصي، فنامرك ان نعقد «كنطردتها» مع من يظهر لك من التجار الذين لهم المجال فى ذلك، وترضى ذمتهم، ويقبلها «باشادور» الفرنصيص بطنجة، ووزير الامور «البرانية» بدولته... نعم، من اتفقت الآراء على عقدها معه لا من المخزن ولا من التجار حتى التاجر المذكور، يكون عقدها معه على شروط وهي :

ان يضرب مقدار خمسة ملايين من العشرين مليونا من الفرنك المذكورة : ريالا وزنه عشرة دراهم شرعية يكون مماثلا لريال الفرنسيس فى المعيار والصفاء ، ومقدار مليونين منها يضرب نصف ريال وزنه خمسة دراهم شرعية يكون مماثلا للفرنك الفرنسيسي في المعيار والصفاء ، ومقدار اربعة ملايين منها يضرب ربع ريال وزنه درهمان شرعيان ونصف

---

1) ج 4 ص 254 ــ 255.

2) الرسالة واردة بالاتحاف ج 2 ص 431 ــ 433.

درهم شرعي يكون مماثلا أيضا للفرنك الفرنسيسي فيما ذكر، ومقدار اربعة ملايين منها يضرب عشر ريال وزنه درهم شرعي مماثلا للفرنك المذكور في المعيار والصفاء، ومقدار خمسة ملايين منها تضرب نصف عشر الريال وزنه نصف درهم شرعي يكون كالفرنك الفرنصيصي في المعيار والصفاء . وان يكون طرف هذه السكك مشرطا، وكتابته من الجهتين على المثال الواصل اليك، وان يكون ذلك على قانون البحر وما جرى به الحكم والعرف هناك عند الجنس المذكور، ولم يكن ممنوعا في شرعنا .

وان يعين المخزن او التاجر الذى تعقد معه «كنطردة» ذلك نائبا عنه بطنجة ....» .

تلك جملة الخطوط الكبرى لتصميم ضرب السكة الحسنية الذى لو نفذ باخلاص لحقق تقدما في الاقتصاد المغربي، هذا التقدم الذى كان هدف تجديد العملة المغربية، ولكن حدث ـ مع الاسف ـ ما عكس النتيجة، فان الدولة التي ضربت هذه العملة بدار سكتها بباريز وهي فرنسا ـ لم تستطع أن تنفذ التصميم المتفق عليه بدقة، ولم تجعل العملة المغربية الجديدة مساوية للفرنك الفرنسي، وانما جعلتها تزيد على الفرنك الفرنسي خلافا للمتفق عليه . فصار الريال المغربي يساوى خمسة فرنكات فرنسية وثمانين سنتيما، بدلا من خمسة فرنكات فقط المشترطة، وهكذا النسبة في باقي قطع العملة الحسنية، وقد رفض المغرب قبول هذه السكة المخالفة للمتفق عليه في شأنها، ولكنه ارغم في النهاية على قبولها على علاتها، ومن هنا جاءت الكارثة فان هذه العملة لما اخذت تروج بالمغرب صارت قيمتها تنحط شيئا فشيئا مما أدى الى ازمات حلت بالاقتصاد المغربي، وآلت محاولة الاصلاح الى فساد، ولكن الاصلاح اتى من الداخل، والفساد هجم من الخارج ولا يجتمع اثنان بان وهادم (1)

١١ ـ تشريع لموظفي الديوانات المغربية

الى جانب ما تقدم نذكر الاصلاحات الادارية القليلة التي وضعت في هذا الطور: واول ذلك التشريع الذى قننه السلطان محمد الرابع لموظفي

---

1) حديث هذه النكسة التي وقعت في ضرب السكة الحسنية ورد بابسط مما هنا في «الاستبصار» للطاهر الاودى ص 147 ، 148 ، 174 ، 200 .

الديوانات واصدره في شكل ظهير (1) يحمل تاريخ متم رمضان عام 1278 = 1861 هذا الظهير الذى يتضمن الفصول الآتية :

اولا – ان الامناء الموظفين بالمراسي المغربية لا يكون بينهم وبين الملك واسطة في شؤون وظيفتهم .

ثانيا – عمال المراسي لا يتدخلون في قليل ولا كثير من شؤون الامناء ولو على طريق الاعلام، وحسبهم ان يقتصروا على الاحكام .

ثالثا – تقرر لكل أمين مرتب شهرى كاف يعينه على القيام بمهمته ، واجتناب ما يزرى بجانبه، ومن عثر له بعد هذا على خيانة يقام عليه حد السارق، ويهان ويزجر، زيادة على ذلك .

رابعا – يمنع على الامناء ان يتجروا بالمرسى التي يتوظفون بها وليتجاوزوها الى غيرها .

خامسا – يوظف بكل مرسى أمين من أهلها وآخر من بلدة غيرها.

سادسا – انشىء منصب امين أعلى يسند الى شخصية معروفة بالحزم، والامانة، والعفاف، والصدق، والصيانة، واجراء الامور على مقتضاها وسلوك طريق النصح التى يحبها الله ويرضاها، ووظيفة هذا الامين هى :

أ) ان يكون مشرفا على جميع امناء المراسي ليتفقد احوالهم ويراجع اعمالهم من كل ما يرجع للداخل والخارج .

ب) يراقب السلع التى تظهر في الاسواق المغربية : حرير، صقلي، جوهر، مرجان، وغير ذلك مما هو رائج ليعلم هل أدى عليها بالمرسى حقوق الديوانة، او اغفلت من الاداء .

سابعا – تقرر لكل من رئيس المرسى، وخليفته، والعدول مرتب شهرى

هذا وفى اواخر الظهير الذى خوطب به عامل البيضاء تقدير مشاهرات موظفي مرساها على النحو الآتي :

1 – لكل واحد من اميني المرسى تسعون ريالا.
2 – لكل واحد من العدلين عشرون ريالا .
3– لرئيس المرسى خمسة عشر ريالا.
4 – لخليفته سبعة ريال .

---

1) ورد هذا الظهير الذى خوطب به عامل الدار البيضاء، في «مجموعة ظهائر علوية» ص 9 ومثله مع اختلاف في الاواخر ورد في الاتحاف ج 3 ص 379 – 380 موجها للنائب محمد بركاش .

١٢ - تنظيم البريد المغربي

وسوى تنظيمات الديوانة المغربية لا تعدم فى هذا الطور مثالا آخر للاصلاحات الحديثة التي أخذت تسرى - ولو ببطء - في بعض الادارات المغربية الاخرى، ومنها «البريد المغربي» الذى وضع له السلطان الحسن تنظيما محكما ابتدأ تطبيقه عمليا من مدينة الجديدة الى مدينة مراكش، ثم بعد نجاح هذه التجربة وضع تصميما كاملا لتعميم ذلك التنظيم بين سائر مدن المغرب من أقصاه الى أقصاه، وعهد بتنفيذ هذا المشروع الى السيد الحاج عثمان بن الحاج عبد الكريم ابن جلون الفاسي، وتفاصيل المشروع نجدها فى هذه التعليمات الموجهة للمكلف بتسيير البريد المغربى فى شكل ظهير (1) حسني هذا نصه :

«خديمنا الارضى الحاج عثمان بن الحاج عبد الكريم ابن جلون وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد : فقد كان بلغ شريف علمنا : ان بعض الاجانب تشوف لاحداث بوسطة من الجديدة لمراكش، وكان اقتضى نظرنا العالي بالله هدم ما شيدوه، بعكس ما املوه، واطلاق ما قيدوه، فأصدرنا شريف أمرنا لامناء مرسى الجديدة، وأمين مستفادها، وأمناء مستفاد مراكش : بجعلها هنالك نيابة عن المخزن، وبينا لهم كيفية العمل في اجرائها وترتيبها بقصد اختبار امرها، فشرعوا في العمل، واطلعوا علمنا الشريف بصدق نتيجة المؤمل، ثم لما ظهرت مخايل المصلحة فيها، وثمرة نتيجة سد الذرائع فى انشائها، امعنا النظر فيما ينشأ عنه قوة الضبط والاحتياط، من تداخل المتشوف لسلوك ذلك المناط، مع ما توسمناه فيها من المصلحة للرعية، فيما يحاولونه من الامور المتجرية، التى مدار انتاج ربحها على تعجيل المراسلة، والسعي في ذلك من المصالح المرسلة .

فاقتضى نظرنا المعتز بالله: نشرها فى سائر مدن ايالتنا المحروسة السعيدة وجعل ضوابط لها مكينة عتيدة، حتى تكون محكمة الشرط، تامة الضبط، وتكون سائر الاخبار بالايالة المحوطة بالله مرتبطة ببعضها بعضا، وفيح نشر نسيمها طريا غضا، فرتبنا امرها واسسناه، واوضحناه وبيناه، على مقتضى ما يذكر من الفصول والشروط، التي حكم ذلك بها منوط، وطوقناك بذلك العمل وقلدناك امره، وكلفناك طيه ونشره، فلتتمش فيه على الشروط المذكورة

1) ورد في «مجموعة ظهائر علوية»

وهي ان يكون امين الرباط ينهض كل يوم اثنين وخميس : أربعة رقاصيص بما يجتمع لديه من المكاتيب اثنان للحوز: احدهما للصويرة بمكاتب الغرب التى للدار البيضاء وءازمور والجديدة وءاسفى والصويرة، وبما يجده من المكاتيب بالمراسى التى يمر عليها للتى امامها الى الصويرة ، وكذلك ما يجده بالجديدة من مكاتيب آزمور ومكاتيب مراكش التى تتوجه من آزمور مع الرقاص الذى يمر به لمراكش، والاخر لمراكش مارا على الدار البيضاء وآزمور ليحمل من كل منهما ما يجده به من المكاتيب لمراكش، على ان يصل المنهض لكل منهما في اليوم الثامن من يوم نهوضه، وان يكون يرجع غد الوصول بما يجده من المكاتيب .

فالراجع من الصويرة يحمل مكاتيب أسفي والجديدة وأزمور والدار البيضاء، والعدوتين والغرب، وكل بلد يمر به يدفع مكاتبه لامينه، ويحمل ما يجده فيه من المكاتيب لما بعده، الى ان يصل للرباط المنهض منه بمكاتيبه ومكاتيب الغرب التي تتوجه منه على يد امينه، والراجع من مراكش يحمل ما يجده بها من مكاتيب ازمور ومكاتيب الجديدة التي تتوجه لها من ازمور والدار البيضاء، والعدوتين ومكاتيب الغرب التي تتوجه على يد أمين الرباط فيكون خروج الرقاص الذى يرجع من مراكش، والذى يرجع من الصويرة كل يوم جمعه، ويوم ثلاثاء، وان حدث عذر لبعض الرقاقيص منعه من التوجه في ذلك اليوم المعين، كالمرض وشبهه ينهض امين البلد رقاصا غيره للرباط في ذلك اليوم، ويكتب لامين الرباط بالعذر المانع من رجوع المنهض من قبله ليصير له اجرة الذهاب فقط التي هي نصف اجرته المعتادة للذهاب والاياب، وهو يصير اجرة ذهاب المنهض من قبله بدلا .

واثنان للغرب احدهما لتطوان بمكاتيب الحوز التى للعرائش وطنجة وتطوان ، وبمكاتيب القصر التى تتوجه له من العرائش، وبما يجده بالعرائش من مكاتب طنجة وتطوان، وبطنجة من مكاتيب تطوان ، والاخر لفاس بمكاتيب الحوز التي لفاس ومكناس على ان يصل الذى لتطوان في اليوم الخامس من يوم نهوضه، والذى لفاس فى اليوم الرابع ويرجع كل منهما بما يجده من المكاتيب .

فالراجع من تطوان يحمل ما يجده بها من مكاتيب طنجة والعرائش ومكاتيب القصر التى تتوجه له من العرائش ومكاتيب فاس التى تتوجه له من طنجة ، ومكاتيب العدوتين ، ومكاتيب الحوز التي تتوجه من الرباط ، وبما يجده امامه بطنجة او العرائش لما بعدهما، والراجع من فاس يحمل

مكاتيب العدوتين ومكاتيب الحوز التي تتوجه من الرباط على يد امينه، فيكون خروج الذى من تطوان كل يوم ثلاثاء ويوم سبت ، وخروج الذى من فاس كل يوم جمعة ويوم اثنين الا ان حصل عذر لواحد منهم فينهض بدله على نحو ما قرر قبل ليضبط الامر بكل ارض في يوم الدخول والخروج.

تبقى مكاتيب الصويرة ومكاتيب اسفى لمراكش فامين كل منهما يكون ينهض رقاصا بما يجتمع لديه من المكاتيب لمراكش كل يوم اثين ويوم خميس، ويرجع رقاص الصويرة بما يجده من مكاتيبها بمراكش ويرجع رقاص اسفي بمكاتب اسفي كذلك .

وتبقى ايضا مكاتب مكناس لفاس وغيرها ومكاتب فاس للقصر والعرائش وطنجة وتطوان ومكاتب القصر للعرائش وطنجة وتطوان كذلك فاما مكاتب مكناس فامينها ينهض رقاصا بها لامين فاس كل يوم اثنين ويوم خميس فيحوز ما لفاس ويوجه ما لغيرها على يده ويرجع بما يجده مجتمعا بفاس من مكاتيب مكناس ، وامين فاس ينهض رقاصا لطنجة بما يجتمع لديه من المكاتيب كل يوم اثنين ويوم خميس حاملا مكاتيب القصر ومكاتيب العرائش التي تتوجه لها من القصر ومكاتيب طنجة ومكاتيب تطوان التي تتوجه لها من طنجة، ويرجع بما يجده بطنجة من مكاتيب فاس والقصر، وبما يجده بالقصر من مكاتيب فاس، وبهما من مكاتيب مكناس التي تتوجه له من فاس على ان يصل لطنجة في اليوم الخامس ويخرج منها في أوبته لفاس في اليوم السادس الا ان حصل عذر فينهض امين طنجة غيره ويعلم به امين فاس ، فيكون خروج الرقاص من طنجة كل يوم ثلاثاء ويوم سبت ، وامين القصر ينهض رقاصا للعرائش كل يوم اثنين ويوم خميس بما يجتمع لديه من المكاتيب للعرائش ولغيرها مما يتوجه منها ، ويرجع بما يجده بالعرائش من مكاتيب القصر ومكاتيب فاس ومكناس التى تتوجه من القصر لفاس .

والمكلف بمكاتيب فاس الخديم الحاج عثمان بن الحاج عبد الكريم ابن جلون ، وبتطوان والعرائش : امناء مرساهما ، وبطنجة : امين نائب عن امناء مرساها ، وبمكناس والقصر والعدوتين والدار البيضاء وازمور والجديدة واسفى والصويرة ومراكش : امناء مستفاداتها.

وجعل لكل ارض طابعان احدهما يطبع به على المكاتيب، والآخر يطبع به على الشكارة، وكل من الامناء المأمورين بانهاض الرقاصين يتخذ ما يكفيه من شكائر الجلد ، ويصير ثمنها في حساب المكاتيب.

وكل امين انهض رقاصا يوجه بداخل الشكارة تقييدا بما فيها من عدد مكاتيب كل ارض ، وكلما مر الرقاص بارض يجوز امينها مـا بالشكارة من مكاتيب تلك الارض ، ويعلم على مجموعها في ذلك التقييد بوصـل ، ويطبع عليه بطابع المكاتيب ، ويزيد فيها ما يجتمع لديه من المكاتيب لغيرها مما يمر به ذلك الرقاص او يتوجه اليـه ويزيد عددها في التقييـد كذلك الى ان يصل للمحل المنهض اليه ، والتقييد يبقى عند الامين الذى انهض اليه الرقاص حجة على من انهضه ومن مر عليه ، وهو يجعل تقييدا بما يرجع به ذلك الرقاص من المكاتيب ، ويسلك من يمر به في ايابه عمل ما تقدم في ذهابه الى ان يصل فى أوبته للذى انهضه فيحوز ذلك التقييد حجة على من دفع مكاتيب الاياب .

وكل امين يتخذ كناشا ببيان من وجهه بكل تاريخ لكل ارض من مكاتيب ارضه، والمكاتيـب الواردة لديه من ارض اخرى، وبيان واجباتها، كما يقيـد الصائر عليها من الشكائر، واجرة الرقاقيص ونحو ذلك .

واجرة المكاتيب فعلى التي وزنها نصف اوقية فاقل : ثمان موزونات ، وعلى التى زادت على نصف أوقية الى اوقية اربع اواقى، وعلى التى زادت على اوقية الى أوقية ونصف: ست واقى، وهكذا، واجرة الرقاص يحدها أمين كل ارض ممن كلف بانهاض الرقاص على يد كبيرهم والعامل ، ويبرم معهم الامر فيها ، ويحدها معهم في قدر معلـوم لا يزيد ولا يكـون عليهم ضرر فيه ، كما يحد معهم ايام الغيبة لكل ارض ذهابـا وايابا ، وان حصـل له عذر فله اجرة الذهاب فقط التي هي نصف الاجرة المنهض بها . ويشترط عليهـم بمحضر العامل ان لا يحمل احد منهم مكاتيب الغير الخارجة عن الشكارة وطابعها، وان لا يحمل أمانة لاحد ولا لفائة ، ويتوعد من ارتكب منهم شيئا من ذلك بالعقاب، ومن ادعى عند دفع كتابه للامين المكلف بتوجيه المكاتيب ان بداخله اطرة فيقبله منه بشرط كونه مطلق كتاب لادرك فيه، وعند راس ستة اشهر يوجه كل من الامناء المكلفين بذلك حسابها داخلا وصائرا لحضرتنا الشريفة.

فنامرك بالشروع فى ذلك، على مقتضى ما بيناه لك من الطرق والمسالك، وطابعا المكاتب والخنشة الموعود بهمـا يصلانـك صحبته ، وقد امرنا العامل بشد عضدك واتباع سبيل ما قرر لك ومحجته والسلام في 2 جمـدى الاولـى عـــام 1310 »

والى هنا ينتهي هذا الظهير الطويل والمفيد جدا عن النظام الذي وضعه المغرب في هذا الطور لسير «البريد المغربي» ولست ادرى بعد هذا الظهير كيف كان سير تطبيقه ، وعسى ان يكشف المستقبل عن معلومات جديدة فى هذا الباب .

هذا ولا ننسى ان نسجل في آخر قائمة التنظيمات الادارية في هذا الطور: محاولة كان قام بها السلطان الحسن لتنظيم الجباية بالمغرب على طراز عصرى . ذلك أنه أول من حاول سن التنظيم المالى المعروف بالترتيب الذى سنتبسط في الحديث عنه في موضعه الذى هو الطور الثالث.

وقد ابتدأ بتجريبه فى قبيلتي دكالة والشاوية لكنه لاقى معارضة فاوقف العمل به الى فرصة مناسبة، وقد سجل هذه المحاولة محمد بن ابراهيم السباعي في «بستانه» (1) في العبارات التالية :

«وفى تلك المدة وجه جيش تدبيره. القائم في بعض الاحيان مقام مسيره للقبائل الغربية وبعض الحوزية : كدكالة والشاوية، واحدث فيها ترتيبا عجيبا لو بقي على أصله الذى أصله : ابتدأ من ضبط القبائل وما لدى كل بالحساب والتقييد، بحيث تجرى الوظائف والتكاليف على حسب حال كل، بحيث لا يبقى حيف ولا سبيل في ذلك للمزيد، ويحصل به الرفق للرعية، وتنحسم مادة جور العمال بالكلية ، فاستحسن ذلك وان لم يعم، لكنه انخرم ولم يدم ... وقد عين للترتيب المذكور الامين الطالب محمد التازى الرباطى هو والطالب الكاتب السيد محمد الجباص الفاسي» .

---

1) نحو ما فى «البستان» وارد فى «فواصل الجمان» ص 98 .

من قضاة تطوان وعدولها ووثائقها في القرنين العاشر والحادي عشر

لقد ألف الاستاذ محمد داود في تاريخ مدينة تطوان كتابا ضخما يقع في ثمان مجلدات يبلغ عدد صفحاتها نحو أربعة آلاف (1)

وما ظنك بما تحتوي عليه ثمان مجلدات ضخام، من معلومات وفوائد تاريخية عن بلاد المغرب عموما، وخاصة عن هذه المدينة المغربية، وعن ولاتها وحوادثها ورجالها وتراجمهم ومختلف أحوالهم وأخبارهم .

والاستاذ داود، قد كرس من حياته سنين عديدة يبحث وينقب ويسافر لمختلف الجهات، فجمع ما أمكن جمعه من المعلومات والوثائق عن تاريخ هذه المدينة التي هي مسقط رأسه ومقر آبائه وأجداده منذ هجرتهم من الاندلس الى المغرب عقب تقلص ظل الاسلام والعروبة من الفردوس الاسلامي المفقود .

واسم هذا الكتاب «تاريخ تطوان» وبعد أن مهد له مؤلفه ـ حفظه الله ـ بمقدمات، قسمه الى أبواب، كل باب منها يحتوي على فصول.

فالباب الاول فيه فصلان :

الاول تكلم فيه على اسم هذه المدينة وموقعها ووضعيتها من بلاد المغرب وعن الكتب التي ألفت فيها وعن مراجع تاريخها الخ.

والفصل الثاني تكلم فيه على تطوان القديمة، أي قبل الاسلام، وفي القرن الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن وجل القرن التاسع للهجرة .

---

1) قد شرع معهد مولاي الحسن بتطوان، في طبع المجلد الاول من هذا التاريخ، وهو على وشك الانتهاء منه، وسيصدر بعد مدة غير بعيدة في نحو خمسمائة صفحة كبيرة، مزدانا بصور تاريخية عديدة، وفهارس متنوعة مفيدة .

والباب الثانى فيه فصلان أيضا :

الاول فى بناء الاندلسيين لتطوان الحديثة فى أواخر القرن التاسع الهجرى، (أواخر القرن الخامس عشر للميلاد) .

والفصل الثانى فى ولاتها وحوادثها من تاريخ بنائها الحديث الى آخر القرن التاسع للهجرة .

أما الباب الثالث ففيه خمسة فصول :

الاول فى ولاة تطوان وحوادثها فى القرن العاشر .

الثانى فى قضاتها وعدولها ووثائقها كذلك .

الثالث فى ترجم رجالها كذلك .

الرابع فى مشاهير الزائرين لها كذلك .

الخامس فى أحوالها السياسية والعلمية والادبية والاجتماعية كذلك .

ثم عقد الباب الربع عن تطون فى القرن الحادي عشر وجعل فيه ستة فصول تشبه فصول الباب الثالث ثم عقد ما بعد ذلك من الابواب على هذا المنوال .

وقد رأينا ـ اعتناء منا بمدينة تطوان التى تسمى هذه المجلة باسمها ـ أن نتحف قراءنا من هذا التاريخ بالفصلين اللذين عقدهما الاستاذ داود للكلام على قضاة هذه المدينة فى القرنين العاشر والحادى عشر .

أولا ـ لان فيهما من المعلومات ما لم نقف عليه فى غير هذا الكتاب

ثانيا ـ لان فيهما من نصوص الوثائق الشرعية الرسمية ما يساعد العلماء والباحثين فى الشؤون التاريخية والاجتماعية بالمغرب، الامر الذى كان من أهم البواعث لنا على اصدار هذه المجلة .

ثالثا ـ لعرض نموذج من الاسلوب الذى سلكه الاستاذ داود فى تأليف تاريخه الذى الى الآن لا نعرف له مثيلا فى بلاد المغرب .

رابعا ـ رجاء أن تتحرك الهمم ويثور شعور علماء وأدباء بقية بلاد المغرب، فيؤلف النشيطون الناهضون منهم عن مدنهم ونواحيهم وقبائلهم ورجالهم كتبا عديدة، ما بين مطولة ومختصرة فتروج بذلك سوق العلم والادب والتاريخ، ويجد فيه شبابنا المسلم العربى المغربى ما هو متشوف اليه من معرفة ماضى أمته ووطنه المجيد .

وان مجلة «تطوان» ليسرها ان ترى لكل مدينة وناحية من مدن المغرب ونواحيه، تاريخا مسهبا كتاريخ الاستاذ داود لمدينة تطوان، وهي مستعدة لنشر ما يصلها من أبحاث محققة عن تواريخ بقية مدن وطننا المغربي العزيز.

قال الاستاذ داود في كتابه تاريخ تطوان :

قضاة تطوان وعدولها في القرن العاشر

حول الحكام وانظمة الحكم في مدن المغرب

كانت العادة في عدد من مدن المغرب ـ ومنها تطوان ـ أن سلطة الحكم فيها موزعة بين ثلاثة حكام هم :

الباشا ، أو القائد

القاضي

المحتسب

يضاف اليهم لمباشرة بعض الاعمال الرسمية الحكومية، موظفون اداريون آخرون لم تكن لهم سلطة الحكم، مثل الامين، والناظر، وابي المواريث، ووكيل الغياب الخ .

أما الباشا او القائد ـ وكان لكل مدينة باشا او قائد، وعامة الناس يقولون القايد، ويجمعونه على قياد ـ فهو الحاكم الذى يحكم في القضايا المدنية اى الخصومات العادية، وفي الاعتداءات البسيطة، وغير ذلك من الامور التى لا ينظر فيها القضاة والمحتسبون واذا عرضت له حوادث مهمة او جنايات كبرى فانه يرفعها أو يرجع في أمرها، اما للسلطان نفسه واما لوزيره او لمن يقوم مقامهما في مركز الدولة والنظر في شؤونها .

وكان الحكام يستندون فيما يصدرونه من احكام، على الاعراف والعادات التقاليد التى لا تنافي اصول الاسلام والاحكام الشرعية .

ولم تكن ـ فيما عرفنا ـ لدى أولئك الحكام، قوانين رسمية عامة مدونة يرجعون اليها ويحكمون بمقتضاها ويقفون عندها، وان كان هناك شيء من ذلك فهو نادر ومحدود، فلذلك كان الحكام ينظرون ويجتهدون ويحكمون حسبما يظهر لهم، فكانت احكامهم تختلف باختلاف شخصية الحاكم وعلمه ونباهته ونزاهته او ضد ذلك .

وهذا النوع من الحكم هو الذى كان شائعا فى مختلف العصور الماضية حتى فى عهد كثير من الدول الراقية فى الامم المتحضرة، وهو نظام له حسناته وله سيئاته، وجل أهل عصرنا يرون ان سيئاته اكثر من حسناته، اما وجهة نظر اصحاب هذا النظام والمبررين له او المؤيدين له والمفضلين له على غيره، فهى انه ينظر فى القضايا والمشاكل بمجرد حدوثها ورفعها للحاكم، فلا يتوقف البت فيها الا على اجراءات محلية لا تتعدى فى الغالب سماع الحجج او كلام الشهود ان كانت القضية تستدعى ذلك، والا وقع الحكم والتنفيذ فى آن واحد دون تحمل اتعاب ومصاريف، ولا اتخاذ اجراءات طويلة وتأجيلات عريضة يضيع معها من الوقت والجهود والاموال والمصالح الشيء الكثير، بل ان الحقائق والعدالة والحقوق قد تضيع مع تلك الاجراءات التى كثير ما تدعو للحبس الاحتياطى لمدة طويلة ثم يكشف الحال ان الاشخاص المحبوسين كانوا مظلومين او انهم كانوا ضحية خطأ او انتقام الخ.

وكان اهل العلم والمعرفة من أصحاب هذا الرأى يرون ان الشرط الاساسى لصلاح هذا النوع من الحكم، هو عدم اسناده الا لاهل العلم والمعرفة والنزاهة التامة ـ والامة لا تفقد ابدا من تتوفر فيه هذه الصفات ـ والا كان الظلم والعدوان وتضييع الحقوق، وخصوصا حقوق الضعفاء والمساكين .

ولا يخفى ان هذا النوع من الحكم، كان اصحاب الاستبداد وانصاره يجدون فيه بغيتهم سواء كانوا من أهل العدل والانصاف، او من اهل الظلم والطغيان، واذا استثنينا بعض الاقطار الواقعة تحت السيطرة الاستبدادية الفردية او الجماعية فان هذا النظام بالرغم من كل ما قيل فيه وما برر به، لم يبق له الآن وجود الا لدى الامم المتأخرة، والشعوب التى تفضل الفوضى على النظام، او الدول الضعيفة التى تعجز عن التنظيم وحماية القوانين، فالشعوب المتحضرة الراقية المجارية لانظمة الحكم العصرى كلها نظمت محاكمها وحددت قوانينها وصانت الحقوق العامة والخاصة لافرادها وهيآتها، واصبح كل فرد منها يعرف ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات، ويعلم انه اذا لم يخالف القوانين المشروعة ولم يعتد على احد، فانه لا سبيل عليه، لا للافراد ولا للجماعات، بل ولا حتى للحكومة نفسها، لان القانون العام يحميه من كل اعتداء .

والرأى والله اعلم، أنه ينبغى ان يكون فى البلاد نوعان من المحاكم، الاول محاكم لها قوانين مدونة محكمة جامعة للاحكام التى لا تنافى الشريعة المطهرة السمحاء، ولها من الانظمة والاجراءات المناسبة للنهضة الحديثة ما يصون

الحقوق لجميع الطبقات، وينصف المظلومين من الظالمين، كما هو الشأن فـي جميع انحاء العالم المتحضر .

الثانى محاكم أولية تنظر فى القضايا البسيطـة المستعجلة، وتبت فيها دون احتياج للاجراءات المطولة المضيعة للوقت والمال بغير حق، وبذلك يوخـذ احسن ما فى النظامين .

ومن الغريب ان ذلك النوع القديم من الحكـم الذى كـان مستعملا فى العصور الوسطى، هو الذى ما زال العمل به جاريا فى جل الجهات من وطننا المغربى العزيز، والله اعلم بالاسباب الداعية لذلك (1) .

واما القاضى فهو الذى يحكم فى القضايا الشرعية، فينظر فى المسائل الشخصية من نكاح وطلاق ونحوهما وفى البيوعات وسائر العقود والالتزامات وجميع المعاملات المالية وغير ذلك مـن ابـواب الفقه علـى مقتضى الشريعة الاسلامية، وعلى مذهب الامام مالك بالخصوص وكان الشان فى القاضى ان لا يكون الا من العلماء الذين درسوا العلوم الاسلامية والفقه المالكـى دراسـة واسعة، واشتغلوا بمسائل القضاء والفتوى ومارسوا خطة العدالة الخ .

ولقب القاضى لم يكن يوصف به الا القاضى الشرعى لانه لم يكن هناك قـاض سواه .

وأمـا المحتسب فهو الذى كان ينظر فى الاسواق واسعارها ومسائـل اصحابها وما يتعلق بذلك من المصالح البلدية، وينظر فى الحرف والصنائـع واصحابها ومنتوجاتهم، ويحكم فى القضايا التى ترفع اليه من هذا القبيل .

اما الحكام والسياسيون بتطوان فى هذا القرن ــ اعنى القرن العاشر للهجرة وهم الولاة والمدنيـون، فقد أثبتنا فيما تقدم ــ ما عرفنا من أسمائهم واخبارهم، واما محتسبوها فيه فلم نقف على اى شىء يتعلق بهم، واما القضاة أى الحكام الشرعيـون، فاننا سنذكـر فى هذا الفصل ما عثرنا عليـه مـن اخبارهم وان كان الذى وصلنا من ذلك قليلا جدا. فقاضيان اثنان فقط همـا اللذان استطعت ان اعرف اسميهما من بين اسماء القضاة الذين تولوا الحكم بتطوان فى القرن العاشر، وهمـا القاضـى محمـد الرزينى والقاضى محمد

1) ترك هذا الفصل ــ ومنه هـذه الفقـرات ــ كما كتـب فى عهد الحمايتين، الفرنسية والاسبانية بالمغرب، وهو يصور الحالة التى كانت فى ذلك العهد .

الكراسي. اما غيرهما من القضاة، وقطعا كان بتطوان قضاة غيرهما في هذا القرن ـ فلم نعرف حتى اسماءهم فضلا عن اخبارهم، وذلك لطول العهد واضمحلال رسوم ذلك التاريخ .

وكذلك اسماء عدول هذا القرن فاني لم اقف على شيء منها كما انى بحثت كثيرا عما عسى ان يوجد من وثائق ورسوم شرعية كتبت بتطوان في هذا القرن لاثبتها هنا كنماذج، فلم نعثر على شيء من ذلك ايضا .

القاضي محمد الرزيني 934 هـ

القاضي ابو عبد الله محمد الرزيني «نسبة الى «بني رزين» (1) هو اقدم من عثرت على اسمه من بين قضاة تطوان. وقد ذكره ابن القاضي في كتابه «درة الحجال» ونص كلامه (2) «محمد الرزيني ـ ابو عبد الله القاضي بتطوان. كان فقيها نوازليا ـ توفي بعد 930»

وفي لقطة الفرائد (3) لابن القاضي المذكور، انه : «في سنة 934 توفي القاضي بتطاون محمد الرزيني الاندلسي»

القاضي محمد الكراسي 964

كان الفقيه القاضي ابو القاسم محمد بن عبد الرحمن الكراسي قاضيا بتطوان في النصف الثاني من القرن العاشر، وقد ترجم له معاصره ابن عسكر في كتابه «دوحة الناشر»(4) وذكر انه تولى القضاء بتطوان وبقي على خطته الى ان توفي في حدود سنة 964. وقد ذكره باسم (ابي عبد الله محمد) ووجدت في تقييد قديم ان اسمه ابو القاسم الكراسي البكري البقيوي، وباسم

---

1) بني رزين في عهدنا هذا، اسم لاحدى قبائل غمارة الجبلية الواقعة في الجنوب الشرقي لتطوان. وتبعد عنها بنحو مائة واربعين كيلومترا وقد كانت لبني رزين في بلاد الاندلس مكانة وشهرة وحكم والدوام لله .

2) درة الحجال، الجزء الاول ص 227. في الترجمة التي رقمها 615 من طبعة الرباط سنة 1934 .

3) لقطة الفرائد، مخطوط مختصر وقفت عليه في الخزانة الاحمدية بفاس لدى صديقنا الفقيه المؤرخ السيد عبد السلام ابن سودة حفظه الله .

4) دوحة الناشر ص 17 طبع فاس عام 1309 م

ابى القاسم ذكر ايضا فى رسوم كتبت بتطوان، وقـد اثبتهـا الزياتـى فى نوازل الحجر من نوازله المسماة «الجواهر المختارة» (1)

ومن المعلوم ان من اسمه محمد يكنى بابى عبد الله وبأبـى القـاسم ، فيظهر ان القاضى الكراسى كان يعرف بكنيته ويدعي بها اكثر من اسمه الذى هو محمد. وان شئت فانظر ترجمة هذا القاضى واوصافه ومنظومة تاريخية له فى فصل التراجم من هذا البات، وهو الفصل الثالث الموالى لهذا الفصل.

الفصـل الثـانـى

مـن البـاب الـرابـع

من قضـاة تطـوان وعدولها فى القرن الحادى عشـر

لم أقف على مستندات قديمة يمكن أن توخذ منها أسماء جميع الاشخاص الذين تولوا قضاء تطوان فى القرن الحادى عشر، وانمـا وقفـت على اللائحة التي أثبتها أستاذنا الرهوني في تاريخه، وهي محتوية على أسماء بعض القضاة والتواريخ التى كانوا متولين فيها، أما ما عدا ذلك من المعلومـات عنهـم وعـن عدولهم وأخبارهم فلم يذكر من ذلك شيئا. وأستاذنا الرهوني رحمه الله كان عمدة في الموضوع، لانه لبث متوليا لوزارة العدلية ورئاسـة القضـاة بتطوان وبقية الشمال المغربـى اكثر من عشريـن سنة، ولا شـك أنه انما استخلص لائحته من الرسوم القديمة التى اطلع عليها، والمعلومات الصحيحة التـى عثـر عليها. وسانقل هنا مضمن ما في اللائحة المذكـورة وإن كانت غيـر مستوفية لجميع قضاة تطوان فى هذا القرن، وقد أزيد عليها ما أعثر عليـه فـى غيرها من المعلومات المتصلة بالموضوع وان كان ذلك ضئيلا، والسبب في ذلك هو طول العهد واضمحلال كثير من المستندات ويا للاسف.

ولقد قلنا سابقا إن أبا عبد الله الكراسي بقي متوليا لقضـاء تطـوان الى أن توفى قاضيا بها عام 964 ولكننا لم ندر من هم الذين تولوا قضاء هذه المدينة في الربع الاخير من القرن العاشر، أما الربع الاول من القرن الحادى عشر ،

---

1) هـو مجلد كبيـر مخطوط توجد منه نسخة جيدة فى خزانتنا الداوديـة بتطوان .

فلم نعرف من أسماء ولاته الشرعيين الا واحدا هو الفقيه محمد بن محمد يعقوب «نائب القاضي» كما سيأتي، أما القضــاة فأقدم من عثرنا علـى اسمه منهم فى هذا القرن، هو عيسى الخشين، ودونك ما عرفناه فى هذا الموضوع .

نائب القاضــي محمد بن محمد يعقـوب عام 1012

وقفت فى نوازل الحجر من نوازل الزياتى المسمـاة بالجواهـر المختارة على رسم مؤرخ بأواسط ذى الحجة عام 1012، وفيه أن الفقيه الاجل محمد بن محمد بن يعقوب كان فى ذلك التاريخ نائب القاضى بالثغر التطواني الخ.

ووقفت أيضا على أصل رسم مؤرخ بثالث عشر رمضان سنة 1025 وفيه أن محمد بن محمد يعقوب كان نائبا عن قاضي تطوان في ذلك التاريخ أيضا، الا أنه ذكر فى هذا الرسم باسم يعقوب، لا ابن يعقوب أى بدون لفظة ابن ولعله هـو الصواب والله أعلم .

القاضــى عيسى الخشيــن عام 1032

أخبرنى بعض الثقات انه وقف على رسم كتب عام 1032 وفيه أن قاضى تطوان ونواحيها في ذلك التاريخ، هو عيسى الخشين.

ولا أعرف عن هذا القاضي أكثر من ذلك.

القاضي محمد بن سعيد بن قريش عـام 1037

ذكر شيخنا الرهوني أن الشخص الذى كان قاضيا بتطـوان في شهـر ذى الحجة من سنة 1037، هو القاضي محمد بن سعيد بن قريش .

«قلت» ولعـل هذا هـو أول من تولى القضاء بتطوان من عائلة بن قريش وقد تولى مرة أخرى عام 1040 كما سيأتي. وهذا القاضي هو محمد بن سعيد ابن أحمد، وسيأتي لنا اسم قاض آخـر يشبهـه في الاسم والنسـب ولكنـه غيره اذ هو محمد بن سعيد بن قاسم...

القاضي موسى الخطيـب عـام 1038

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه السيد موسى الخطيـب، كـان قاضيا بتطوان عام 1038 ولم نعرف عنه أكثر من ذلك .

القاضي محمد بن سعيد بن قريش عام 1040

ذكر أستاذنا الرهوني أن محمد بن سعيد بن قريش كان قاضيا بتطوان في ربيع الثاني سنة 1040 وهو الذى سبق أنه كان قاضيا بها عام 1037 .

القاضي احمد بن محمد طانية عام 1040

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه أحمد طانية كان قاضيا بتطوان سنة 1040

«قلت» وفى كتاب «الاعلام بمن غبر، فى أهل القرن الحادى عشر» (1) أنه «فى سنة 1063 توفى الفقيه القاضى أبو العباس أحمد طانية وكان فقيها فاضلا أخذ عن جماعة من أهل عصره كالشيخ أبى عبد الله محمد العربى بن يوسف الفاسي وغيره وكان قاضيا ببلده تطاون».

وفي ابتهاج القلوب، أن القاضي أحمد طانية هذا كان من تلاميذ سيدى العربي الفاسى وأنه توفى عام 1063

وذكر أستاذنا الرهوني أنه كان قاضيا بتطوان سنة 1041 وما بعدها.

القاضي عبد المجيد بن طريقة عام 1053

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه عبد المجيد بن طريقة «بالتصغير» هو الذى كان قاضيا بتطوان سنة 1053. وسيأتي لنا أنه كان متوليا لقضائها أيضا عام 1073 .

القاضي محمد بن طريقة عام 1063

وجدت فى آخر نسخة عدة رسوم ما نصه : وأشهد الفقيه الاجل العالم العلامة البركة الافضل قاضي مدينة تطوان ونواحيها وخطيب جامعها الاعظم وهو محمد بن طريقة وفقه الله بمنه الخ. وتاريخ هذه النسخة هو 26 شعبان عام 1063.

القاضي عبد القادر بن احمد طانية عام 1071

ذكر أستاذنا الرهوني أن الفقيه عبد القادر بن احمد طانية كان قاضيا بتطوان سنة 1071، ولم نعرف عنه اكثر من ذلك فى فى هذا العهد. وسيأتى انه كان متوليا أيضا عام 1080 .

1) مؤلف كتاب «الاعلام بمن غبر» هو الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي المتوفي سنة 1131. وتوجد من كتابه هذا نسخة غير كاملة في الخزانة السودية بفاس، وقد وقفت عليها عام 1369.

القاضي عبد المجيد بن طريقة عــام 1073

في لائحة أستاذنا الرهوني أن الفقيه عبد المجيــد بن طريقة كان أيضــا، قاضيا بتطوان سنة 1073. وهو الذى سبق أنه كان متوليا عام 1053 .

القاضى عبد الوهاب الفاسي عام 1075

ذكر أستاذنا الرهونى أن الفقيه أبا محمد عبد الوهاب الفاسي، تولى قضاء تطوان فى حدود سنة 1075 وأنه رجع الى فاس وتوفي بها سنة 1078 .

«قلت» وعبد الوهاب هذا هو الفقيــه العلامــة المشــارك عبد الــوهاب ابن الشيخ الامام سيدى العربى بن يوسف الفاسي، وقد ترجم لــه اليفرانــى فــى الصفوة (1)، وذكر انه ولي القضاء بتطوان مدة ولم يذكر في أى سنــة كانــت تلك الولاية، كما ترجم له أيضا سيدى محمد بن جعفر الكتاني في السلــوة (2) وذكر أنه تولى القضاء بتطوان وتوفــى بفــاس في محرم سنة 1079. ودفن في ضريح جده الشيخ أبي المحاسن. وترجم له أيضا الشيخ ابن عجيبة فــي أزهار الــبــســتــان .

القــاضى عبد القــادر طانية عــام 1080

ذكر لي بعض الثقات، أن الفقيه عبد القادر طانية هو الــذى كــان متوليا قضاء تطوان عام 1080 وذكر أبو محمد سكيرج أنه تولى قضاء تطوان، الا أنه لم يذكر تاريخ ولايته، ولم أقف على أى رسم مسجل أو مؤدى على هذا القاضي.

القاضي محمد بن سعيد بن قريش عام 1079 ــ 1093

ذكر أستاذنــا الرهونــي أن الذى كــان متوليا قضاء تطوان عام 1080 و 1095 و 1100، هو الفقيه محمد بن سعيد بن قريش (3) ولــم يذكــر أن غيــره تولى قضاءها أثناء تلك المدة.

---

1) الصفوة ص 169 طبعة فاس.
2) سلوة الانفاس م 2 ص 324 طبع فاس .
3) ان شئت فانظر ترجمته فى الفصل الثالــث مــن الباب الرابع من هذا الكتاب .

«قلت» كان القاضي المذكور متوليا قضاء تطوان عام 1078 أيضا وقد وقفت على رسم كتب في 22 شوال سنة 1078. وقد جاء فيه ما نصه : «لما استقل وثبت لدى الفقيه الاجل الافضل الاكمل القاضي بمدينة تطاون وعمالتها وهو محمد بن سعيد بن قريش ... الخ.

فان ثبت أن القاضي طانية كان متوليا قضاء تطوان عام 1080 فان ابن قريش هذا يكون قد أخر عن القضاء مدة ثم أعيد اليه، والله أعلم.

وقد وقفت أيضا على رسم مسجل عليه عام 1093 ووقفت على رسمين كتب هذا القاضي تحت أحدهما ما نصه : الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أعلم بثبوت الرسمين أعلاه وبحوله عبد الله تعلى سبحانه محمد بن سعيد بن قريش وفقه الله بمنه.

ومحمد بن سعيد هذا هو غير محمد بن سعيد الذى كان قاضيا عام 1037 وعام 1040، بل هو حفيد اخيه، لان ذاك هو محمد بن سعيد بن احمد ، وهذا محمد بن سعيد بن قاسم بن سعيد بن احمد. وذكر أستاذنا الرهونى أن هذا هو الذى نقل الشريف العلمي كثيرا من أجوبته وفتاويه فى نوازله المشهورة وقد نقل الرهونى محشى الزرقاني بعض ذلك في حاشيته. (1)

تتمة

القاضي علي الزياتي ؟

ذكر لي صديقنا الفقيه المطلع السيد محمد العابد بن عبد الله الفاسي «بفاس» أن الفقيه أبا الحسن عليا الزياتى كان من تلاميذ الشيخ سيدى العربى ابن يوسف الفاسى، وأنه تولى قضاء تطوان ...

ولا أدرى في أى تاريخ كانت ولايته. وسيأتى لنا أن الفقيه الزياتى المذكور كان من العدول بتطوان فى أواسط هذا القرن ـ أعني الحادى عشر والله أعلم .

«تلخيص» فملخص هذا الفصل، أننا عرفنا من أسماء الولاة الشرعيين بتطوان فى القرن الحادى عشر، أحد عشر شخصا، هم :

1 ـ محمد يعقوب .
2 ـ عيسى الخشين .
3 ـ محمد بن سعيد بن احمد بن قريش .

---

1) حاشية الرهونى على الزرقاني ج 7 ص 108 .

4 ـ موسى الخطيب .
5 ـ احمـد طانيـة
6 ـ عبد المجيد بن طريقة .
7 ـ محمد بـن طريقـة .
8 ـ عبد القادر طانية .
9 ـ عبد الوهاب الفاسي .
10 ـ محمد بن سعيد بن قاسم بن قريش .
11 ـ علي الزياتي .

من عدول تطوان في القـرن الحـادي عشر

أما عدول تطوان في هذا القرن ـ الحادي عشر ـ فلم أعـرف منهم الا عددا قليلا، ودونك من عرفت أسماءهم مع دعائهـم والسنوات التي كتبت فيها شهاداتهم التي وقفت بنفسي على أصولها أو على نسخ صحيحة منها :

محمد بن موسى المصيمـدي 1019 .
عيسى بن يوسف الخشين 1019 .
محمد بن مسعود الكتامي وفقه الله 1020 ـ 1025 ـ 1036 ـ 1042 .
علي بن محمد الزياتي وفقه الله 1020، 26، 33، 36، 41، 42، 50، 58، 1055
محمد بن يوسف بن طريقة 1026 .
علي بن محمد العاقل 1028 .
علي العربـي وفقـه الله 1028 .
أحمد طانيـة 1037 .
أحمد اغـزان 1037 .
محمد بن احمـد بوسجادة 1037 ـ 1040 .
محمد الدغمومـي 1040 .
أحمد البـزي 1046 .
أبو القاسم جويد وفقه الله 1048 .
يوسف بن محمد الرثوث وفقه الله 1050 ، 1078 ، 1079 .
محمد العاقل وفقه الله 1050 ، 1055 .
بلقاسم الجعباق وفقـه الله 1052 .
محمد الفتـوح وفقـه الله 1052 .
احمد الشـارب 1055 .

قاسم الشيبو 1055 .
محمد بن علي عاذل وفقه الله 1055 .
محمد البطوئي (قبـل) 1055 .
محمد البكري لطف الله به 1058 .
مسعود أجانه وفقه الله 1068 .
علي بن محمد الشودري (قبـل) 1073 .
أحمد بن علي حمامو (قبل) 1073 .
عبد الله بن أحمد الخطيب وفقه الله 1078 ، 79 ، 89 .
محمد بن احمد الديماني وفقه الله بمنه 1080 ، 89 ، 93 .
محمد بن عبد الله الخطيب وفقه الله 1080 ، 1089
محمد بن عبد السلام بوسجادة وفقه الله بمنه 1080 ، 1093 .
أحمد بن محمد بركة وفقه الله ولطف به 1088 ، 89 ، 92 .
موسى دغداغ (1) وفقه الله تعلى بمنه 1088 ، 89 ، 91 .
محمد بن عبد القادر الحدادي وفقه الله تعلى بمنـه 1088 ، 1089 ، 1091 .
احمد المنصـوري 1089 .
محمد بن عبد المجيد بوسجادة وفقه الله بمنه 1089 .
عيسى بن علي بريطل وفقه الله بمنه 1091 .
علي بن محمد القر 1092 .
موسى بن محمد البريفي 1097 .
علي حماد 1100 .
بلقاسم بن علي ابريل وفقه الله بمنه 1100 .

نماذج من وثائق تطوان ونوازلها في القرن الحادي عشر

تثبت فيما يلي بعض الوثائق الشرعية، والنـوازل الفقهيـة كنمـاذج لما كان يجري بتطوان في ذلك العهد من نوازل، ويكتب فيها من وثائق، ولا يخفى على اللبيب ما في ذلك من مختلف الفوائد التاريخيـة وغيرهـا. فمثـلا نعرف كيف كان أسلوب الكتابة في ذلك العهد، كما نعـرف أسماء عائلات وأشخاص وأماكن وعوائد واصطلاحات وأثمان أشياء وتواريخها الخ.

---

1) بعضهم يكتب اسمه ضغضاغ بضادين بدل دالين.

وسأذيل بعض هذه الوثائق بملاحظات تبين ما فيها من مبهم او مجهول وقد تفيد الذين لا يعرفون بعض الاسماء أو المسميات والعوائد والاصطلاحات ودونك نصوص تلك الوثائق :

1 وثيقة قبض وابراء سنة 1019

فمن ذلك وثيقة قبض وابراء كتبت عام تسعة عشر والف ونصها :

الحمد لله بمعاينة شاهديه قبض المرابط الحسن الحايك من يد المشترى فى غير هذا عبد الله طلوق من واجب المحجورتين عائشة وحليمة المذكورتين فى غير هذا أربعة وأربعين أوقية غير ربع الاوقية ليصيره لهما فى طرازهما بالعيون المتهدم سقفه وإصلاحه تطوع بذلك لله وفيه وبرئت ذمة الدافع المذكور من هذا المدفوع المذكور كون إصلاح ما ذكر صلاحا بهما ولهما شهد به عليهما بحال كمال الاشهاد وعرفهما وفى أواخر جمدى الاخيرة عام تسعة عشر والف.

محمد بن موسى المصيمدى

وهذا الرسم يمكننا أن نستفيد منه أن قسما من حومة العيون وما اتصل بها، كان مبنيا قبل القرن الحادى عشر بكثير، حتى إن سقوف بعض أماكنه قد تهدمت، لان الشأن أن انهدام الاماكن لا يكون الا بعد بنائها بمدة طويلة .

2 وثيقة وكالة سنة 1032

ومن ذلك وثيقة وكالة كتبت عام 1032 وهذا نصها :

الحمد لله عن إذن الفقيه الاجل قاضى تطاوين ونواحيها وهو عيسى الخشين أعزه الله تعلى وحرسها وكلت المصونة عائشة بنت رحال محمد وأختها حليمة أحمد ابن الطالب خليفة لينوب عنهما فى المحاكمة والمخاصمة والانكار دون الاقرار وعلى سائر فصول الخصام كلها وعلى قبض ما يجب لهما قبضه من المال واليمين وعلى الابراء بعد القبض توكيلا عرفا قدره شهد على إشهاد من ذكر وفقه الله بما فيه عنه وهو حفظه الله بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهدته الموكلتان المذكورتان بما فيه عنهما وهما بحال الصحة والطوع والجواز وعرف بهما وفي وائل رجب عام اثنين وثلاثين والف .

3 وثيقة شراء طراز ومصرية بحومة العيون سنة 1032

ومن ذلك وثيقة شراء طراز ومصرية بحومة العيون عام 1032 ونصها :

الحمد لله اشترى المكرم الحسن بن سعيد الجطاطى به دعى التطوانى من البائع له المكرم احمد ابن الفقيه خليفة السعيدى البائع عن عائشة وحليمة ابنتى الحاج محمد رحال المذكورتين أعلاه عن إذن من يجب جميع الطراز الكائن بالعيون من تطاوين المتصل من القبلة بدار الحسين المنصور ومن الشرق بالزنقة ومن الجوف الزقاق الخارج للطرنكات ومن الغرب بدار رحال مع جميع المصرية التي عليه بمنافع ذلك ومرافقه وكافة حرمه وبحق لذلك معلوم واليه منسوب اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لهما ثلاثمائة أوقية سكة تاريخه قبضه البائع المذكور معاينة في ذهب ودراهم وصار بيده الى أن يبرأ منه بالموجب وأبرأه منه إبراء تاما وتملك المشترى المذكور مشتراه المذكور تملكا تاما وحل فيه محل ذى المال فى ماله على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب ثم طولع بذلك الفقيه الاجل المدرس . . . . (I) بتطاوين وهو عيسى الخشين أعزه الله وحرسها فوافق عليه . . . . . . (I) على المحجورتين المذكورتين لما ر،ا لهما فيه من الصلاح والسداد . . . . . . (I) ثبت لديه وفقه الله بأنهما بحال حاجة وفاقة وأن المبيع . . . . (I) يخاف عليه السقوط ولا مال لهما يبتني به وأنه أولى ما يباع عليهما . . . . . . (I) وتسويقه والنداء عليه بباب الجامع الاعظم من تطاوين مدة طويلة نحو شهر الى أن وقف على آخر زائد فيه وهو مشتريه المذكور ولم يلف زائد عليه وأن أقصى ما يساويه الثمن المذكور وانه وجب لهما بالارث من أبيهما شهد على من ذكر دامت كرامته بما ذكر عنه فيه وهو بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهده من عداه بذلك وهما بحال كمال وعرفهما في الثالث عشر من شهر الله رجب عام اثنين وثلاثين وألف فلان ... وفلان ... (2).

يلاحظ على هذا الرسم أن كاتبه يسمي جهة الجنوب بالقبلة، وجهة الشمال بالجوف، وذلك اصطلاح قديم، اذ كانوا يسمون الجهات الاربع، بالشرق

I) هنا كلمات انمحت بالرطوبة.

2) هنا علامتا العدلين .

والغرب والجـوف والقبلـة، ويقصدون بالجوف الشمال، وبالقبلة الجنوب، ومن المعلوم أن قبلة تطوان بل جل بلاد المغرب تقع فـي جهـة الجنـوب بل الجنوب الـشـرقـي .

أما جهة الشمال بالنسبة للمغرب فتقع فيها بلاد الافرنج (أوربـا) التي كانت أراضيها مجهولة لدى جل أهـل المغرب، فلعلهم سموها بالجوف تشبيها لها بما هو مجهول مما وراء الجوف مما في باطن الانسان .

4 وثيقـة بيـع الملكيـن المذكوريـن سنـة 1037

ومن ذلك وثيقة بيع الملكين المذكورين عام 1037 ونصها :

الحمد لله اشترى التاجر محمد بن محمد قمر به دعى الاندلسي من البائع له المكرم الحسن بن سعيد الجطاطى المذكور اعلاه جميع الطراز المذكور والمحدود أعلاه مع جميـع المصريـة المحتملـة على الطـراز المذكور بجميـع منافعهما معا ومرافقهما وكافة حرمهما اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لهما معا مائتا اوقية ثنتان وعشرون اوقية دراهم سكة تاريخه قبضه البائع المذكور من المشترى المذكور معاينة في دراهم وأبرأ من ذلك كله المشترى فبرىء وتملك المشترى المذكور مشتراه المذكور تملكا صحيحا تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى كما يجب عرفا قدره شهد به عليهما بحال كماله وعرفهما فى رمضان المعظم عام سبعة وثلاثين والف . . . احمد طائية

مما يلاحظ فى هذا الرسم أن العملة التى وقع البيـع بها هـى الاوقية. ومن المعلوم أن المعاملة في ذلك العهد وما بعده الى أوائل قرننـا هـذا، كانت على أساس المثقال. فالمثقال كان هو الوحـدة الاصليـة، ويحتـوى علـى عشر أواق، والاوقية فيها أربع موزونات، والموزونة فيها أربعة وعشرون فلسا.

5 وثيقـة شراء حانـوت بسوق البقاليـن سنة 1033

ومن ذلك رسم شراء حانوت بسوق البقالين كتب عام 1033 وهذا نصه :

«الحمد لله اشترى الطالب ابراهيم بـن الفقيـه سعيـد الـردام به دعي التطاونى نائبا فى الشراء ودفع الثمن عن جانب حبس جامع سيدى على الجعيدى من قبل الوصية التى أوصى بها المرحوم بكرم الله تعلى محمد بن احمد الردام للجانب المذكور من البائعة له المصونة فاطمة بنت علي الطنانُ بـه دعي جميـع

الحانوت المعروفة لها بسوق البقالين داخل تطاوين المخرجة من دارها عن يمين الخارج من الدار المذكورة وتتصل بحانوت الزعيم بمنافعها ومرافقها وكافة حرمها اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لها ثلاثمائة اوقية وخمس وستون اوقية سكة تاريخه قبضته البائعة المذكورة بعضه معاينة وبعضه بالاعتراف وأبرأت منه ذمة المشترى إبراء تاما وتملك المشترى المذكور للجانب المذكور مشتراه المذكور تملكا تاما وحل فيه محل ذى المال فى ماله على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب وبأن أشهد المشترى المذكور أن سبعة وعشرين مثقالا من الثمن المذكور دفعها من ثمن الغرسة التى ابتاعها المعلم أحمد بن عمر من ورثة المعلم أحمد زيتون. شهد عليهما بذلك وهما بحال كماله وعرفهما فى أواخر جمدى الاولى عام ثلاثة وثلاثين والف سنة ألحق فيه مثقالا صح به علي بن محمد الزياتي وفقه الله ومحمد الكتامي وفقه الله بمنه .

ورد فى هذا الرسم ذكر سوق البقالين، ولا يوجد الآن بتطوان سوق بهذا الاسم، ولا نعرف أين كان محله.

ويلاحظ أن الكاتب سمى البستان السقوى بالغرسة ـ بكسر الغين المعجمة وسكون الراء وفتح السين، وهو اصطلاح قديم كان وما زال مستعملا بتطوان ونواحيها. أما فى فاس ومراكش وغيرهما من بلاد الجنوب المغربى فيقولون ـ العرصة ـ بفتح العين المهملة وفتح الصاد. وفي سلا ونواحيها يسمون ـ الغرسة ـ او ـ العرصة ـ بالسانية. فهو اصطلاح، ولا مشاحاة فى الاصطلاح كما يقول العلماء .

6 تحبيس طراز بحومة العيون سنة 1042

ومن ذلك رسم تحبيس طراز بحومة العيون على جامع الحومة المذكورة سنة 1042 وهذا نصه :

الحمد لله أوصى المعلم ابراهيم بن الفقيه محمد الطنجي به دعى الحساني أنه متى حدث به الموت الذى لابد منه ولا محيد لمخلوق حي عنه فانه يخرج بعد وفاته الثلث الواحد من جميع متخلفه من قليل الاشياء وكثيرها جليلها وحقيرها أصلا كان أو غيره ويوقف في الطراز المخرج من دار سكناه بالعيون من تطاوين ويجعل حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا على جامع سيدى على الجعيدى بالعيون المذكورة بحيث إن نصف الطراز المذكور يوقف على من يقرأ الرسالة والنصف الآخر على السوية بين إمامه والزيت وإذا فضل شيء من الثلث المذكور عن الطراز المذكور

فانه يوقف في أصل ويصرف خراجه على الحكاية المذكورة قصد بذلك وجه الله العظيم وثوابه الجسيم والدار الاخرة ومن بدل أو غير فى ذلك فالله حسيبه وسائله يوم القيامة ايصاء صحيحا شهد عليه بذلك وهو بحال كماله وعرفه أوائل ربيع بل جمدى الاولى عام اثنين واربعين والف سنة، علي الزياتي وفقه الله ومحمد الكتامي وفقه الله .

مما يستفاد من هذا الرسم، أن جامع العيون كان يعرف بجامع سيدى الجعيدى وهذا الجعيدى هو المعروف الآن بسيدى على بن مسعود، وهو الذى بنى المسجد المذكور من ماله الخاص رحمه الله وجزاه خيرا .

ويلاحظ أن أهل الخير والدين كانوا بالرغم من فقرهم، يتركون الاوقاف على إضاءة بيوت الله، وعلى القائمين فيها بالامامة والاذان وتدريس كتب الدين، كما يلاحظ أن كتاب رسالة ابن أبى زيد القيرواني كان يدرس بتطوان فى ذلك العهد .

7 وثيقة بالتزام عدم الرجوع فى وصية سنة 1055

وبمحول الرسم المذكور ما نصه : «الحمد لله أشهد الموصى المذكور بمحوله على نفسه شهيديه أنه لا رجوع له في الثلث الذى أوصى به بمحوله ملتزم ذلك وأنه إن ظهر ما يخالف ذلك فلا عمل عليه وإنما العمل على ما قيد بمحوله إشهادا صحيحا عرف قدره شهد عليه بذلك وهو بحال كماله وعرفه أواسط ذى الحجة عام خمسة وخمسين وألف سنة علي الزياتى وفقه الله ومحمد العاقل وفقه الله. وتحت ذلك ما نصه : الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه. أعلم بثبوت الرسمين أعلاه وبمحوله عبيد الله تعلي محمد بن سعيد وفقه الله بمنه .

محمد بن سعيد المذكور فى هذا الرسم، هو القاضى محمد بن قريش المشهور، وقد تولى قضاء تطوان بعد تاريخ هذا الرسم بما يزيد على عشرين سنة. ويلاحظ أنه كان يبدأ الاعلام على الرسوم بالحمدلة والتصلية، ويظهر أنها عادة لم يستمر عليها عمل جميع القضاة بتطوان .

8 وثيقة شراء فدان خارج تطوان سنة 1051

ومن ذلك رسم شراء فدان بمرج حسين خارج تطوان عام 1051 وهذا نصه:
«الحمد لله اشترى الفقيه التاجر المكرم السيد محمد بن محمد حمزة المدعو أيضا قبريرة الاندلسى من البائع له المكرم محمد بن الفقيه محمد الكراسى

جميع الفدان المعروف له بمرج حسين خارج تطاوين يتصل بملك المشترى وبملك عبد الرحمن بوعلي وبالخندق بمنافعه ومرافقه وكافة حرمه اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره له ثلاثمائة اوقية بالسكة الجارية بتطاوين فى تاريخه اعترف البائع المذكور بقبضه فى ريال وأبرأ المشترى المذكور منه ابراء تاما وتملك المشترى المذكور مشتراه المذكور تملكا صحيحا، وحل فيه محل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب وبمحضر عبد الرحمن ابي علي المذكور وموافقته على ذلك شهد عليهم بذلك وهم بحال كماله وعرفهم فى أواسط رمضان المبارك إحدى وخمسين والف الحق فيه فى ريال صح به . . . وفقه الله و . . . . وفقه الله .

يلاحظ على هذا الرسم أن العدل يستعمل اسم تطاوين بواو مكسورة بعدها ياء فنون، وكذلك كان عمل جل عدول تطوان فى ذلك العهد .

كما يلاحظ ذكر لفظة الريال ـ الاسبانية ـ مما يدل على أنها كانت مستعملة بتطوان فى ذلك التاريخ . وذكرت فيه لفظة الفدان ـ وينطق بها فى تطوان بفتح الفاء وتشديد الدال، وهى كلمة عربية تطلق على المزرعة .

وفى تطوان تطلق على كل قطعة أرضية تزرع فيها الحبوب أو الخضر، سواء كان فيه أقل من هكتار من الارض أو كانت فيه عشرات الهكتارات، فهو اصطلاح مخالف لاصطلاح الشرقيين الذين يطلقون اسم الفدان على عدد محدود من القصبات أو الامتار.

9 وثيقة شراء مصرية عام 1054

ومن ذلك رسم شراء مصرية بحومة العيون سنة 1054 وهذا نصه :

«الحمد لله اشترى المكرم قاسم بن الحسن بن سليمان به دعي اليجمى نائبا فى الشراء ودفع الثمن عن جانب حبس جامع سيدى على الجعيدي وصومعته من وصية رحمة بنت السيد احمد السلباح من البائع له التاجر عبد العزيز بن على بن عبد الحق به عرف جميع المصرية الكائنة بالعيون من تطاوين المتصلة بدار البائع وبدار سباطه بمنافعها ومرافقها وكافة حرمها اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لها سبعمائة أوقية وعشرون اوقية سكة تاريخه اعترف البائع المذكور بقبضه وأبرأ المشترى المذكور منه إبراء تاما وتملك المشترى المذكور للجانب المذكور مشتراه المذكور تملكا صحيحا وحل فيه محل ذىالمال

في ماله على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب وبمحضر شقيق البائع محمد وموافقته على ذلك شهد عليهم بذلك وهم بحال كماله وعرفهم وتقدم الاشهاد بذلك عن تاريخه بنحو أربعة أشهر وقيد في مفتتح ربيع النبوى عام أربعة وخمسين وألف الحق فيه جامع صح به علي بن محمد الزياتي وفقه الله ومحمد العاقل وفقه الله .

ورد في هذا الرسم اسم المصرية، وبلاد مصر أشهر من أن تعرف، ونسبة المذكر اليها مصرى والانثى مصرية، وفي هذه الوثيقة أن مصرية بيعت بحومة العيون، فما هي هذه المصرية، هذا سؤال قد يلقيه من لا يعرف اصطلاح تطوان في أسماء الاماكن والمساكن، والجواب أن المصرية هي مكان صغير يصعد اليه بدرج، وقد يكون ملحقا بدار السكنى وبابه بين بابي الدار، وقد تكون بابه مستقلة عن الدار .

وفي بعض الاحيان يستعمل لفظ المصرية فيما يستعمل فيه لفظ الدراز ـ الطراز ـ أى مكان الحياكة أو المأوى الخلوى لبعض العزاب ....

ولا نعرف أصل هذه التسمية على سبيل التحقيق، ومن الممكن أن تكون تلك النسبة «اتية من كون جل تلك المصريات كانت مثوى للمتصابين وأصحاب الملذات الذين يقضون الليالي في الطرب والغناء والشراب والتأوهات وما يتبع ذلك مما اشتهرت به مصر قديما وسارت بذكره الركبان. وجاءت في الوثيقة أيضا كلمة ـ اليجمي ـ نسبة الى بني يجم ـ بفتح الياء والجيم ـ وهي القبيلة التي تسمى الآن بني حزمر ـ بضم الحاء وسكون الزاى وفتح الميم. وهي متصلة بتطوان، واقعة في جهة الجنوب الشرقي منها .

10 وثيقة شراء غرسة بالسوير سنة 1059

ومن ذلك رسم شراء غرسة بالسوير خارج تطوان سنة 1059 وهذا نصه:

الحمد لله اشترى الناظر في أحباس مسجد المرحوم بكرم الله تعلى سيدى علي بن مسعود الجعيدى الكائن بحومة العيون من مدينة تطاوين حرسها الله وهو الفقيه الارضى السيد المرتضى أبو محمد عبد الله بن قاسم عرف بغلايب من أعيان الحومة المذكورة من غلة أحباس المسجد المذكور جميع الغرسة المعروفة للسيد احمد ابن السيد علي بن عجيبة بالسوير خارج تطاوين المذكورة المشتملة على ما فيها من العود على اختلاف أنواعه مثمرا او غير مثمر يحدها الحبس من جهتيها وملك الخروف والوادى من البائع له مالكها المذكور بثمن

قدره خمسون أوقية خفيفة الصرف دراهم تاريخه اعترف البائع المذكور بقبض الثمن المذكور على التمام والكمال فأبرأ منه ذمة المشترى فبرئت وقبض المشترى الناظر المذكور جميع الغرصة المذكورة لتكون من جملة اوقاف المسجد المذكور وأحباسه لينتفع بغلتها فى وقود الزيت به واقامته من حصور وغيرها قبضا تاما على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد التقليب والرضى كما يجب عرفا قدره ولم يجهلاه ولا شيئا منه شهد به عليهما بحال كماله وبحال صحة إسناد النظر للناظر المذكور فيما ذكر وفى أوائل محرم الحرام فاتح تسع وخمسين والف سنة الحق المذكور، معا صح به محمد البكرى وفقه الله بمنه ومحمد . . . . . وفقه الله .

ورد فى هذا الرسم اسم «السويرى» بسكون السين وكسر الواو وفتح الياء المشددة. وهو اسم مكان به أراض فلاحية قرب تطوان، ويقع فى الجنوب الغربي منها، ويمر به النهر الذى يصب فى البحر الابيض المتوسط ويسمى فى ذلك المكان بواد السويسر، وقد أطلق العدل لفظ العود، ومراده الاشجار. والغرصة محرف عن الغرسة.

11 وثيقة بيع دار بعد اثبات ملكيتها سنة 1062

ومن ذلك رسم بيع دار بعد اثبات ملكيتها سنة 1062 وهذا نصه :

«الحمد لله كان على ملك الصائر الى عفو الله تعلى المكرم المعالم سليمان ابن محمد العربي به عرف الاندلسي اللواجرى جميع داره المعروفة له الكائنة بالمطمر من تطاوين حرسها الله المجاورة لسور البلد ولدار محمد عياد ولدار طاطة شرقية وهي المذكورة والمحدودة بمحوله، واستمرت ملكيته لها الى أن توفي عفى الله عنا وعنه فورثه زوجه المصونة «امنة بنت عبد الله الاندلسى وأولاده منها وهم محمد وعائشة وفاطمة ثم توفيت الام الزوجة المذكورة فورثها اولادها المذكورون لا وارث لهما سوى من ذكر وكانت عائشة المذكورة باعت لشقيقها المذكور واجبها في الدار المذكورة وهو الربع كما ذكر بمحوله بالثمن المذكور بمحوله وصار له ثلاثة أرباعها ولمن ناب عنه كما قيد بمحوله الى الآن فى تاريخه. حضر محمد المذكور نائبا عن نفسه وعن شقيقته فاطمة عن إذن من يجب والتاجر المكرم احمد فرج نائبا عن ابنته مريم المذكورة وعرضا الدار المذكورة للبيع وجعلاها بيد سمسار ونودى عليها بالاشادة فى مظان الزيادة ليتوصل كل واحد منهم بواجبه أو واجب من ناب عنه ولترتفع عنهم

مضرة الشركة وبقي النداء عليها أسواقا عديدة الى أن وقفت على آخر زائد فيها وهو المكرم الارضى الفاضل الاحظى الشريف الحسني التاجر السيد يحيى بن السيد محمد بن ابى بكر الشريف به عرف بثمن قدره ألف أوقية واحد وخمسمائة أوقية وعشرون أوقية سكة تاريخه خفيف ولم يلف زائد عليه فعند ذلك اشترى السيد الشريف المذكور ممن ذكر جميع الدار المذكورة على حسب حدودها المذكورة بالشراء الصحيح الناجز الصريح الذى لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بالثمن الذى وقفت به أحضر المشترى المذكور ثلاثة أرباع العدة المذكورة المختص بمحمد وزوجه المذكورين فقبض منها الحسين بن عيسى بن يعط ثلاثمائة أوقية وستة وسبعين أوقية غير ربع الاوقية والتاجر علي ماضناد سبعة وسبعين اوقية والتاجر محمد السكيرج مائة أوقية واحدة واثنين وعشرين اوقية. وما بقى لكمال الثلاثة أرباع قبضه البائع محمد المذكور وصهره التاجر احمد فرج المذكور وأبرىء المشترى من درك القبض فبرىء والربع الواحد المختص بالبنت فاطمة المذكورة وقدره ثلاثمائة أوقية وثمانون أوقية خفيفة وقفت تحت يد المشترى المذكور عن إذن من يجب الى أن توقف لها فيما هو أنفع وأغبط من الجزء المبيع المذكور ويبرأ منه بالموجب وتملك المشترى المذكور جميع مشتراه تملكا صحيحا تاما وحل فيه محل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى كما يجب، ووقوف أرباب البصر على عينها بعد وقوفها علي من ذكر واشهادهما بان ذلك أكثر ما تساويه وموافقة زوج البائع محمد المذكور مريم بنت أحمد فرج على البيع والقبض ثم طولع بذلك الفقيه الاجل المدرس القاضى بتطاوين وهو . . . . . (1) اعزه الله وحرسها فوافق على البيع المذكور وأمضاه على المحجورة المذكورة لعدم تأتي قسمة الدار المذكورة وعدم ما تضم به صفقة المبيع المذكور لكونها لا مال لها وهي قديمة البناء يخاف سقوطها وقلة واجبها وما ثبت أيضا لديه حفظه الله بشهادة من ذكر بأن القيمة المذكورة فيها غبطة ومنفعة للمحجورة المذكورة للوجوه المذكورة ولان البيع وقع صفقة وللصلاح والسداد شهد على اشهاد من ذكر دامت كرامته بالمذكور عنه فيه وبايقاف واجب البنت تحت يد المشترى الى أن يبرأ منه بالواجب وهو بالحالة الموصوفة من أشهده من عداه بما ذكر عنهم فيه

1) هنا علامة القاضي وهي غير واضحة فلم نستطع معرفة اسمه ولقبه منها .

وهم بحال كماله وعرف الرجال وعرف بالمرأة تعريفا كافيا فى أوائل جمدى الثانية عام اثنين وستين والف الحق فيه . . . . وفقه الله. و . . . . . . وفقـه الله (1) .

اللواجرى ـ يعنى صانع اللاجور ـ الآجر ـ أى الطيـن المشـوى الذى تبنى به الجدران، وفي تطوان عائلة اسمها اللواجرى .

12 وثيقـة تحبيس ثلـث فـدان سنـة 1064

ومن ذلك رسم تحبيس ثلث فدان سنة 1064 وهذا نصه :

الحمد لله أشهد المكرم أحمـد بن أحمـد المـؤذن به عرف الاندلسى على نفسه شهيديه أنه تصدق بجميع الثلث الواحد من كافة الفدان المعروف له بالالوان يحد بالوادى والعفاق وأولاد الغازى على المسجد الجامع المنسوب للولى الصالح سيدى علي الجعيدى بحومة العيون من تطاوين صدقة بتة بتلة لا رجعة له فيها بعد قصد بذلك وجه الله العظيم وثوابه الجسيم والدار الآخـرة والله لا يضيع أجر من أحسن عملا فمن سعى فى تبديل ذلك أو تغييـره فالله حسيبه وسائله ومتولي الانتقام منه وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبـون اشهـادا صحيحا عرف قدره شهد به عليه وهو بحال كماله وعرفـه أواسط ذى الحجة الحـرام سنة اربع وستين والف . . . .

هكذا كـان الرجـل مـن السلف الصالـح يخرج عمـا يملكـه ويتصدق به لوجه الله، ابتغاء مرضاة الله سبحانـه، لتقـام شعائر الدين فى بيـوت الله على أكمل الوجوه فرضي الله عن رجال السلف الصالح أهل الخيـر والديـن وجزاهم على حسن نيتهم وجميل قصدهم وجليل عملهم أفضل الجزاء .

13 رسم شـراء غرسـة بعيـن الجمـارى سنة 1073

وهذا رسم شراء غرسة بعين الجمارى سنة 1073 ونصه :

الحمد لله اشترى التاجر الارضى المكرم محمد بن موسى مديـرة المدعو النيار من البائع له المكرم قاسم بن على صويلح به عرف جميع الغرسة الكائنة بعين الجمارى تحد بملك بوردان من جهتين والحبس وبملك النشار بجميع المنافع

1) هنا علامتا العدلين الشاهدين وهما غير واضحتيـن فلم نستطـع أن نقرأ منهما غير الدعاء وهو وفقه الله فيهما .

والمرافق وكافة الحرم اشتراء صحيحا لا شـرط فيـه ولا ثنيـا ولا خيار بثمن قدره سبعة وثلاثون مثقالا اشقوبية تنقص عشر موزونات قبضها البائع المذكور على الوفاء والتمام بالمعاينة وأبرأ المشترى من درك القبض فبرىء وتملك المشترى المذكور مشتـراه المذكـور تملكـا صحيحا تامـا وحـل فيه محـل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح في ملكه على السنة فى ذلـك والمرجـع بالدرك بعـد النظر والتقليب والرضى كما يجب حضرت أم البائع المذكـور وهـى عائشـة بنت محمد مومن واخته «امنة ووافقتا على البيـع المذكـور موافقة تامـة عرفوا قدره شهد به عليهم وهم بحال كماله وعرف الرجلين وعرف بمن عداهما غرة رجب الفرد عام ثلاثة وسبعين والف أصلح مديـرة صح به . . . . . وفقـه الله ومحمد . . . . . وفقه الله تعلى بمنه .

ورد فى هذا الرسم اسم ـ عيـن الجمـارى ـ وما زال حتـى الآن قرب تطوان مكان يعرف بعين الجمارين، وهو فى جنوبها الغربى، وفيـه عدة غراسى وفدادين تسقى بالعين المذكورة التي هي من أشهر العيون الموجودة فى ضواحى هـذه المدينـة .

ويلاحظ أن هذا الـرسم لم تذكـر فيـه القيمـة التى بيعت بها الغرسة المذكورة بالاواقى كما رأيت فى الوثائـق السابقـة، بـل ذكـرت هنا بالمثاقيل ووصفت بالاشقوبية نسبة الى شيقوبية SEGOVIA التى هى مقاطعة اسبانيـة متصلة بمقاطعة مدريد، فيظهر أن الدفع كان بالعملـة الاسبانية، ومعلـوم أن المعاملات التجارية في ذلك العهد، كانـت بالعملـة الذهبية والفضية والنحاسية على اختلاف اجناسها واشكالها، ولكـل عملـة سعر خاص على أساس المثقال والاواقى ، ويختلف ذلك السعر فـى السوق باختـلاف صنف العملة وجودتها وعرضها وطلبها وقلتها وكثرتها الخ .

ولنا في تكملة هذا الكتاب بحث مفصل لا بأس به حول هـذا الموضوع .

14 وثيقـة إرث ومفاصلـة بين الورثـة سنـة 1076

وهذا رسـم إرث ومفاصلة تاريخه سنـة 1076 ونصـه :

الحمد لله كان على ملك الصائر الى عفو الله تعلى الفـارس المكرم محمد ابن محمد رحال به عرف التطاونى جميع دار سكناه الكائنة خارج بـاب الحديد من تطاوين أمنها الله المتصلة بدار ابى كلو والزنقة مع جميع الفرن المتصـل بها مع جميع الدار المعروفة لاحمدى فـى القديم مع جميـع الفدان الكائن بزيانة

المتصل بالخطيب مع جميع الفدان الكائن بالمنجرة بقرب الفدان المذكور مجاورة الطريق الفاصلة بينه وبين الحاج الرزيني مع جميع الفدان المعروف للرباحي في القديم بقرب الفدان المذكور المتصل بالطريق وشويخ مع جميع الفدان الكائن بقاع الحافة المتصل بالقلين والتبين وفرتله مع جميع الفدان الكائن بالدردارة المتصل بالحبس والصبان مع جميع الغرسة الكائنة بكيتان المتصلة بملول مع الغرسة الكائنة بالعدوة المتصلة باللبادي مع جميع الجنان الكائن بابي سافو المتصل بالوادي والطريق مع جميع الفدان الكائن باللوية المتصل بمعزوز والزموري مع جميع الفدان الكائن بشبريط يعرف بمرنة الدريج المتصل بفريخ ومفضل مع جميع الفدان الكائن بقرار أبي علي المتصل بالعناية والرحموني وزروق مع جميع الفدان الكائن بالغروس المتصل بالتاجر والتازي مع جميع الجنان الكائن بالرميلات المتصل بالطريق وحيون مع جميع الغرسة الكائنة بالموضع المذكور وتعرف بغرسة محيس المتصلة بالخياط وديداى مع جميع الفديدن الكائن بشبريط المتصل بالحساني مع اثاث واسباب وعبيد وحيوان واستمرت ملكيته لذلك الى أن توفي عفا الله عنا وعنه فورثه زوجه المصونة فاطمة بنت التاجر سليمان الحساني وأولاده منها عبد السلام وعالية ورحمة لا وارث له سوى من ذكر في علم من علمه الى الآن في تاريخه حضر المكرم المعلم محمد غزيل بعل البنت العالية المذكورة نائب الزوجة المذكورة وبنتيها المذكورتين اذ هي الوصي عليهما من قبل والدهما المذكور بمضمن شهادة شهيديه فيهما معا والولد عبد السلام المذكور نائب عن نفسه ووافقا على الموت والاراثة وصحة المتخلف المذكور وذهبا الى عقد مفاصلة ومخارجة في الاصول المذكورة ليتوصل كل واحد منهما بواجبه أو واجب من ناب عنه ولترتفع عنهما مضرة الشركة فقدما اذ ذاك من رضيا دينه وأمانته لتقويم ما قوم من الاصول المذكورة والمقاسمة والمخارجة فيما بقي منها فقومت الدار المتصلة ببوكلو بأربعة •الاف وخمسمائة أوقية وعن الدار الاخرى المتصلة بها ثلاثة •الاف أوقية وخمسمائة أوقية وعن فدان زيانة ستمائة أوقية وأربعون أوقية وعن فدان المنجرة ثلاثمائة أوقية وعن فدان الرباحي ألف اوقية واحد ومائة واربعون أوقية وكل القيم المذكورة بالسكة الصحيحة الاشقوبية فخرج عبد السلام المذكور بالدار الكبرى المتصلة ببوكلو بما قومت به وبفدانى زيانة والمنجرة بما قوما به وبواجبه من فدان قاع الحافة وقدره مرجعان وثمن لناحية القلين وبواجبه من فدان الدردارة وقدره ستة مراجع وثمن لناحية مدارة والحبس وبواجبه من غرسة كيتان وقدره مرجعان لناحية الجهة المقابلة لملول وبواجبه من غرسة

العدوة وقدره مرجعان وخمسة أثمان المرجع وبواجبه من جنان أبى سافو وقدره ستة وعشرون قصبة لناحية الوادى وبواجبه من فدان اللوية لناحية معزوز وبواجبه من مرينة الدريج بشبريط لناحية فريخ وبواجبه من فدان قرار أبي علي لناحية الرحموني وبقي لكمال واجبه ثمنان وبواجبه من فدان الغروس مع ما بقي لكمال واجبه المذكور لناحية التاجر وبواجبه من جنان الرميلات وقدره ستة عشر قصبة ونصف لناحية ليون وبواجبه من غرسة محيس المذكورة وقدره اربعة عشر قصبة لناحية البيت وخرج نائب الزوجة المذكورة لها ولبنتيها المذكورتين بتلك الاصول المذكورة مخارجة صحيحة تملك بها كل واحد ما خرج به له او لمن ناب عنه تملكا صحيحا تاما على السنة فى ذلك والمرجع بالدرك وتحاسبا في ذلك وفيما عدا الاصول المذكورة مما ذكر فبقي بذمة عبد السلام المذكور لمن عداه الف أوقية واحد وثلاثون أوقية من السكة الموصوفة دفع فيها واجبه من غرسة كيتان في خمسمائة أوقية وما بقي لكمال ما بقي بذمته يؤديه حلولا لا يبريه الا الواجب وتبارأوا فيما بينهم بالابراء التام بحيث لا قيام بعد ولا دعوى ولا حجة ولا تباعة ولا علقة يمين بوجه ولا بحال عرفا قدره شهد به عليهما وهما بحال كماله وعرفهما وعرف صحة نيابة من ذكر وتفويض ذلك اليه بمضمن شهيديه وفى أواسط ربيع النبوى المفضل عام ستة وسبعين والف الحق فيه خمسمائة اوقية . . . . .

ذكر فى هذا الرسم اسم باب الحديد، ولا يعرف الآن بتطوان باب اسمه باب الحديد، بل لا يعرف حتى مكانه، فقد زال الاسم واندرس المسمى والبقاء والدوام لله. ونظن أن هذا الباب كان موجودا قبل بناء الاسوار التى أحاطت بتطوان القديمة وأرباضها، وربما كان محله فى الربض السفلى بين ساحة السويقة والسور المشرف على الجناح الاخضر فى الطريق الذاهبة من السويقة الى المصلى القديمة وباب الرموز .

وذكر في الرسم اسم «المنجرة»، وهي قسم من حومة السويقة بينها وبين المصلى القديمة، وما يزال هذا الاسم ومسماه معروفين الى الآن في حومة الربض الاسفل .

ويظهر أن تلك الجهة كانت في ذلك التاريخ ما تزال بها فدادين، الا أنها بنيت بعد ذلك ولم يبق بها اى مكان فارغ.

وقاع الحافة، مكان ما يزال معروفا بهذا الاسم الى الآن قرب السويقة ايضا، وكذلك جل الاسماء الواردة فى هذا الرسم .

وذكر فيه اسم الجنان، وهو في اللغة جمع جنة بفتح الجيم، اى حديقة فيها اشجار وزهور، أما في اصطلاح تطوان، فالجنان هو البستان الذى لا يسقى الا بالمطر، والغرسة هي التى تسقى كلما احتاجت للسقي بالماء الجارى من النهر أو العين .

وذكر فيه عند كيل الارض لفظ المرجع بفتح الميم والجيم وهو عبارة عن مساحة خاصة - تمسح - اى تقاس وتقسم - بها الاراضي في تطوان، فيقال ان الفدان الفلاني أو الارض الفلانية بها مرجع أو مرجعان أو خمسون مرجعا مثلا، فهو كالفدان في اصطلاح المصريين .

وكانت مساحة المرجع في عرف تطوان، تحتوى على نحو سبعمائة متر مربع، وكان المرجع ينقسم الى أربع وستين قصبة، كل قصبة بها ستة أذرع الخ .

وقد فصلت ذلك تفصيلا مع مقارنته بالمقاييس المترية في أحد فصول كتاب «التكملة» الذى هو ذيل هذا التاريخ .

15 رسم شراء فدان بزيانة سنة 1088

وهذا رسم شراء فدان بزيانة، وتاريخه سنة 1088 وله علاقة بالرسم الذى قبله ونصه :

«الحمد لله اشترى الفقيه الاجل الخير الافضل الاعدل الاكمل أبو محمد سيدى عبد الله بن المقدم المرحوم بكرم الله سبحانه أبي العباس سيدى أحمد الخطيب به عرف التطاوني من البائع له المكرم عبد السلام بن محمد رحال المذكور بمحوله جميع فدان زيانة المذكور بمحوله المتصل بملك المشترى المذكور والشريف والخشين والحبس والطريق بمنافعه ومرافقه وكافة حرمه وشربه من حيث عهد اشتراء صحيحا لا شرط فيه يفسده ولا علة توهنه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره ثمانمائة أوقية وعشرون أوقية سلطانية اسماعيلية قبض جميعه البائع المذكور على الوفاء والكمال معاينة وابرأ المشترى من درك القبض فبرىء وتملك المشترى مشتراه المذكور تملكا صحيحا تاما وحل فيه محل ذى المال في ماله وذى الملك الصحيح في ملكه على السنة والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب شهد به عليهما وهما بحال كماله وعرفهما وفي اوائل ربيع النبوى المفضل عام ثمانية وثمانين والف احمد بن محمد بركة وفقه الله ولطف به .

زيانة ـ اسم كان وما زال يطلق على الارض الواقعة خارج باب السعيدة وكانت بها فدادين كلها تسقى من الماء النابع هناك أو الخارج من المدينة ما بين نظيف وغيره .

وقد عبر الكاتب بكلمة شربه، ومقصوده سقيه، لان الارض الزراعية التي هناك، كانت تباع مع الماء الذي تسقى به، فيكون صاحب الارض مالكا لها ولمائها .

16 رسم اسقاط نزاع وامضاء بيع وابراء سنة 1090

وهذا رسم اسقاط النزاع وإمضاء البيع والابراء، وتاريخه سنة 1090 وله ارتباط بالرسمين قبله ونصه :

«الحمد لله أشهد الفقيه الاجل الناظر في المواريث السعيدة في حينه وهو السيد محمد بن سليمان على نفسه أنه أسقط النزاع عن المشتري المذكور أعلاه في الفدان المشترى وابرأه فيه الابراء التام وأبرأه بل وأمضى المبيع المذكور لمشتريه المذكور بحيث الا قيام عليه بعد في ذلك بحكم ما استظهر به الفقيه المذكور من استغراق ذمة والد عبد السلام رحال المذكور كون الفدان شمله الصلح الذي أبرمه مع عبد السلام رحال في جميع متخلف والده إشهادا صحيحا تاما عرف قدره شهد به عليه وهو بحال كماله وعرفه وانتصابه لما ذكر وفي أواخر شوال عام تسعين والف ...

مما يفهم من هذا الرسم، أن وظيف ناظر المواريث، أى أبي المواريث، كان موجودا بتطوان في اواخر القرن الحادي عشر، وأن استغراق الذمم كان شيئا معهودا لدى رجال ذلك العهد، وما أنفعه من عقاب رادع، ولكن يجب أن لا يكون الا لخصوص الظالمين الذين يختلسون أموال الدولة والشعب بغير حق ولا عدل، والا كان ظلما مآله الخراب .

17 رسم شراء فدان بقاع التوت سنة 1088

ومن ذلك رسم شراء فدان بقاع التوت خارج تطوان وهو مؤرخ بعام 1088 وهذا نصه نقلا عن أصله المحفوظ بخزانتي «الداودية» :

الحمد لله اشترى التاجر الارضى السيد الحاج قاسم بن المرابط الخير السيد محمد بن عدي التطاوني من البائعين له المكرمين الحاج قاسم ابن التاجر علي الرميرس الاندلسى وشقيقه عبد السلام جميع فدانهما

المعروف لهما بقاع التوت خارج الثغر التطاوني المتصل بملك المشتري وملك القصيري وملك جنينو وملك بيســة بمنافعـه ومرافقـه وكافـة حرمه وشربه من حيث علم اشتراء صحيحا لا شرط فيه ولا ثنيـا ولا خيـار بثمن قدره مائتا أوقية ثنتان وستون أوقية سكة مولانا اسماعيل قبضه البائعان المذكوران مـن المشتري المذكور معاينة وابرىء المشتري المذكور من درك القبض فبرىء وتملك المشتري المذكور مشتراه المذكور تملكا تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب حضرت بعد أم البائعين المذكورين عائشة ووافقت على البيع وقبض الثمن الموافقـة التامة وشهد علـى جميعهم بما ذكر والكل بحال كماله وعرف الرجال الثلاثة وعرف بالمرأة تعريفا كافيا وثق به أوائل ذي حجة سنة ثمان وثمانين والف الحـق فيه سكة مولانا اسماعيل صح به . . . . . وفقه الله، ومحمد . . . . . وفقه الله .

قاع التوت، يظهر أنه اسم محل خـارج باب التـوت الواقـع في الجهـه الغربيه مـن المدينـة .

ويلاحظ ان العدول كانوا يصفون من أصله من الاندلس بالاندلسي، وغيره بالتطاوني أو غير ذلك .

وبيسة ـ اسم لعائلة اندلسية يوجد منها الآن بتطوان مسلمون مغربيون واسبانيون مسيحيون، وبعض العدول يكتب اسمها هكذا بيصة بالصاد، وبعضهم بايسة ويكتبها الاسبانيون هكـذا BAEZA

وعائلة «الرميرس» الاندلسية التطوانية المسلمة المذكورة فى هذا الرسم ، قد انقرضت من تطـوان الآن ولـم تبـق بها الا سميتها عائلـة RAMIRES الاسبانية المسيحية الطارئة عليها فى عهد الحماية المنتهية والدوام لله .

وقد عبر العدل في هذا الرسم أيضا بشرب الفدان، ومـراده سقيـه ..

18 رسم مناقلـة مـع حبس جـامع المصيمدى سنة 1088

ومن ذلك رسم مناقلة مع حبس جامع المصيمدى التى بحومة الطرنكـات بتاريخ سنة 1088 ونصه :

«الحمد لله تناقل المكرم التاجر الارضى السيد سعيد ابن الفقيه المرحوم البركة سيدى ج. محمد الدريج به عرف التطاونى نائبا عن نفسه مع شقيقه المكرم محمد الموذن بمنار جامع المصيمدى الذى بحومة اطرنكات من الثغر التطـاوني حماه الله نائبا فيه عن احباس المنار المذكور عن اذن من يجب على أن خرج السيد

سعيد المذكور بجميع البيت الواحد من داره التي بالحومة المذكورة المخرج من دار الحبس المتصلة بدار الطيفوري ويجاور بملك السيد سعيد المذكور وهو المحبس على المنار المذكور وخرج شقيقه محمد المذكور نائبا عن جانب الحبس المذكور في مقابلة البيت المذكور، بجميع الحانوت المعروفة للسيد سعيد المذكور بالحومة المذكورة المخرجة من دار المعلم محمد المراكشي السرايري وتجاور بحانوت المراكشي المذكور وبالممر، مناقلة صحيحة تامة لا شرط فيها ولا ثنيا ولا خيار، وبالمنافع والمرافق وكافة الحرم، تملك بها كل واحد منهما ما خرج به له أو لمن ناب عنه عوضا عما خرج عنه تملكا صحيحا تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب ووقوف الاميتين المعلم أحمد بن سعيد شنديز البناء والطالب احمد بن محمد اللقنتي البناء على عين البيت والحانوت المذكورين وأدائهما لدى من يجب أن في ذلك غبطة لجانب الحبس المذكور لكون الحانوت المذكور تساوى الآن في تاريخه مائة أوقية واحدة وثمانين أوقية اسماعيلية والبيت يساوى في تاريخه مائة أوقية واحدة وعشرين اوقية من السكة وان كراء البيت اوقية واحدة الا ربع الاوقية عن كل شهر ، وكراء الحانوت اوقية واحدة وربع الاوقية تقويما تاما ووقوفا عاما عرفوا قدره ثم طولع بذلك الفقيه الاجل المدرس الخير الافضل نائب قاضي الثغر التطاوني وحوزه وهو احمد . . . . . اعزه الله تعلى وحرسه فوافق على المناقلة المذكورة وأمضاها في حق الجانب المذكور لما رأى له أسماه الله في ذلك من الصلاح والسداد الموافقة التامة شهد على إشهاد من ذكر دامت كرامته بما فيه عنه وهو حفظه الله تعلى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهده من عداه بالمذكور عنهم فيه وهم بحال كماله وعرفهم وعرف انتصاب من ذكر لما ذكر وفي أواسط جمدى الاخيرة من عام ثمانية وثمانين والف الحق فيه عن كل شهر صح به محمد بن عبد . . . . . . وفقه الله تعلى بمنه. ومحمد . . . . وفقه الله بمنه .

تستفيد من هذا الرسم أن اسم اطرنكات، هكذا بالطاء، كان مستعملا في أواخر القرن الحادي عشر، وهو اسم للحومة الكبيرة المشهورة في الجانب الغربي من تطوان، وما زالت الى الآن تعرف بالطرنكات ـ بسكون الطاء والنون وفتح الراء ... وان كان بعض المتفصحين من العدول وغيرهم يكتبها الاترنكات أو الترنكات، وتستفيد منه ـ كما عرفنا من غيره أيضا ـ أن منار بعض المساجد قد يكون له وقف خاص به، فمنار جامع الصيمدي كان له ـ كما ترى في هذا الرسم. بيت خاص محبس عليه بالخصوص، ومن المعلوم أن البيت

كان وما زال يطلق بتطوان على الحجرة المستطيلة الواقعة بالطبقة السفلى من الدار، أما اذا كانت في الطبقة العليا فتسمى الغرفة الخ .

ويلاحظ ان القاضى الشرعى ـ ولم يكن بتطوان قاض غير شرعي ـ كان هو الذى يحافظ على حقوق بيوت الله والقائمين بها، فلم يكن يسمح باية معاملة مع جانب الحبس الا اذا كانت فيها مصلحة ظاهرة له ، وذلك مـا كـان معروفا بالغبطة . فهو لم يسمح بالتسليم فى البيت المحبس الذى قيمته مائة وعشرون أوقية ، وكراؤه الشهرى ثلاثة أرباع الا وقيـة، الا فـى مقابل تملـك الحبـس لحانوت قيمتها مائة وثمانون أوقية ، وكراؤها الشهرى أوقية وربع .

ويلاحظ ان القاضى كان يسمح للمؤذن بان يتصرف ـ تحت اشرافه ـ فيما هو وقف على المنار الذى يؤذن به ، وكانت العادة ـ فى ذلك العهـد ـ دون الان ـ أن كلا من الامام والمؤذن يتصرف مباشرة فيما هو محبس عليه بالخصوص ثم مزجت مداخيل الاوقاف كلها وصار الناظر هو الذى يدفع من مجموع المدخول ما يحتاج اليه المسجد من حصر واضاءة وتبييض وتنظيف، كما يدفع منه الاجور المحددة للامام والمؤذن والحزابة الخ. تلك كانت عادة ، ولكـل عصـر عوائده ، ومصائبه وفوائـده .

19 رسم شراء دار بحومة الطرنكات سنة 1089

ومن ذلك رسم شراء دار بحومة الطرنكات سنة 1089 وهذا نصه :

«الحمد لله اشترت المصونة فاطمة بنت علي بايسة به عرف الاندلسى مـن البائعين لها الاشقاء المكرمين محمد وعبـد الرحمـن وقـاسم أولاد المعلـم على الجندى جميع الـدار الكبرى المعروفة لوالدهم بحومة الاطرنكات المتصلة بدار القبرى وطـراز مفضل بجميع منافعها ومرافقها وكافة حرمها اشتراها صحيحـا لا شرط فيه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره لها ثلاثة «الاف أوقية وخمسمائة أوقية اسماعيلية تؤدى لهم العدة المذكورة عند انقضاء أربعة أشهر تأتي من تاريخه لا يبريها الا الواجب وتملكت المشترية المذكورة مشتراها المذكور تملكا تاما وحلت فيه محل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكـه على السنـة فى ذلـك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب، حضرت أمهم المصونة مريم بنت محمد الزرهونى ووافقت على ما فعله أولادها المذكورون من بيع الدار المذكورة موافقة تامة شهد به عليهم وهم بحال كماله وعرف الرجال

وعرف بالمراتين تعريفا كافيا وثق به وفى أوائل رجب الفرد عام تسعة وثمانين وألف محمد بن عبد القادر الحدادى وفقه الله تعلى بمنه وموسى دغداغ وفقه الله تعلى بمنه.

مما يلاحظ فى هذا الرسم، ان كاتبه لم يذكر اسم الزنقة التى تقع بها الدار المبيعة ، واقتصر على ذكر حومة الطرنكنات الكبيرة التى بها زنقات عديدة. وعادة المتاخرين من العدول، أنهم يذكرون اسم الزنقة التى يقع بها الملك المبيع مع ذكر المالكين للاماكن التى تحده ...

ويلاحظ فيه أيضا أن امرأة اسمها مريم ، وذلك نادر الوجود فى تاريخ تطوان، اللهم الا ان تكون تلك المرأة من الاماء .

20 رسم بيع الدار المذكورة فى نفس السنة

ومن ذلك رسم بيع الدار المذكورة قبل انقضاء الاجل المحدد لدفع ثمنها. ونصه :

الحمد لله اشترى الفاضل الابر الماجد الاغر السيد الحاج قاسم بن المرحوم بكرم الحى القيوم السيد محمد بن عدى به عرف التطاونى نائبا فى الشراء ودفع الثمن عن نفسه وعن الثلث الموصى به لاولاده من زوجه بل لاولاد أولاده من زوجه المرحومة كانت صفية بنت التاجر علي الرميرس به دعى الاندلسى التطاونى حسبما فى غيره على حسب الثلثين الاثنين لمشترى المذكور والثلث الواحد للموصى لهم ولا حق له معهم فى الثلث الواحد الذى ناب فيه عمن ذكر لا فى ثمن ولا فى مثمون ويده فى ذلك يد عارية ونيابة ، من البائعة له المصونة فاطمة بنت علي بيسة المذكورة مشترية بمحوله جميع الدار المذكورة المحدودة بمحوله على حسب حدودها المذكورة حيث أشير بمنافعها ومرافقها وكافة حرمها اشتراء صحيحا لا شرط فيه يفسده- ولا علة توهنه ولا ثنيا ولا خيار بثمن قدره للدار المذكورة حيث اشير ثلاثة «الاف أوقية وخمسمائة أوقية بسكة مولانا اسماعيل نصره الله أذنت البائعة المشترى أن يدفع الثمن المذكور لها ولمن شاركها فيه من ورثة المعلم علي الجندى المذكورين بمحوله فدفعه لها ولهم معاينة على الوفاء والتمام، واقتسموه على فرائض الله تعلى سبحانه وتوصل كل ذى حق بحقه وأبرئت ذمة المشترى المذكور من درك القبض ابراء تاما فبرىء وتملك بذلك مشتراه المذكور له ولمن ناب عنهم على الحكاية المذكورة تملكا صحيحا تاما وحل فيه محل ذى المال في ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه على السنة فى ذلك

والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى ومعرفة القدر كما يجب شهد به عليهم وهم بحال كماله وعرف الرجال وعرف بمن عداهم تعريفا كافيا وثق به وفي منتصف رمضان المعظم سنة تسع وثمانين والف محمد بن عبد المجيد بوسجادة وفقه الله بمنه ومحمد الديماني وفقه الله بمنه.

ومن وثائق تطوان ونوازلها في القرن الحادي عشر، ما اثبته الشيخ عبد العزيز مهدي الزياتي (I) في أول باب الحجر من نوازله، ونصه :

«سئل الفقيه الحافظ أبو العباس أحمد محمد المقري (2) رحمه الله عن مضمن ثلاثة رسوم نص الاول منها، «الحمد لله كان على ملك الفقيه القاضي المرحوم بكرم الله السيد قاسم بن عبد الرحمن الكراصي جميع الدار الكائنة بحومة الجامع الاعظم من الثغر التطاوني كلأه الله تجاور دار السيد الشريف أبي العيش ومصرية السكيرج ودار النويدر والمحجة ودار النميين بجميع منافعها ومرافقها وكافة حرمها الى أن توفي عفا الله عنا وعنه وتركها لاهل الاحاطة بارثه وهم زوجتاه فاطمة زريقة المذكورة بطرته وفاطمة بنت أحمد برول وأولاده من غيرهما محمد وأم العز وأحمد شقيقته عائشة المذكورتان بمحوله ومن زريقة المذكورة رقية ثم توفيت رقية المذكورة فورثها أمها المذكورة وأخوها للام محمد بن السيد محمد الفضيلي وعصبها اخوانها المذكورون ثم توفي الولد محمد المذكور فورثه والده وامه المذكوران لا وارث لمن ذكر سوى من ذكر في علم شهيديه فحضر الآن السيد محمد الفضيلي نائبا عن نفسه في واجبه في ولده المذكور وعن زوجه في واجبها وعن محجورتيهما المذكورتين بمحوله بتوكيلهما اياه كما قيد بمحوله كما حضر الولد محمد المذكور نائبا عن نفسه لكون التقديم بقي من والده المذكور من غير تجديد حجر عليه لموته بعد طول أمد بلوغه، والزوجة المذكورة نائبة عن نفسها أعني برولة والسيد عبد القادر بن عبد الملك نائبا عن زوجه أم العز من قبل من يجب لكونها الى نظره بمضمن أول شهيديه وذهبوا الى بيع الدار المذكورة في صفقة واحدة

I) الشيخ عبد العزيز الزياتي المذكور توفي ودفن بتطوان عام 1055 وان شئت فانظر ترجمته في الفصل الرابع من الباب الرابع من هذا الكتاب.

2) المقري المذكور هو العلامة المؤرخ الاديب مؤلف كتابي «نفح الطيب» وأزهار الرياض» وقد توفي بمصر سنة I04I هـ.

وعقد واحد لترتفع عنهم مضرة شركتها وليتوصل كل وارث الى واجبه منها فعرضوها للبيع والتسويق والاشادة في مظان الزيادة وغيرها من أسواق الثغر المذكور بسماط العدول منه وفي علم شهيديه أياما عديدة نحو سنة وقفت على آخر زائد فيها وهو التاجر عبد الرحمن بن محمد بن عمر البادسي بثمن مبلغه لها ستمائة أوقية وأربعين أوقية دراهم سكة تاريخه اشتراها منهم بالثمن المذكور ودفع منه للفضيلي المذكور احدى وستين أوقية قبضها باعترافه والسيد محمد ابن صالح اثنتي عشرة أوقية كذلك دفعها لام العز المذكورة وباقي الثمن المذكور قبض منه جميع الورثة المذكورين معاينة خمسمائة أوقية وأربعا وثلاثين اوقية ونصف الاوقية في ريال وباقي الثمن المذكور اعترفوا بقبضه وابرأوا المشترى المذكور من جميع ثمن الدار المذكورة فبرىء وملكوه مشتراه المذكور تملكا صحيحا تاما دون شرط ولا ثنيا ولا خيار على السنة في ذلك والمرجع بالدرك وبعد النظر والتقليب والرضى كما يجب ثم طولع بذلك الفقيه الاجل نائب القاضي بالثغر التطواني وهو محمد بن محمد بن يعقوب أعزه الله وحرسها وسئل منه إمضاء البيع المذكور بموجب الصفقة المذكورة في حق المحجورة المذكورة وتسويقه بعد أن ثبت لديه كونها الى نظره وأن لا مال لها يضم لها به صفقة البيع المذكور فاقتضى نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد أن سوغ ذلك البيع وأمضاه بالموجب المذكور لما ظهر له في ذلك من الصلاح والسداد شهد على اشهاده أعزه الله وهو بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهده من عداه بما ذكر وهم بحال كمال الاشهاد وعرف الجميع وفي أواسط ذي الحجة من عام اثنى عشر والف .

ونص الثاني الحمد لله أشهد الفقيه القاضي سيدي بلقاسم بن عبد الرحمن الكراصي به دعي التطاوني أنه جدد الحجر على ولده السيد محمد ومنعه من التصرف في ماله وألزمه حكم الولاية والحجر واليتمة التى لزمه وذلك ليلة بناء ولده المذكور بزوجه في السالف عن تاريخه بما ينيف على سنة إشهادا صحيحا عرف قدره شهد به عليه وهو بحال كمال الاشهاد وعرفه وعرف الولد المذكور في فور بلوغه وقيد أواسط رمضان عام كذا (1) .

1) هكذا في الاصل أعني أصل الكتاب، بدون تاريخ .

ونص الثالث الحمد لله يعرف شهوده الفقيه الاجل القاضي المرحوم بكرم الله سبحانه سيدي بلقاسم ابن الفارسي المجاهد المعترك أبي زيد عبد الرحمن الكراسي وجميع ورثته وهم زوجتاه فاطمة بنت احمد برول وفاطمة بنت أحمد زريق وابنته منها رقية ومن غيرها الفقيه محمد وأحمد وعائشة وأم العز محاجير فالفقيه محمد المذكور الى نظر الفارس أبي عبد الله السيد محمد بن صالح وأحمد وعائشة ورقية الى نظر زوجه زريقة وأم العز المذكورة الى نظر من يجب المعرفة الصحيحة التامة وبمثل المعرفة المذكورة يعرفون التاجر عبد الرحمن بن محمد بن عمر البادسي ويشهدون مع ذلك بأن التاجر المذكور اشترى جميع دار السيد القاضي المذكور الكائنة بحومة الجامع الكبير داخل الثغر التطاوني كلأه الله المجاورة لدار الشريف أبي العيش والمحجة ودار الفقيه من أعلاها بيعت له في دين يزعم مدعيه وأن جميع من انعقد عليه البيع من الورثة في الدار المذكورة باع ضغطا واكراها لعدم ثبوت الدين عندهم ولعدم تمكينهم من الاعذار والدفع والمقال ويمين القضاء وغيره وكما يعلمون أيضا أن لهم أصولا وأثاثا وحيوانات مما يجب بيعه ويضم كل واحد منهم صفقة البيع لو ثبت الدين ما هو أولى من الدار المذكورة وكما يعلمون شهوده أن السيد محمد بن صالح لم يوافق على ما أبرمه محجوره المذكور من البيع ولم يزل الفقيه محمد المذكور منذ تبين ترشيده منازعا ومعارضا ومدعيا ومطالبا لمشترى الدار المذكورة لم يرفع نزاعه عنه من الوقت المذكور الى الآن كل ذلك في علمهم وقيدوا به شهادتهم مسئولة منهم ويحوزون الدار المذكورة وما عداها من الاملاك بالوقوف عليها متى دعوا الى ذلك وفي أوائل رمضان المبارك عام كذا ...

ونص السؤال المركب على هذه الرسوم، الحمد لله، سيدى رضي الله عنكم وأرضاكم جوابكم المبارك بعد تأملكم رسم البيع أعلاه ورسم الحجر ورسم الاسترعاء بعده والنازلة أعزكم الله أنه بيعت عليهم الدار المذكورة أعلاه على ما نصه رسم الاسترعاء والولد محمد المذكور البائع على نفسه كان محجورا مولى عليه لم يبع وصيه المذكور الا أنه كان حاضرا ولم تكن بيده وصية ولا تحجير وباع الولد على نفسه كما ذكر ثم بعد ذلك عثر على رسم الوصية ورسم الحجر المفيد ورشد المحجور ورام نقض البيع وفسخه هل له ذلك أم لا والبنت التي باع

عليها القاضي كان لها أصول وأثاث وحيوانات هل يصح بيع الحاكم عليهـا مع ثبوت ما ذكر أم لا، فان قلتم بصحته فلا إشكال، وإن قلتم بفساده فانها ماتت قبل أن ترشد هل لورثتها القيـام بعدهـا أم لا، فأجـاب ان محمدا المذكور اذا ثبت حجره حين البيع كما ذكر فلوليـه نقض ذلك البيع وله هـو حيـن يملك أمره نقض ذلك اذا لم يعلم به وليه والله أعلم. وأما المحجورة أم العز فبيع الحاكم عليها ينقض اذا ثبت أن لها ما لا تضم به صفقـة البيـع فى الدار المغتبطـة لان الحاكم انما استند في البيع عنها الى أنه لا مال لها تضم به بحيـث اذا ثبت أن لها مالا، رد ذلك البيع وينتقل لورثتها من الحق ما كان لها، وانما قلنا ببطلان البيع على الوجـه الموصـوف لان الشهود الذين شهـدوا لـدى الحاكـم أن أم العز لا مال لها تضم به قد ثبت كذبهم بوجود المال لها ان ثبـت، والقاعـدة أن الشهود اذا ثبت كذبهم ينقض الحكم المستند لشهادتهم والله أعلم . هـ من خطـه .
(انتهى كلام الزياتي في نوازله) .

وقعـة اقليش ومصـرع الاميـر ضـون شانجـه

كان انسحاب يوسف بن تاشفيـن اثر وقعة الزلاقة وفشله فى محاصرة «اليدو» مما حمل الفونس السادس على الاعتقاد بامكانية اقرار نظام المتبوذين واخضاع ملوك الطوائف لسلطته. الا ان تـوحيد بـلاد الاندلس كلها تحت سيطرة يوسف والقوات العديدة المتوفرة لدى الامبراطورية المرابطية قد اوقفت فجأة مجرى حملة الاسترجاع وكلفت للمسلمين استعادة الكثير من الاقاليم التى فقدوها وتكبيد القشتاليين هزائم دموية . فقد انتصر حملة ألوية يوسـف فى مواقع المدور و «كونسويغرا» و «كوينكا» و «جزيرة شقـر» وغيرها من المواقع حتى اضطر القشتاليون سنة 1102 الى الانسحاب من معقل بلنسية بعد وفاة «السيد المناضل» .

وقد واصل المرابطون حملتهم بعد وفاة يوسف بن تاشفين عند ما ارتقى علي بن يوسف العرش وهو لا يزال فى عنفوان الشباب والاستعداد لاقتفاء اثر والده في حين ان ألفونس كان قد طعن فى السـن واصيب بشيء مـن الشلل وجعل يقاوم رغم الهزائم العديدة التى منى بها زحف المرابطين المستمر فى عزم شديد مستندا الى القلاع المقامة على ضفاف نهر التاج.

وكان على ألفونـس السادس عند ما بلغ الثامنة والسبعين ولم يبق بينه وبين الموت الا عام واحد لن يجتاز أشد المراحل إيلاما له في حياته المعذبـة عقد خسر قصبة أقليش وهزم جيشه وقتل ولده فى المعركة. وكان لمفعول هذه المأساة عند ما آل الحكم الى «أوركا» و «طيريسا» أختى الامير شانجه اثـر خطير في سير حملة الاسترجاع ووحدة شبه جزيرة الاندلس .

المراجع المعروفة المستعملة

ولم تكن توفرت لدينا لحد اليوم مصادر عامة فيما يتعلق بوقعة أقليش اذا استثنينا من الجانب العربي كتاب «روض القرطاس» المشبوه فيه ومن الجانب المسيحي كتاب «التاريخ العام» وكتاب الاسقف دون رودريغو. فكتاب «روض القرطاس» ينص على ان «تميم» شقيق علي بن يوسف وولي غرناطة قد خرج لتخريب الاقليم المسيحي فحاصر اقليش واستولى على ربضها بعد ما طوق القصبة. وقد عزم الفونس على ارسال جيشه لنجدة القلعة فعينت الملكة ولده قائدا على الجيش لان الجيش المسلم كان بقيادة ابن الملك تميم بن يوسف بن تاشفين. ويؤكد صاحب هذا الكتاب ان تميما لم يرد ان ينتظر خوفا من وصول قوات النجدة وانه عزم على الدخول فى القتال عملا بنصيحة القائدين ابن فاطمة وابن عائشة اللذين غدراه عند ما أكد له أن عدد الفرسان القشتاليين لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف وان هؤلاء يوجدون على بعد مسيرة يوم وقد كان النزال مريرا للغاية فتغلب المسلمون وقتل ابن الفونس ومعه 23000 من المسيحيين القتلى وتم الاستيلاء بالاغارة على أقليش . وحزن الملك ألفونس لمصرع ولده حزنا شديدا فمات بعد عشرين يوما.

أما رواية دون رودريغو الذى نقل وترجم «التاريخ الاول العام» ان امير المسلمين قد سار لمحاصرة أقليش عند ما كان الفونس قد أنهكه المرض وتقدم به السن . ولما عجز الملك عن الذهاب بنفسه الى نجدة المدينة أرسل الكونت غرسيا أوردونيث وكبار القوم والفرسان بمملكته مع ولده شانجه الذى كان لا يزال آنذاك طفلا يافعا . وعند ما اقترب هؤلاء من أقليش خرجت جماعة كبيرة من المسلمين المتغلبين على المحاصرين فانتشروا وواجهوا الجيش المسيحى الذى اضطر الى التراجع امام قوة العرب الذين شدوا حصارهم على الجناح الذى كان يوجد به الكونت والامير الصغير.

ولما جرح الفرس الذى كان يركبه الامير شانجه صاح هذا فى الكونت قائلا: «أبى أبى، ان الفرس قد جرح» فاجابه هذا: «انتظر حتى تجرح انت ايضا» وفى الحين هوى الفرس فسقط معه ابن الملك على الارض. عند ذلك نزل الكونت ووضع الامير بين جسمه وترسه بينما الموت ينشب اظفاره فى كل الجهات . وكان الكونت فارسا محنكا فكان يحمى الامير بترسه من جهة وبسيفه من جهة اخرى ويقتل من المسلمين ما استطاع ان يقتل . الا ان رجله قد قطعت فى النهاية فلما لم يستطع الصمود سقط على شانجه حتى يموت قبل ان يموت الامير .

ولنا اعتراضات كثيرة على الروايتين . فالاعتراض الاول يوحي به كتاب «التاريخ العام» نفسه اذ يقدم الينا بعد ذلك الفصل الملئ بالحماسة واعمال الفروسية فصلا آخر واقعيا عند ما يقول ان كونت كابرا والكونت دون مارتين وغيرهما من كبار القوم واغنيائهم الذين مكثوا بصحبة الامير فى مكان يسمى «سبع كونديس» قد تفرقوا عنه وغادروا ميدان القتال فرارا من الموت . غير ان المسلمين طاردوهم فلحقوا بهم فى ذلك المكان وحاصروهم ثم قتلوهم .

ومن العجيب المدهش ما جرى عليه صاحب «التاريخ العام» من التوفيق بين الروايتين دون ان يتنبه الى استحالة المطابقة بينهما . الا ان مصدرا عربيا جديدا لم يسبق نشره قد أكد ووضح صحة الرواية القشتالية الثانية ايضاحا لا يترك مجالا للشك او الارتياب .

الاضافات الجديدة

وكان أبو محمد ابن القطان اديبا يحظى بحماية الخليفة المرتضى السابق آخر الخلفاء الموحدين فاهدى للخليفة عددا من كتبه منها كتاب «نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من اخبار الزمان». الكتاب عبارة عن مجموعة موسعة للحوادث التاريخية لا يحتفظ منه فى الوقت الحاضر الا بالجزء الثالث عشر فى حالة رديئة للغاية . الا ان هذا الجزء يحتوى على معلومات قيمة للغاية حول السنوات الاخيرة من حكم المرابطين والاعوام الاولى من سيطرة الموحدين اى من سنة 500 هجرية الى سنة 533 .

أما ابن القطان الذى يكتب بعد انصرام قرن ونصف على موقعة أقليش فيستهل كلامه مؤكدا ان الاتفاق قد تم بين ابن ابى رنقى والي قرطبة وبين غيره من قادة الاندلس على القيام بتلك المعركة . وهو يثبت فى كتابه نبا غريبا هو خبر وجود «ألفار فانيث» فى البرتغال وكفاحه للمشركين. غير انه يتوقف فجأة عن هذه الرواية فى مطلع الصفحة الثالثة لينتقل فى غير نظام الى اثبات الوقائع التى جرت سنة 511 و 508 و 503 ليعود فى الصفحة السابعة الى وصف موقعة أقليش عام 501. ثم يقول فيما بعد وفى غير ارتباط بما سلف ان المسلمين قد أغاروا على أقليش فلما اقتحموها لجأ المسيحيون المعتصمون بقسمها الاسفل الى القصبة العليا وان الفونس قد أرسل ابنه مع عشرة آلاف من الفرسان لنجدة المدينة وصد الهاجمين . وقد سار بصحبة الامير «ألفار فانيث» و «غرسيا أردونيث» الملقب بالفم الاعور. وقد

هاجم المسيحيون جيش قرطبة وطاردوه بضعة اميال. الا ان حاكمي مرمية وبلنسية قد هاجما المعسكر المسيحى فنهباه وقتلا المدافعين عنه قبل أن يقعا من الخلف على القشتاليين. أما تميم بن يوسف والي غرناطة فقد هجم من الخلف بصحبة اهل قرطبة فكان لهم الفتح. وتوالت مطاردة المغلوبين حتى حصن بلشون الذي يقال ان الامير شانجه قد حاول الاختفاء فيه مع ثمانية من المسيحيين فاذا باهله المسلمين يخرجون عليهم ويقتلونهم. وحاول الغالبون فيما بعد ان يغيروا على قصبة أقليش فلم يفلحوا . غير انهم تظاهروا بالانسحاب فلما خرج المحاصرون منها بقصد الفرار قتلهم المسلمون واسروهم فخلصت لهم قصبة أقليش .

واذا كان هذا المصدر هاما فهناك مصدر آخر لا يقل اهمية وهو الرسالة التى وجهها تميم قائد الحملة الى اخيه علي عند ما كتب له النصر. وقد اكتشف صديقى وزميلى عبد العزيز الاهوانى الاستاذ بجامعة القاهرة فى مكتبة الاسكوريال اثناء وجوده باسبانيا سنة 1948 المخطوطين الواقعين تحت الرقمين 488 و 489 والمتناولين لموقعة أقليش واحتلال الفونس الملقب بالمكافح لمدينة سرقسطة. علاوة على وقعة «كوليرا». ولم يسبق لهما ذكر فى «المكتبة العربية الاسبانية» لصاحبها «كاسيرى» ولا فى «ديوان التصنيف» لصاحبه «درمبرغ»

وقام الاستاذ حسين مؤنس مدير «المعهد المصرى للدراسات الاسلامية» فى مدريد بدراسة ذينك المخطوطين فى تاليفه حول «الحدود العليا للاندلس فى عهد المرابطين وسقوط سرقسطة فى ايدى المسيحيين سنة 512 (1118) حسب اربع وثائق جديدة» .

اما الوزير ابن شرف كاتم سر الامير والى غرناطة فقد حرر رسالة باسم سيده يقول فيها ان تميما قد أعد الحملة بأمر من أخيه علي وخرج من غرناطة فى العشر الاواخر من رمضان ـ من 2 الى 12 ماى 1108 ـ فتلقى الجدات فى طريقه الى أن وصل بلدة بياسة وعند ما دخل بلاد العدو توجه مباشرة الى أقليش عاصمة الناحية التامة التحصين. وقد بدأ الهجوم يوم 14 شوال (27 ماى) على البلدة الواقعة فى سفح الجبل الذى تعلوه القصبة. واقتحم المهاجمون البلدة فنهبوها بعد ان لجأ المدافعون عنها الى القصبة فى نفس ذلك اليوم وفى اليوم التالى.

وفى تلك الاثناء جمع الفونس قواته وبعثها بصحبة ابنه ضد المضربين للحصار. وقد ترأس الكتيبة «الفار فانييث» الذى سار معه كل من «كونت

كابرا» و «غرسيا أوردنييث» و «قواد طليطلـة» و «قلعة النسور» و «قلعة عبد السلام». وكان في قبضة النصاري شاب مسلم أسر في طفولته وجعلوه في خدمتهم فانتقل الى معسكر المرابطين وأطهرهم علـى كـل المعلومات المتعلقة بقوات النجدة القشتالية. وعلى اثر ذلك عقد تميم مجلسا عسكريا مع والي مرسية وبلنسية فاتفقوا على المقاتلة بعـد تقويـة المعسكـر وتعزيز الحرس ووسائل الدفاع ضد حامية البلدة اذا عزمت هذه الحامية على الخروج اثناء النزال. وقد بدأ المسيحيون الهجوم فأرغموا قوات قرطبة التى كانت تسير في الطليعة بقيادة واليها على التراجع . وكان القتـال شديدا جـدا بعـد ان بارز أحد الابطال المسلمين بطـلا نصرانيا فكـان اسقاطه له ايذانا بالنصر القريب. وقد استمر القتال حتى انهزم المسيحيون واخذت مؤخـرة جيوش تميم تطاردهم وتقتل العدد الكبير منهم قبل الاستيلاء علـى اسلاب ومغانم كثيـرة .

وأمر تميم بجمع رؤوس القتلى الاعداء وعدهم فاجتمع منها ثلاثة آلاف كان من بينها راس الكونت غرسيا أوردونييث ورؤوس القادة الطليطليين . ونادى المؤذنون بالصلاة على تلك الاجمة المكونة من رؤوس القتلى. أما تميم فقد عاد قبل انتهاء عملية العد وترك واليى مرسية وبلنسية يواصلان حصار القصبة التي لم تكن قد استسلمت بعد عند كتابة تلك الرسالة .

وهناك مصدر جديد آخـر هـو الشـذرات المرابطية من كتاب «البيان المغرب» لابن عذارى الذى لم يستند عليـه لحـد الآن الا «لوفى بروفنسال» ليبين ان والدة الامير شانجه كانت زوجة المأمون بـن المعتمد وان تميما قد توقف بعد الوقت في جيان الى أن لحقت به قوات قرطبة وغيرها من الجهات وان جيش النجدة المسيحي كان يتكون من سبعة آلاف فرس بدلا من عشرة آلاف التى ذكرها صاحب «نظم الجمان» علاوة على تكذيبه لما ورد في «روض القرطاس» الذى ذكر ان عدد القتلـى المسيحيين ثلاثـة وعشرون ألفا بينما الرسالة الرسمية للامير تميم تثبت ان عدد القتلى النصارى لم يتجاوز ثلاثة آلاف فقط .

تقـويـم النصـوص ونقـدهـا

وليس من الصعب علينا بعد دراسة المصادر المذكورة والمقارنة بينها ان نكتشف الاخطـاء والاكـاذيب ونتحقق مما هو صائب من المعلومات ونعرض اطارا لهذا الحدث التاريخي يكون اكثر وضوحا وبيانا مما توصلنا اليه لحد الآن .

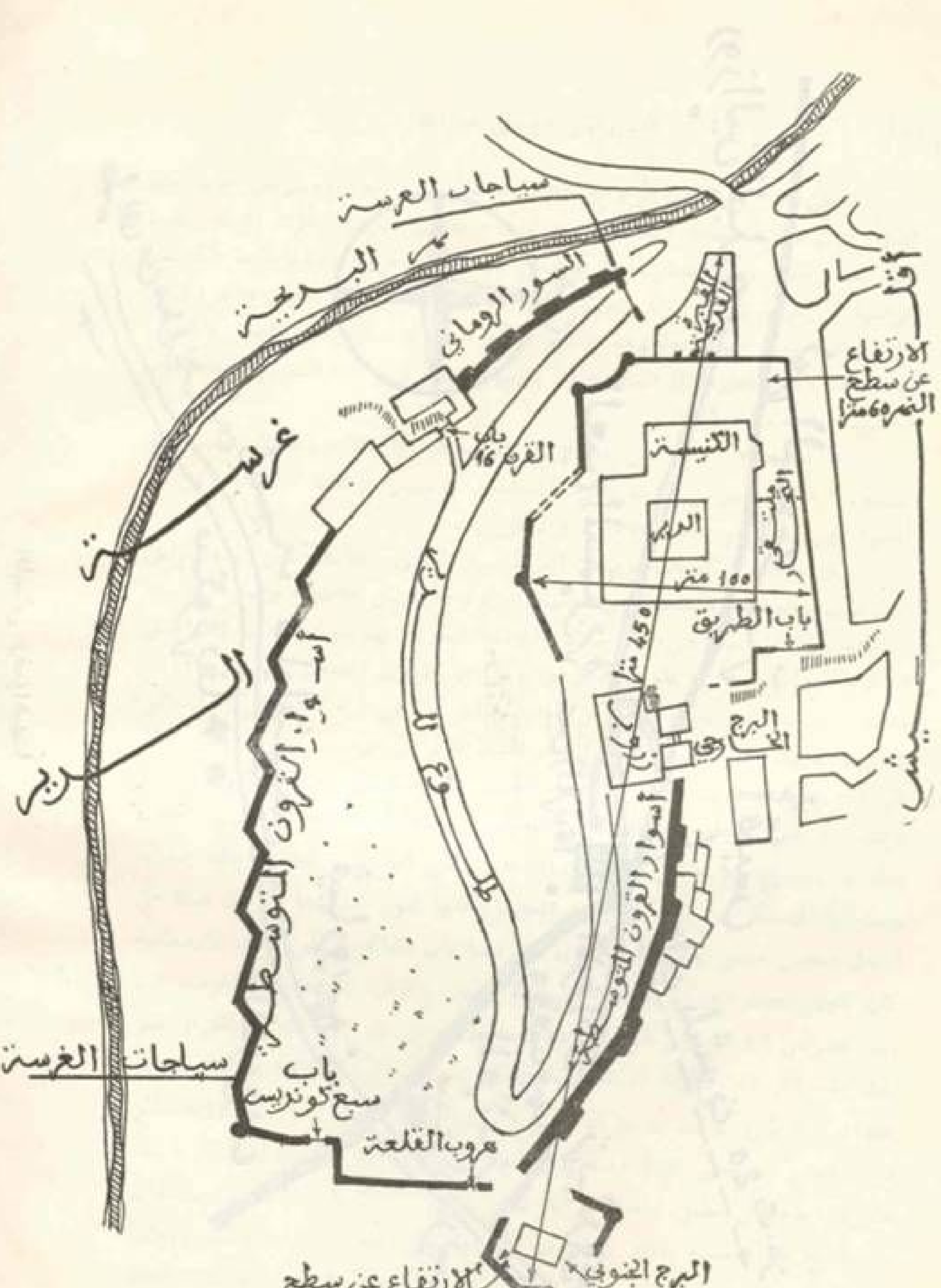
فنحن اذا نظرنا في الرواية اللاتينية للاسقف ضون رودريغو خيمينيث الذي كتب تاريخه سنة 1243 أي بعد قرن ونصف من حدوث الموقعة على التقريب وجدنا ان الاقصوصة تجتاح ميدان التاريخ لتقدم الينا الكونت غرسيا أوردونييث على أنه رجل بلغ الغاية القصوى في النبل والفروسية والشجاعة بينما يصفه خصومه بالنزول الى مستوى مخجل من العجز والجبن والحسد. ومن المعلوم ان العاطفة قد لعبت دورها في كلتا الحالتين فانطلقت اناشيد الحماسة انطلاقا .

اما الرواية الثانية من «التاريخ العام» فتترك الاقصوصة الحماسية لتصف لنا في غموض كيف طارد المسلمون الامير ورفاقه السبعة الى أن لحقوا بهم فقتلوهم بعد المحاصرة والتطويق .

وان صاحب كتاب «روض القرطاس» الذي يخلط على الدوام بين المعلومات والوقائع المستقاة من المصادر الموثوقة وبين الاخطاء والخيال ليبدأ تاريخه بارتكاب خطأ في ذكر سنة الموقعة فيقول انها جرت سنة 502 من الهجرة مع أنها حدثت عام 501. وهو يوغل في ميدان الخيال عند ما يقول ان الامير شانجه قد انتخب بطلب من أمه ليخلف اباه في قيادة الجيش القشتالي لمقارنته بجيش المرابطين الذي كان برئاسة تميم بن يوسف بن تاشفين. وان الرزانة التي جعلت هذا الامير يعقد جلسة عسكرية مع واليي مرسية وبلنسية نظرا لخطر احتمال قيام المحاصرين بمهاجمة الجيش من الخلف عند ما يشتبك مع جيش النجدة والتدابير التي اتخذها لتفادي تلك الحالة وصيانة المعسكر من ذلك الخروج المحتمل كلها أمور اعتبرها المؤلف عملا من أعمال الجبن. وهو يصل الى القول افتراضا بأن القائد الاعلى لتلك الارسالية كان يجهل عدد الجنود الاعداء وقيمتهم فاغتر بأقوال قواده في الموضوع . فهو يفترض انه لم يكن في مستطاع ذلك الجيش ان يجد طريقا للفرار عبر تلك السهول القشتالية الشاسعة. وفجاة يصف الامير بالاقدام واستنفاره للقواد المرابطين. وعند ما يؤكد مصرع الامير شانجه يذكر أن عدد الخسائر في الجيش المسيحي ثلاثة وعشرون ألفا وان الملك الفونس قد مات حزنا بعد عشرين يوما من مقتل ولده مع انه عاش بعده ثلاثة عشر شهرا حيث مات يوم فاتح يوليه سنة 1109. وهو في النهاية يقف على الرسالة التي بعثها تميم ليخبر اخاه عليا بالنصر. ونحن نتوفر على هذه الرسالة لحسن الحظ وسندرسها فيما بعد .



اقليش وضواحيها


سباجات الغرسة
البرجة
السور الروماني
غرسة البربر
الارتفاع عن سطح النهر ٦٥ مترا
الكنيسة
باب الطريق
١٥٥ متر
البرج الخارجي
أسوار القرون الوسطى
سباجات الغرسة
هروب القلعة
البرج الجنوبي للحصن
الارتفاع عن سطح النهر ١٥٥ متر

حصن اقليش

أما صاحب كتاب «نظم الجمان» الذى يتحفنا بمعلومات فريدة عدة، فهو لا يبالغ كما يبالغ صاحب «روض القرطاس» عند ما يقول ان الجيش المسيحى كان يتوفر على عشرة آلاف فارس بصحبة «ألفار فانييث» والكونت «غرسيا اوردونييث» الذى يلقبه بالفم المعوج كما يلقبه ابن بسام. وهو يطيل مدة هزيمة القرطبيين حتى يتمكن واليا مرسية وبلنسية من الاغارة على المعسكر المسيحى ومهاجمة العدو من الخلف.

وحرر تميم رسالته بنثر مسجوع مثقل بالاستعارات البديعة المألوفة. ورغم الجمل الفارغة المنسقة فى ذكر الوقائع الهامة فهى اكثر المصادر توفرا على المعلومات الثابتة وان كان الكاتب الذى أملاها قد حرص دائما على الاشادة بعمل المرابطين وعلى الخصوص رئيسه الامير تميم. اما النسخة المحفوظة من تلك الرسالة فى الايسكوريال فتنص فى مطلعها على انها كتبت باسم قائد من قواد الغرب دون ان يوفق الى الاستنتاج بأن ذلك القائد هو تميم الذى نقل فى تلك السنة من حكم الغرب الذى كان مقره فى فاس الى حكم الاندلس التى كانت غرناطة قصبتها. وهو لا يذكر اى شيء عن تطويق الجناحين كما يشير الى ذلك ابن القطان ولا يذكر موت الامير شانجه وظروف مصرعه لكونه انسحب من أقليش على عجل قبل ان يتم احصاء القتلى تاركا لواليي مرسية وبلنسية مهمة ارغام قصبة أقليش على الاستسلام.

موقع اقليش

أدرك المرابطون مدى قوتهم وعظم أقدامهم بمصرع «السيد» واسترجاعهم لبلنسية فقرروا مهاجمة قشتالة من جناحها الشرقى واختاروا أقليش أول هدف لهم. وكانت أقليش بلدة «سيلتيبيرية» تأثرت بالرومانيين حتى احتفظت بكثير من النقوش اللاتينية وكانت تسمى «باغوس أوكولينسيس» فتحول هذا الاسم الى أقليش. وعند ما انقرضت «سيكوبريغا» انتقلت عاصمة ناحية «سانطابيريا» الى أقليش حيث ثار الفتح بن موسى بن ذى النون على عبد الرحمن الاول سنة 160 وجعلها قاعدة حكمه وشيد بها بنايات عدة. وفيها قتل محمد الثالث الملقب بالمستكفى وهو ابن عبد الرحمن الثالث عند ما خلع من الخلافة الاموية سنة 416 وفر متنكرا فى زى امرأة.

أما صاحب كتاب «الروض المعطار» فيصفها على أنها مدينة تتوفر على قلعة فى حدود الاندلس وتقع على ضفاف نهر «البديجة» الذى ينبع من هضبة «رأس المدينة» ثم يخترقها. وعلينا ان نفهم هذا القول على أنه يشير الى «فوينطى ريدوندا» (العين المستديرة) وجريانها حتى تبلغ أقليش نفسها

وقد قمت فى خريف سنة 1953 بزيارة الحصن لاقف على أوصافه وأدرس ميدان الموقعة. أما القصبة فتحتل ارضا مرتفعة تمتد من الشمال الى الجنوب ويسهل وصفها فى التخطيط المرفق بهذا البحث اكثر مما يتيسر بمعلوماتى الاثرية الضئيلة لاننى لم أستطع التمييز الا قليلا بين بقايا حصونها ومعرفة ما كان منها رومانيا او مسلما او مسيحيا. وان التخطيط الصغير لضواحى أقليش ليشير الى أسماء الاماكن والميدان الذى جرت به المعركة حسبما هو مأثور. وقد ذكر له كاتب دير أقليش «ضون ديماس بيريث راميريث» الذى رافقنى وارشدنى والذى يرجع اليه الفضل فى وضع التخطيطين ان منبع العين المستديرة يوجد على كيلومتر ونصف من المدينة وانها تغذى نهر «البديجة» ولها شكل مستدير. وربما كانت هذه العين هى التى تغذى الحمامات التى يتحدث عنها صاحب «الروض المعطار»

القول النهائى

وأريد الآن بعد دراسة تلك المعلومات وتقويمها ان أوفق بين الوقائع حسب صحتها لاصل الى عرض لهذا الحدث التاريخى يكون اقرب الى الحقيقة بقدر الامكان .

فقد تكلف تميم بن يوسف شقيق الامير علي بتعبئة الارسالية وقيادتها العليا وخرج من غرناطة فى العشر الاوائل من ماى 1008 ـ فى العشر الاواخر من رمضان 501 ـ متوجها الى جيان وبياسة وقد التحقت به فى الطريق قوات قرطبة بقيادة واليها ـ ابن ابى رنق ـ ثم قوات مرسية بقيادة فاتحها المشهور «ابن عائشة» شقيق علي ثم فى النهاية بقوات بلنسبة بقيادة واليها «ابن فاطمة» .

وبعد مسيرة عشرين او خمسة وعشرين يوما وصلت كل تلك القوات أمام أقليش فى اليوم السادس والعشرين واليوم السابع والعشرين من ماى ـ 14 شوال ـ فحاصرت تلك المدينة ثم اقتحمها دون ان تستطيع ان تقاوم مقاومة كبيرة. أما الكنائس فقد أحرقت وجعل بعضها مساجد بعد أن نهبت ثرواتها. وقد استقبل المسلمون الذين كانوا يعيشون بأقليش فى ذمة

المسيحيين اخوانهم فى الدين باعتبارهم محررين لهم. وقد لجأ الى القصبة كل من استطاع ان يلجأ اليها من المدافعين والسكان. أما المحاصرون للبلدة فقد عادوا الى معسكرهم حيث قضوا ليلة الخميس تاسع وعشرين ماى. فعزم على الخروج لمنازلة العدو وتعزيز حراسة المعسكر التعزيز المتعين ولما علم تميم بان جيش النجدة المسيحى قد اخذ يقترب عقد اجتماعا عسكريا المطلوب.

وفى ساعة مبكرة من صباح الجمعة 29 ماى خرج المرابطون لمواجهة القشتاليين على بعض المسافة من أقليش فسار أهل قرطبة فى الطليعة وكان أهل مرسية وبلنسية فى الجناحين بينما كان الغرناطيون فى قلب الجيش بقيادة تميم. وفر احد الاسرى المسلمين من البلاد المسيحية فاطهر الجيش المسلم على كل المعلومات المتعلقة بفريق النجدة.

ووصل القشتاليون مع الامير شانجه بقيادة «الفار فانييث» و «غرسيه أوردونييث» وعدد من علية القوم والضباط بناحية طليطلة ووالي «قلعة النسور» وقلعة عبد السلام الى ميدان القتال.

وحمل المسيحيون الذين بدأوا بالهجوم على قوات قرطبة فهزموها هزيمة لم تكن تامة بحق. عند ذلك أخذت جحافل مرسية وبلنسية القشتاليين من الجناحين فطوقتهم واقتحمت عليهم معسكرهم. واعاد تميم الكرة مع قومه واهل قرطبة لما نظموا صفوفهم فاضطر القشتاليون بعد مقاومة مريرة يائسة تكبدوا فيها خسائر عديدة الى التراجع لما رأوا أنفسهم محاصرين. وقد جاء فى الرسالة الرسمية ان عدد الخسائر ثلاثة آلاف قتيل أما «الفار فانييث» فقد انسحب ببقية جيشه الى مدريد وطليطلة بينما كان الاقطاب السبعة - ومنهم غرسية أوردونييث - يحاولون الالتجاء بحصن بلشون القريب والاختفاء فيه . الا ان المسلمين الذين كانوا يسكنون ذلك الحصن خرجوا عليهم فقتلوهم. ويظهر ان اجمة قد جعلت من رؤوس المسيحيين القتلى كما حدث فى موقعة الزلاقة فاعتلاها المؤذنون لينادوا الناس للصلاة .

أما كتاب «التواريخ الطليطلية» فيقول ان المعركة قد دارت يوم السبت 30 ماى بينما تنص رسالة تميم على ان المعركة قد جرت يومى الاربعاء والخميس 27 و 28 منه. ويستنتج من ذلك القول فيما يظهر ان المعركة ومصرع الامير شانجه وكونت كابرا قد حدثا يوم الجمعة 29 ماى .

وعاد تميم على عجل الى غرناطة بدلا من ان يواصل محاصرة قصبة أقليش ويستفيد من ذلك النصر بتحقيق فتوحات أخرى . فقد ترك والي

مرسيـة وبلنسيـة مهمة ارغام القلعة على الاستسلام. وربما كان عدم توفـر الجيوش المسلمة على آلات الحصار والمصاعب الناتجة عن تلك الاسوار المنيعة مما جعل المسلمين يتظاهرون بالانسحاب حتى اذا ما عم الطوقون بالجلاء عن القصبة سعيا فى النجاة فاجأهم المسلمون فقتلوهم وأسروهم وتمكنوا بهـذه الكيفية الوحيدة من دخول القصبـة .

ولست أزعم أن ما ورد فى هذه النهاية حق من الوجهة التاريخية غيـر أننا بفضل هذه المعلومات نتوفر على عرض معقـول لذلك الحدث المؤسف من أحداث حملة الاسترجاع فى انتظار العثور على مصادر جديدة تؤكد صحة تلك الوقائع او كذبها او تأتى بايضاحها.

وفيما يلى النص العربى من الفقرة الفريدة من كتاب «نظـم الجمـان» مـع اثبـات رسالـة تميـم وان كـان الاستـاذ حسين مؤنس قـد نشرهـا لان قلة ذيوعها بين المؤرخين الغربيين والايضاحات التى تمكنت من اضافتها لها بفضل مصادر اخرى تبـرر فى نظـرى العودة الى اثباتها نظرا لاهميتها الكبرى بالقياس الى تاريخ عصورنا الوسطى.

نـظـم الـجـمـان

ومنها الجهاد فى سبيل الله تعلى الذى كانت فيه وقعة أقليش بالاندلس وافتتاحها وهى من غر الوقائـع وجليلها، وشـرح شأنها ان ابن ابى رنغى صاحب قرطبة فى ذلك التاريخ، وجماعة الرؤساء بالاندلس خاطـب بعضهم بعضا فى النهوض الى أقليش وكان البار هانش النصرانـى بجهة برتقال وقتله لهم وعيشه فى بلاد الشرك بتلك الجهة وعزل تاشفين بن سليمن عن قرطبة وولاية محمد بن يونان اياها ...

عساكر المسلمين الى أقليش فاقتحموها عليهم ولجأ من كان أسفلها من النصارى الى القصبة العليا ونزلت جميـع العسـاكـر عليهـا واحاطوا بها فأرسل اذفونش ابنه بنحو عشرة آلاف فارس لاعانة أقليش ومدافعة المسلمين فأتوا والتقوا مع المسلمين وتصافت عند ذلك العساكر وكان مع ابن أذفونش البار هانش وغرسيـا أردونس وهو المدعو بالفم المعوج وغيرهما من صناديد الكفرة فتوقفوا وذكروا ان النصارى تساءلوا عـن عسكر قرطبة فأخبروا به فهجموا على عسكر قرطبة وحملوا عليهم حملة منكرة فانهزم عسكر قرطبـة ومشت الهزيمة عليهم أميالا، ثم ان ابن عائشة وابـن فاطمـة وهمـا صاحبـا مرسية وبلنسية هاجمـا محلة النصـارى فانتهباها وقتلا من وجدا فيها. ثم

ركبا اقفاء النصارى بالقتل وهم يتبعون المسلمين. ثم التام بهم تميم بن يوسف صاحب غرناطة بعسكره وكرة المنهزمة ورجعوا على المشركين والتحمت الحرب بينهم فانهزم المشركون وقتلوا قتالا ذريعا واتبعهم المسلمون الى قرب حصن بلشون، فيذكر ان ابن أذفونش أفلت في ثمانية من النصارى ولجأ الى حصن بلشون وكان فيه له رعية من المسلمين فاختفوا عندهم رجا ان يسلموا من القتل فقتلوهم وقتل منهم ولد اذفونش، ثم ان المسلمين رجعوا الى قصبة أقليش وقتالها وتصعب عليهم أمرها فاقلعت العساكر عنها وكمنت على بعد فخرج من فيها هاربين، فقبض عليهم فقتل من قتل، وأسر الباقون ودخلت أقليش وحصات بأيدى المسلمين واستشهد في هذه الوقيعة الامام الجزولى وكان رجلا صادقا وجماعة من الاعيان والعربان رحمهم الله تعالى.

رسالة كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب الى أمير المسلمين رحمه الله فى فتح أقليش اعاده الله بقدرته .

أطال الله بقاء أمير المسلمين، وناصر الدين، عماد الانام وعتاد الاسلام، السعيد الايام، الحميد المقام، كبيرى بالقدر وظهيرى على الدهر، الذى أجله بحقه وأقر له بسبقه، وادام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة مجدد النمو والزيادة. والحمد لله الجبار القهار الذى شد الازر وأمد النصر، وأعطى الفلج عن فسر، ففلق عنه يد الماطل، وفرق بين الحق والباطل، والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الايام، ونصر بسيفه الاسلام، وغاظ به الكفار، وجعل عليهم الكرة فولوا الادبار، والله تعالى يشفع سعوده ويضمن مزيده، وينصر جنوده بمنه .

ولما ان وضعنى امير المسلمين ادام الله نصره حيث شاء من آله التشريف والعز المنيف، وألحقنى من النعماء وأسحبنى أذيالها، وصرف الي من عدده وبلده ما أولانى نعمه وولانى كرمه، حفظت تلك الحرمة وشكرت لاستزيد من تلك النعمة، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد عالقا بسببه آخذا بمذهبه، وهيأت من ماله عندى جيشه الموضوع بيدى، واجبت داعى الله باعظم نية على اكرم طية، لعزمة بيمناه رأسها وعلى تقواه أساسها وأصلها، وصرت عن حاضرة اغرناطة حرسها الله فى العشر الاواخر من شهر رمضان المعظم بجيش تصم صواهله وتظم كواهله، وراياته خافقة وعزماته صادقة ونبراته على ألسنة السعد ناطقة .

ومررنا من طاعة أمير المسلمين، وناصر الدين، علـى جهـات سمعـت منادينا، وتبعت هادينا، وانقـادت وراءنـا باعـداد وامداد، برزوا من كمون، وتحركوا عن سكون، وانخنا بناحية بياسة، وقد توافد الجمع وملىء البصر والسمع، واخذت فى الرأى اخمره، والعزم اضمره، والذيل اشمره، وجـددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به، وابتهلت اليه داعيا ضارعا، وعولت فى كل امورى على حكمه خاضعا متواضعا .

ولحقنا بطرق بلاد العدو اعادها الله، فوطئناهـا من هنالك، وقد بان عنوان الاهبة، والتأم بنيان الرتبة، وسرنا بجيش يفيض، على أرض تغيض، غيضا، ولسيول الخيل اغراق، ولبروق البواتـر اشراق، وقد نطقت ألسنة الاعنة بقدام قـدام، واشرقت كواكـب الاسنة فى عتام القتام، وسدت الهبوة كل نهج وسبيل، واستقلت الرايات عن كل قبيل بقبيل، وافضت بنا الخيرة الى المدينة الحاصنة أقليش قاعدة القطر، وواسطة الصدر، ذات العدد العديد، والسور المشيد، فبدر السابق، وشفع اللاحق .

وغدونا ليوم الاربعاء لاربع عشرة ليلة خلت من شوال، فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها، واكتنفنا اكتناف الشيخة لسبطتها، وبهـت القـوم، واتسع البحر عن العوم، وحاروا وخاموا، حين راموا، وجئنا بكل ضرب من الحـرب، نخسف عاليها وننسف هاويها، ونلزها بالرماح، ونهزها هز الغصن فى ايدى الرياح، حتى فض الختام، وغض منه الابهـام، وعجـل الله بالنصـر وفتحها بالقسر، ونفخ فى سورهم، ودارت دائرة السوء بدورهم، ومحقتهم السيوف محق الربا، واذرتهم ريح النصر فصاروا هبا، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيـد، واخـذتهم فجاتنا اخذة، ونبذت بهم سطوتنا نبذة، فخروا الى الاذقان، وسيقوا الى الموت والاذعان، فما كدنا ننزل، حتى كدنا ذلك المنزل، وما أنخنا حتى رضخنـا، ولا وصلنـا اليـه حتى حصلنـا عليه، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر فيهم القتل، واجتث منهم الاصل، وضـاق بهـم المزدحم، وغص ذلك الملتحم، قصر الوقت المبغـت وشغل الاخيذ عـن المفلـت، والهى الكثير عمن قل، ونام الجم الغفير عن الفل، وعادت بقاياهم بقصبة المدينـة فولجوها كما يلج العصفور، ويقوم العثور، قد غلقوا الابواب، واسدلوا الحجاب ونحن نصل الجد ونوحر ... (1) لافل غرب، ولا'مكث حرب، نجتث الجرائم،

---

1) بياض بقدر كلمـة

وتحتز الغلاصم، وتخرب الديار وبنياتها، وانهدم البيع وصلبانها، وتتناحف بهدايا السبايا، وتتكاشف عن بقايا الخبايا، وتصرح بنيانا صدعته الحتوف وغلبته السيوف، فلأطلاله هـدم وعلـى رسومـه ردم، حتى علا على الشرك الايمان، وبدل الناقوس بالاذان، وزحزحت الهياكل عن موضعها، وطرحت النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا، فناشدونا بالملة وحرمتها، وكشفوا لنا عـن الخلة وسدتهـا ، وفـروا من المحلة الى المحلة ، فأوينا شاردهم واقمنا قاعدهم ، فانجابت كربتهم ، وعادت بعد البوار ومجاورة الكفار بشر دار ملتهم، وانار لهم الاسلام على منار الايمان المجدد واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد، وكشف الدين عن مضمره، وخطب الحق المبين على منبره.

واقمنا بقيـة يومنا على ذلك الى ان خـام النهار، وحـان من الشمس الاصفرار ، فعند ذلك ارحنا البواتر، وغيضت تلك الدماء الهوامر وغدا الخميس فى الخميس، مبنيا على ذلك التأسيس، يجر أذيال الظفر فى العـدد الاوفـر، يشفع الاولى بالتوالى، ويشترى العول بالعوالى، فاصبحنـا فى عـز وأنس واصبحوا لا ترى الا مساكنهم كأن لم يغنوا بالامس.

وتضامت تلك العصبة الى تلك القصبة، والقـوم فى السجن، والحصن فى الحصر ، كالواحد فى العالم والاصبع فى الخاتم، والحصور مأسور وصاحب الحائط مقهور، ولم نزل نوسعهم قتالا ونوسعهم ضرا ونكالا مسافة اليوم الى ان جزر النهار مدة، وبث الليل جنده، فعدنا الى محلنا وقد أمل الكال أينه ، وغلبت الساهر عينه، وكنت لم آل احتراسا للمحلة بطلائع تحرس جهاتها وتدرأ آفاتها، وفى القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر، ولكن كفاية الله خير من توقينا

وكان الطاغية زاده الله ذلا قد حشد اقطاره وحشـر انصاره، وابعـد فى الاستصراخ مضماره، وعبأ جيشا قد أسرا الى ذمر، وانطوى على غمر، فأقدم وصمم، وبئس ما تيمم، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أذفونش وصاحب شوكتهم البر هانش والقمط بقبدرة (1) وقواد بـلاد طليطلة وصاحـب قلعـة النسور وقلعة عبد السلام وكل قاص ودان، وعاجل واخزى الله جميعهم وطـل نجيعهم ولا اقام صريعهم.

وهذا دعاء لو سكت كفيته ــ لانى سألت الله ربى وقد فعل

---

1) كونت كابرا

وطرقوا من طرق مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفا تحت الغرة وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا ، وارسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيرا واقتنوه اسيرا ، ولله تعالى فيه خبأة اعدها من عنده وبعثها لجنده، ونزع الفتى الينا من معسكرهم منبئا بهم دالا عليهم . وكاشفا بهم عن النبأ العظيم، ومطلعا منهم على المقعد المقيم، فعند ذلك ثارت ثائرتنا، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا، وقام القاعد واشار البنان والساعد، وتضام القريب والتباعد، والليل قد هدأ، والصبح قد بدأ، والدياجير ممدودة السرادق ، مجموعة الفيالق، ولا جار الا الفاسق ولا مار الا السما والطارق ، وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ذوى النصيحة والاراء الصحيحة ابا عبد الله محمد بن عائشة وابا محمد عبد الله ابن فاطمة والبى اعزهما الله. فجالا فى مضمار وساع واضطلاع، بذرع وذراع، فاجتمعنا على كلمة الله. متعاقدين، وخضعنا الى حكمه مستسلمين، فعند ذلك حل يده المحتبى، وقيل يا خيل الله اركبى، فعادت الاراء بالرايات، وحكمت النهى فى النهايات والاسنة تجول فى امادها، والنصول تصول فى اغمادها، وثرنا كما ثار الشهم بفرصته، وطار السهم لفرضته، وامرت رجالا بلزوم المحلة فسدوا فرج ابوابها، ولاذوا بأوتادها واسبابها، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الاسوار ، قد شرعوا الاسنة من اطرافها، واجالوا البواتر فى اكنافها واضاقوا الافنية، وقاربوا بين الاخبية، وعبأنا لجيش يمناه ويسراه، وصدره ولهاه، وساقته واولاه .

ونهضنا بجملتنا من محلتنا، والصبر يفرغ علينا لامه، والنصر يبلغ الينا سلامه ، وتوجهنا الى الله نقتفى سبيله، ونبتغى دليله، فما رفع الفجر من حجابه، ولا كشر الصبح عن نابه، حتى ارتفعت الوية الدين سامية الاعلام ، واتسعت اقضية المسلمين ماضية الاحكام ، وقيض الليل خمسه ، وفضح الصبح نفسه، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراك ريعان، ولاخفاق الاعلام ضراب او طعـــان .

وعند ذلك نجم العجم فى سواد الليل وإزباد السيل، يهطعون الى داعيهم، ويهرعون الى ناعيهم، فى دروع كالبوارى، ورماح كالصوارى كانما شجروا باللديد، وسجنوا فى الحديد، يزحفون والحين يعجلهم، ويركبون والموت يؤجلهم، يتلمظون تلمظ الحيات قد تحالفوا ان لا يتخالفوا، وتبايعوا ان يتشايعوا، ووصلوا الى مقدمتنا، وكان هناك القايد ابو عبد الله محمد بن

ابى رئق (I) مع جماعة، فصدمهم العدو بصدور نمرة وقلوب اشرة، فأنخوا بكلكل اورموا بجندل، وشدوا فما ردوا وصادروا فما صدوا، وتقهقر القائد ابو عبد الله غير مول وتراجع غير مخل الى أن اشتد منا يطود، وزحم من جيشنا بعود.

فتراءى الجمعان، وتدانى العسكران، وامسكنا ولاجبن، ووقفنا والاناة يمن، فعند ذلك ثار النصر فمد يمناه، واتى الصبر فاشرق محياه، ونزلت السكينة، واخلصت القلوب المستكنة، واهتزت الفيالق مائجة، وهدرت الشفاشق هائجة، وجحظت العيون غضبا، وطلبت البواتر سببا، وأذن الحديد بالجلاد، وبرزت السيوف عن الاغماد، وتصاهلت الخيول وتطاولت القبول، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة القبر، بين الورد والصدر، فبرز فارس من العرب، فطعن فارسا منهم فأذراه من مركبه، ورماه بين يدى موكبه، فانتهج ما ارتج، وانفتح المبهم وافصح المعجم، فعند ذلك اختلطت الخيل، بل سال السيل، واظلم الليل، واعتنقت الفرسان، واندقت الخرصان ودجاليل القتام، وضاق مجال الجيش اللهام، واختلط الحسام بالاجسام، والارماح بالاشباح، ودارت رحى الحرب تغر بنكالها، وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها، فلشغر الصدور ابتراد، ولجزم القلوب اتهاد، فلا وضح النهار، ولا مسخ الغبار، حتى خضعت منهم الرقاب، وقبلت رؤوسهم التراب، واتصلت الهلك بالشرك، وعادت الضالة الى الملك، وقلم ظفر الكفر، وطالت ايمان الايمان، وفر الصليب سليبا، وعجم عود السلام فكان طيبا، وغمرهم الحتف فهمدوا، وأطفاهم الحين فخمدوا ومات جلهم بل كلهم، وما نجا الا أقلهم، وحانوا فبانوا، وقيل كانوا، وكشفت الهبوات، وانجلت تلك الهنات، عن رسوم جسوم قد قصفتها البواتر، ووطئتها الحوافر، خاضعة الخدود عاثرة الجدود، واخذت ساقتنا فى الطلب وضم السلب الى السلب، وملئت الايدى بنيل وافى الكيل، خيلا وبغالا وسلاحا ومالا، ودروعا آكلهم حملهم، واثقلهم جملها، فساءت ملبسا وصارت محبسا، فطرحوها كأنهم منحوها، والقوها كأنهم أعطوها احتزناها نهبا، وأخذناها كأن لم تكن غصبا، لقطة ولا نكر، وعطية ولغيرهم شكر، ثم امرت بجمع الرؤوس، فاحتيزت الدانية وزهد فى جمع النائية، فكان مبلغها نيفا على ثلاثة آلاف منهم غرسية اوردونش والقومط وقواد بلاد طليطلة واكابر منهم، لم يكمل الآن البحث

I) فى الاصل زنقى

عنهم، فكانت كالهضب الجسم، بل الطود العظيم، وأذن عليها المؤذنون ، يوحدون الله ويكبرون، فلما جاء نصر الله، ووهب لنا فتح الله شكرنا مولى النعم ومسديها، ومعيد المنن ومهديها، وصدرت غانما وابت سالما، وبقى القائدان محاصرين لحصن أقليش آخذين بمخقهم مستولين على رمقهم، فخاطبت امير المسلمين ادام الله سروره، ووصل حبوره، معلما بالامر، مهنيا بالنصر، فلنحمد الله عز وجل على ما وهب، ونشكره على ما سنى وسبب، والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد، ويمن بالظفر والتاييد فهو ولى الامتنان والملى بالفضل والاحسان، لا رب غيره ولا معبود سواه .

البيان المغرب لابن عذارى

الجزء الثالث ـ تاريخ المرابطين

الصفحة العشرون

وفى سنة احدى وخمس مایة ورد الامير أبو الطاهر تميم بن يوسف بغرناطة واليا عليها فاطمانت النفوس وهجدت العيون بملكته وظهر به جمال دولته ونظر الامير أبو الطاهر باسباب الغزو واحسن الى الجند وخرج منسلخ شعبان المكر من العام فلما احتل الجيش مدينة جيان تلوم بها الامير أبو الطاهر أياما حتى وردت عليه الجيوش والعساكر من قرطبة وغيرها واستقبل على حصن أقليش فاضطربت المحلات باراية وانتشرت الحروب عليه الى أن دخله عنوة وامتنع اهله فى قصبته والحرب محدقة به وخلال ذلك وصل اليه ولد اذفونش شانجه من زوج المامون التى كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس فكانت بينه وبين جيوش المسلمين حروب يطول ذكرها كانت الدايرة فيها على الروم مات فيها شانجه بن اذفونش اخزاهما الله ورجع الامير أبو الطاهر الى أغرناطة. قال ابن الصيرفى فكان ذلك دليل اليمن والبركة بولاية علي بن يوسف فى أول دولته وكانت الوقعة على الروم وموت شانجه المذكور شوال وفى اخر هذا العام مات اذفونش لعنه الله تعالى.

غييرمـو غواسطافينـو غاييـنـت

الموضوعات الاسلامية فـي التصنيف العشرى العالمى

تثير ضرورة تنظيم المؤلفـات المتعلقـة بالشؤون الاسلامية فى المكتبات العربية والمكتبات الاوربية المحتوية على أقسام هامة فى هذا الموضوع سلسلة من المشكلات الفنية التى لم يوضع لها حل لحد الآن ومشكلات أخرى لم تبلغ الى تبين امكانية ذلك الحل فى معظم الحالات .

فلتكـن هـذه السطـور اثباتـا لهـذه القضية الهامة فى بعض المكتبات الاسبانية ذات الاهمية الحيوية بالنسبة الى العالم الاسلامى .

مشكلـة التصنيـف

يقف كل من يقضى السنوات العديدة فى توجيه مصالح المكتبات العربية أو المكتبات المتوفرة على الكتب التى تتناول الموضوعات الاسلامية على صعوبة جمع تلك الكتب وتصنيفها وفق طريقة التصنيف الغربية .

وقد وقف صاحب هذه السطور على تلك الصعوبة عند تحريره «لقائمة مواد المكتبة العامة بتطوان» طبقا للتصنيـف العشـرى العالمـى المستعمل فى المكتبات التى يديرها قيمون اسبانيون. وظهرت الصعوبة جلية واضحة عند ما أردنا قائمة المواد للقسم العربى من المكتبة المذكورة. وقد تذاكرنا عـدة مرات فى هذا الموضوع مع رئيس ذلك القسم (وهو موظـف مغربـى تكـون حسب طريقتنا الخاصة بالمكتبات) وتحادثنا كذلك حول صلاحية وضع هذه المشكلة وامكانية حلها بصفة عامة لا على أساس خاص بمكتبتنا.

وتفرغ ذلك الموظف السيد أحمد المكناسى لدراسة تلك القضيـة التـى تعرض لها بحرصه الفنى فى العرض الذى قدمه الى «المؤتمر الاول للسجلات والمكتبات والملكية الفكريـة» الـذى عقدتـه اسبانيـا ودول امريكـا اللاتينية والفيليبين بمدريد فى شهر اكتوبر سنة 1952.

فما هى الصعوبة يا ترى فى تطبيق طريقة التصنيف العشرى العالمى على الكتب الاسلامية ؟ ان الصعوبة تتلخص فى أن هـذه الطريقة التى تتـوق الى ان تكون «عالمية» والتى هى عالمية فى الحقيقة الى حد ما لانها تطبق فى أقطار مختلفة طريقة أعدتها عقول عالمية لم تكن تفكر الا فى المشكلات المترتبـة عـن التصنيف فى مكتبات العالم الغربى .

ومعظم هذه المكتبات لا تتوفـر الا علـى أقليـة من الكتـب التى تتناول الموضوعات الاسلامية ويمكن تصنيفها طبق الوسائل المتوفرة لدى «التصنيـف العشرى العالمى» (ت ع ع). أما فى المكتبات التى يتكون رصيدها من الكتب الاسلامية فقط أو تتوفر على أقسام هامة مختصة بتلك الموضوعات فان طريقة التصنيف العشرى العالمى طريقة ناقصة فى الوقت الحاضر لكونها لا تتوفـر على الارقام لبعض الموضوعات الاسلامية التى لا يوجد لها ما يقابلها مقابلـة حقيقية صادقة فى الثقافة الغربية كالادب والفقه والحديث مثلا. وتتطلب هذه الموضوعات فى معظم الحـالات أرقامـا مركبـة لتصنيفها تكون سببا فى وضع دلائل طويلة تزيد من غير ضرورة فى حجم القوائم واشغال القيمين. ومع ذلك فهى قلما تصل الى الوضوح والدقة المتوفرين فى طريقة «التصنيف العشرى العالمى» عند ما تتناول الموضوعات الخاصة بالثقافة الغربية.

وأمام هذه الحالة يمكن تصنيف الكتب الاسلامية تبعا لاحدى هذه الطرائق الـثـلاث .

أ) ايجاد طريقة تصنيفية خاصة تكون قابلة للتطبيق فقط على حاجيات المكتبات أو أقسام المكتبات المتوفرة على الموضوعات الاسلامية. وسيؤدى سلوك هذه الطريقة الى تعدد طرائق التصنيف فى حين ان الغاية المبتغاة هى ايجـاد طريقة توحيدية تكون صالحة لكل مكتبات العالم. ومع ذلك فستضطر المكتبات المتوفرة على الموضوعات العامة والاسلامية الى اتخاذ طريقتين مختلفتين فـى تصنيف قوائمها .

ب) استغلال المبادىء الاساسيـة لاحـدى طرائق التصنيف الموجودة كطريقة التصنيف العشرى العالمى وادخال بعض التغييـرات الخاصـة بالمواد الاسلامية فيؤدى ذلك الى احداث تغيير عام فى تلك الطريقة. وهذا الحل فى نظرنا هو أسوأ من الحل السابق لانـه سيلغى الخاصيـة العامـة التوحيديـة للطريقة المستعملة وسيحدث ازدواجا فى قـوائم المكتبـات التى تتوفر على رصيد مختلط من المؤلفات .

ج) استغلال احدى طرائق التصنيـف الموجـودة (طريقة التصنيف العشرى العالمى فى حالتنا) وتمديد بعض الارقام المتعلقة بالموضوعات الاسلامية مع المحافظة على تبسيط الاعداد دون ادخال اى تغيير على الارقام الاخرى من ارقام التصنيف حسب تلك الطريقة. وهكذا يمكننـا ان نحافظ على الصبغة العالمية لتلك الطريقة مع الحاقنا بها لقسم الموضوعات الاسلامية .

تغييـر يـوسف أسعـد داغر

وسيحس بهذه المشكلة التى ندرسها الآن فى مكتبات العالم العربى كل قيم او مدير يشعر بالرغبة فى اتخاذ الطرائق الغربية فى تنظيم المكتبات التى تتوفر على اغلبية من المؤلفات الاسلامية .

وهذه هى حالة السيد يوسف أسعد داغر عضو المكتبة القومية اللبنانية ببيروت الذى تكون تكوينه الفنى فى فرنسا. فقـد حـرص على اذاعة طريقة التصنيف العشرى العالمى فى الاقطار العربية ونشر سنة 1947 كتاب «دليل الاعارب الى علم الكتب وفن المكاتب» عرض فيه القوائم المختزلة لتلك الطريقة التصنيفيـة .

غير أنه أحس بعدم مطابقة تلك الطريقة للموضوعات الخاصة بالثقافـة الاسلامية فأدخل بعض التغييرات التى اعتبرها مناسبة لاتخاذ تلك الطريقـة من طرف المكتبات العربيـة. أما التغييـرات فتتنـاول علـى الخصوص ثلاثة موضوعات هى : الدين وعلوم اللسانية او اللغوية والادب .

أ) أدخـل السيد يوسف أسعد داغر التقسيمات الثانوية من الفصل الثانى لطريقة التصنيف العشرى العالمى على الكيفية التالية :

2 **الـديـن**

20 الاديـان عامـة
21 الدين الطبيعى
22 الدين المسيحى
23 الكتـاب المقـدس
24 الاعمـال الراعوية
25 الكنيسـة
26 الديـن الاسلامى
27 القـرآن الكـريـم
28 الفقه او الشرع الاسلامى
29 الدين الاسرائيلى ــ الاديان الاخرى

أما وضع مجموعات المواد الاسلامية فهو كما يلي حسب تصنيف السيد يوسف أسعد داغر :

26 الديانة الاسلامية

01 فلسفة الديانة الاسلامية ـ اركان الديانة الاسلامية
02 مختصرات في الديانة الاسلامية
03 موسوعات ومعاجم دينية اسلامية
04 محاضرات ومجادلات دينية اسلامية ـ ابحاث شتى
05 مجلات دينية اسلامية
06 الجمعيات الدينية الاسلامية ـ المجالس الملية ـ المؤتمرات ـ درس الديانة الاسلامية وتعليمها الخ.
07 مدارس دينية اسلامية
08 مجاميع تآليف في الديانة الاسلامية
09 تاريخ الديانة الاسلامية
1 نبي الاسلام (حياته ـ اعماله ـ تعليمه ـ المدائح النبوية ـ السيرة ـ الصحابة)
2 الخلافة
3 علم الكلام والتوحيد (وحدانية الله ـ القضاء والقدر الخ ...)
4 علم الفلك والميقات (التواريخ الهجرية الخ...)
5 الاعياد والمواسم الاسلامية
6 البعثات الدينية الاسلامية
7 المساجد والاوقاف
8 الطرق الاسلامية او الصوفية
9 الفرق الاسلامية
98 الفرق الشيعية
99 فرق الخوارج

27 القرآن الكريم

01 مباني القرآن الكريم
03 معاجم القرآن الكريم وفهارسه
05 ترجمة القرآن الكريم بلغات شتى.
06 تعليم القرآن الكريم .

07 تفسير القرآن الكريم .
08 ابحاث خاصة فى القرآن الكريم .
09 تاريخ القرآن الكريم وجغرافيته .

1 اجزاء القرآن الكريم ـ الآيات القرآنية
2 القراءة والتجويد
3 كيفية الصلاة : الاذان، الامامة
4 الحديث
5 مصطلح الحديث
6 شروح الحديث
7 الرسائل والمناشير الدينية الاسلامية
8 الاخلاق والفضائل والآداب الاسلامية
9 الخطب والمواعظ والادعية الاسلامية

28 الفقه او الشرع الاسلامى

01 اصول الفقه، فلسفته، نظرياته
02 مختصرات فى الفقه
03 معاجم الفقه وموسوعاته
04 ابحاث فى الفقه
05 مجلات الفقه
06 جمعيات الفقه
07 درس الفقه وتعليمه ـ مدارس الفقه
08 مجاميع تآليف الفقه الاسلامى
09 تاريخ الفقه الاسلامى

1 الفقه العام
2 المذهب الحنفى
3 المذهب المالكى
4 المذهب الشافعى
5 المذهب الحنبلى
6 المذهب الجعفرى
7 الزواج الطلاق
8 علم الفرائض اى المواريث
9 الفتاى

ب) علوم اللسانية او اللغوية

أما ما سميناه بتغيير يوسف أسعد داغر في المجموعة الرابعة من «التصنيف العشري العالمي» فهو تغيير يفوق سابقه فيما يخص الصبغة الثورية . فلننظر أقسام رقمين

4 العلوم اللسانية او اللغوية

40 اللغات
41 دراسة اللغات والمقارنة بينها
42 اللغة العربية
43 اللغات الحامية
44 اللغات الارالية الالتائية
45 لغات الشرق الاقصى
46 لغات افريقيا
47 لغات اميركا
48 لغات اوقيانيا
49 اللغات الآرية او الهندية الاوروبية

أما فيما يخص رقم 42 فان هذا التغيير يسير على العموم طبق قواعد التصنيف العشري العالمي

ج) آداب اللغات

أما القسم رقم 8 من تغيير داغر فهو لا ينسجم بحال مع وحدة التنصيف العشري العالمي بل يسير حسب رأى صاحبه الخاص لانه لا يقتفى الموازاة الفنية الموجودة بين الاقسام الثانوية للفصل رقم 4 والفصل رقم 8. أما اقسام الرقمين فهى كما يلى :

8 آداب اللغات

80 الآداب عامة
81 الفنون الادبية
82 الآداب العربي
83 الآداب الفرنسي
84 الآداب الايطالي
85 الآداب الاسباني
86 الآداب الانجليزي
87 الآداب الالماني
88 الآداب اليوناني واللاتيني
89 الآداب الاخرى

أما الاقسام الثانوية للفصل رقم 82 فتجزأ بدورها حسب الكيفية التالية:

82 الآداب العـربـى
01 الآداب العربـى عامـة
02 الآداب الجـاهـلـى
03 الآداب النبـوى
04 الآداب الامـوى
05 الآداب العباسى والاندلسى
06 الآداب العربى فى العصـر المغولى
07 الآداب العربى فى عصر الانحطاط (العهد التركى)
08 الآداب العربى الحديث او عهد النهضة عامة
081 الآداب العربى الحديث فى سوريا ـ لبنان ـ فلسطين ـ شرقى الاردن
082 الآداب العربى الحديث فى مصر
083 الآداب العربى الحديث فى العراق
084 الآداب العربى الحديث فى الجزيرة العربية
الآداب الحجازى ـ الآداب اليمنى ـ الآداب الحضرمـى ـ الآداب النـجـدى
085 الآداب العربى الحديث فى شمالى افريقية
الآداب فى تونس ـ الآداب فى الجزائر ـ الآداب فى مراكش
086 الادب العربى الحديث فى المهجر
087 الاستشراق والمستشرقون

أما الاقسام الثانوية 82.1/82.8 فتطابق الاقسام التحليلية فى التصنيف العشرى العالمى . يشمل الرقم 82.9 «الآداب الحامية والساميـة الاخـرى» أما الرقم 82.92 فيشير الى الادب العبرى .

بعض التعليقـات حـول تغييـرات داغـر

وكيفما كان مصير هذا التغيير فى المستقبل فـان قراءتها المجردة كافية لاظهارنا على نقائصها وعيوبها. فرغم عرضه بكيفية مضبوطة للمواد الخاصة بالثقافة العربية فله نقائص الحلول الـواردة فى الفصل (ب) والتـى سبقت الاشارة اليها .

وبالفعل فان كل اتخاذ لطريقة عالمية كما هى طريقة «التصنيف العشرى العالمى» يجب ان يقوم على احداث التطور لا على ادخال التغيير. فالمكتبات التى قد تستعمل طريقة داغر ستقضى على صبغة العالمية لطريقة التصنيف العشرى وستحدث رقمين مختلفين للتصنيف لكل مادة حسب اتخاذ الطريقة الاصلية او الطريقة المبتدعة .

وهذا الاعتراض كاف ليرغمنا على اعادة عرض المشكلة الناتجة عن وجود المواد الاسلامية فى «التصنيف العشرى العالمى» وعلى البحث عن حل يمكن ان يرضى الشرقيين والغربيين بتراجع الجانبين عن بعض وجهات نظرهما للعثور على شكل موفق لا يغير طريقة التصنيف صاحبة التداول العالمى.

ومن الحق ان طريقة «التصنيف العشرى العالمى» لا تعطى مجالا كبيرا لغير الديانة المسيحية بل تجمعها تحت رقم 29 وتغير نفس الاهمية التصنيفية للميثولوجيا اليونانية والرومانية المنقرضة وللديانتين الاسلامية واليهودية الحيتين مع العلم بان الاولى ديانة عدة ملايين من البشر وتوجد حولها كتب عديدة جدا فى مختلف اللغات. ولما كان احد المقاصد الاساسية لطريقة «التصنيف العشرى العالمى» هو تكوين رأى موحد فى تنظيم المكتبة الدولية وكان هذا القصد بينا ظاهرا اذا استثنينا وقوع الاتفاق على تغيير ذى صبغة دولية كذلك فان ضرورة ابقاء ارقام التصنيف الحالية ضرورة واضحة كذلك.

وعلى كل حال فلا يمكننا ان نتضامن مع التعديل الذى ادخله السيد داغر عند ما جمع فى الارقام 22/25 كل المواد التى أدرجتها طريقة التصنيف العشرى العالمى فى الارقام 22 الى 28 ولا فى تحويل الارقام 26 الى 28 للمواد الاسلامية . نرى من الصائب ادراج الفقه الاسلامى فى المجموع الدينى لانه ليس لهذه المادة ما لها من الصبغة الذاتية اللادينية فى العالم الغربى.

أما فيما يخص علوم اللسانية او اللغوية لتغيير السيد داغر فانه لا يلغى فقط وحدة الشكل لطريقة التصنيف العشرى العالمى بل انه يحشر اللغات الاوربية فى مستوى مساو ــ ومنخفض فى بعض الاحيان ــ مع لغات اخرى تقل عنها تأثيرا فى الثقافة البشرية . وهكذا نجد ان اللغات الحامية التى لا يفصلها يرمز اليها برقمين بينما يرمز الى اللغات الفرنسية والانجليزية والاسبانية بثلاثة ارقام (493 و 496 و 495) على قدم المساواة مع لغتى الاسكيمو والملايو (489 و 482).

الا انه باتخاذه لهذه الطريقة لا يحافظ على الموازاة فى التقسيمين الثانويين 4 و 8 . فهو فى هذا الاخير يضع رقمين للآداب الاوربية الهامة

(وهى ارقام تصنيفية لا تنطبق مع ارقام التصنيف العشرى العالمى ولا مع ارقام تقسيمه اللغاوية ويجعل رقم 82 للآداب العربى .

وهذه الملحوظات كافية باعتبارها نموذجا من الملحوظات التى يوحى بها تعديل السيد داغر. واذا كان هذا التعديل غير مقبول فى نظرنا فلـه قيمة لا تنكر باى حال لانه محاولة محمودة لحل مشكلة لا تزال معقـدة لحـد الآن رغم الضرورة التى تدعو اليها فى ذلك القطاع المكتبى الواسع الهام . وعليه فالسيد داغر يقدم الينا قاعدة يمكن استغلالها لوضع اى حل قد يدرس فـى المستقـبـل .

نحـو حـل ممكن

ومن الضرورى ان تتطور طريقة التصنيف العشرى العالمى تطورا يرضى حاجيات المكتبات التى تتوفر على رصيد من المؤلفات الاسلاميـة على ان يأتى ذلك التطور نتيجة لاتفاق بين مديرى المكتبات الشرقيين والغربيين المستعدين لايجاد حلول ضمن اطار «الجامعة الدولية للوثائق».

وليس من خطل الرأى فى شىء ان نتمنى ان تكون اسبانيـا هى التـى تتقدم بمشروع ذلك الاصلاح نظرا لموقعها بين الغرب والعالم العربى. غير انه يتعين القيام سلفا ببعض الاشغال الاولية قبل تقديم ذلك الاقتراح المحتمل الى الهيئة الدولية ونحن نقدم ولو فى صورة بدائية هيكل تطور طريقة التصنيف العشرى العالمى فيما يتعلق بالموضوعات الاسلامية .

ونحن نرى من الضرورة ان يحترم الاصلاح ارقام التصنيف التى اتخذتها طريقتنا للمحافظة على خاصية التوحيد بين مختلف المكتبات ولمحاولة تبسيط الاعداد بتفادى الارقام المركبة وتلافى الارقام المعادة المكررة.

أ) الـديـن

وان المـواد التـى يضعهـا السيد داغـر تحت الارقام 26.01/26.09/ و 27.01/27.09 و 28.01/28.09 مواد يمكن ادراجها تحت ترتيب واحد من غير صعوبة. اما المواد التى تشتمل عليها الارقام 26.1/26.9 و 27.1/27.9 و 28.1/ 28.9 فيمكن جمعها وتبويبها على الشكل التالى :

297	**الاسـلام**
297.1	فلسفـة الاسـلام
297.11	الاسلام وقواعده الخمس
.12	الايمان والشهادة
.121	طرائق الايمان
.122	المحافظة على العقيدة
297.2	العقيدة الاسلامية
.21	الله
.211	ادراك الالوهية
.212	صفات الله
.22	المـلائكـة
.221	طبيعتهـم
.222	مهامهم واشغالهم
.223	الـجـن
.224	الشيـطـان
.23	العقائد حول كتب الوحى السابقـة للقـرآن
.24	العقائد حول الرسل والانبياء
.25	نبى الاسلام
.251	حياة محمد وسيرته
.252	المعجزات
.253	ابـنـاؤه
.254	خلافة محمد . الخلافة
.26	العقائد المتعلقة بيـوم البعث
.261	البعـث والحساب
.262	الـجـنـة
.263	الـنـار
.27	العقائد المتعلقة بالقضاء والقدر
297.3	طقوس العبادة
.30	مسائـل عامـة
.31	الـوضـوء

.32 الـصـلاة
.321 الظروف العامة للصلاة
.322 عناصر الصلاة
.323 كيان الصلاة
.324 الخطـبـة
.325 صلاة العيد والمناسبات الخاصة
.33 الاعياد الاسلامية
.34 المساجـد
.35 الاوقـاف
.36 الـصـوم
.361 كيفية صوم رمضان
.362 واجبـات الـصـوم
.363 الافطـار
.37 الصدقـة
.371 طبيعة الصدقة وشروطها
.372 أنواع الصدقات
.38 الـحـج
.381 طبيعة الحج وشروطه
.382 طقوس الحج
.39 بعض التحريمات حول التغذيـة

297.4 الصوفية

297.5 الاخـلاق الاسـلاميـة

297.6 الطرق الدينية . الطوائف

.61 الطرق
.65 الطوائف الاسلاميـة
.651 الطوائف الشيعيـة
.652 الطوائف الخارجية

297.7 التوسع الديني
.71 ارساليات التبشيـر
.72 الـجـهـاد

297.8 القرآن ـ الحديث
.81 القرآن . صحته واصوله
.82 تواريخه ومحتواه
.83 تكوين النص ونقله . قراءات القرآن
.84 تعليقات على القرآن
.85 تجويد القرآن
.86 الحديث

297.9 الفقه الاسلامى

.91 مصادره
.92 القانون العام
.921 الملوك والادارة
.922 المالية
.923 العدل ونظامه
.924 قانون المحاكمات
.925 القانون الجنائى
.926 حقوق غير المسلمين
.93 حقوق الاشخاص
.931 الشخص الطبيعى
.932 الاشخاص القضائيون
.933 المؤسسات
.934 تغييرات الكفاءة على العمل
.935 انعدام الرشد
.936 الوصاية
.937 النيابة
.938 حقوق العبيد
.94 الزواج
.941 عقد الزواج
.942 صلاحيته
.943 حل الزواج
.944 نظام الاسرة

.95 الملكيــة
.951 ملكية المياه والمناجم
.952 الملكية المشتركة والتراجع فى العقود
.953 أشكال اشتراء الملكية
.954 ضياع الملكية
.955 الحيازة
.957 الخــدم
.96 العقــود
.960 نظرية عامــة
.961 التصنيف
.962 عقد المجتمع ــ كراء الاراضى
.963 البيــوعـات
.964 الهـبـة
.965 الــكــراء
.966 الــديــن
.967 ايداع الامانات
.97 المــواريــث
.971 طريقة الاثبات الشرعى
.972 الــوصــايــا

وقــد رأينا فيما سبق ارقاما تصنيفيــة مكونة من ستة اعداد. غير اننا تفادينا الارقام المركبة والمكررة. ولا زالت هناك ارقام اخرى حرة سنستعملها فى أبواب اخرى لان ما سبق انما هو وضع بدائى للمواد القابلة للتصنيف.

ب) علوم اللسانية او اللغوية ــ ج) الادب

ومع الاعتراف بأن اللغة والادب العربيين يشغلان فى «التصنيف العشرى العالمى» مكانة أسفل من التى يستحقانها باعتبـار ذيوعهمـا وإنتاجهمـا فاننا نعتبر أنه فى الامكان أن يمكننا على الوضع الذى يوجدان عليه الآن لان العائق الناتج عن حدوث ارقام طويلة جدا لا يبرر بحـال النتائج المحصلة من ادخال ذلك التغيير التـام علـى الاقسام الثانوية للمجموعتين 4 و 8. وعلى كل حال فيمكن استغلال التقسيم الذى يضعه السيد داغـر للادب العربى وتطبيقه على تطوره التـاريخـى .

* * *

وبهذا نكون قد أشرنـا الـى التصنيـف العشرى الموجود بالنسبة الى المكتبات التى تتوفر على رصيد من الكتب الاسلامية مع ذكر بعض الاعتبارات العامة ووضع هيكل بدائى يمكن اتخاذه قاعـدة لدراسـة عميقـة نهائية. ولا يسعنا الا أن ننتظر ان يتم اجراء تلـك الدراسـة ويباشـر الحاقهـا بطريقة التصنيف العشرى العالمى .

عبد الله كنون

مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية كتاب مفيد جدا فـي تاريخ هذه الدولة وملوكها الاولين، عبد الحق وابنائه الاربعة ابـي سعيد وأبي معرف وابي يحيى وابـي يوسف، والاحداث الهامة التـي جرت فـي ايامهم سواء بالمغرب او الاندلس او المشرق، ومنها وفيات بعض الاعيان من علماء وغيرهم. ولذلك اصبح هذا الكتاب مرجعا معتمدا لدى الباحثين فـي هـذه الشؤون منذ قام بنشره الاستاذ المرحـوم محمد بن ابـي شنب فـي سنة 1920 بالجزائر .

ولم يقدم له الناشر المذكور بمقدمة يعرف فيها بالكتاب، وايـن وجده، وصفة المخطوطة التي ينشر عنها، وتاريخهـا، وما الـى ذلـك مما يعين على معرفة هوية مؤلفه الذي لم يذكر اسمه كذلك في هذه النشرة. ومن ثم فقد بقي هذا الكتاب المفيد مجهول المؤلف. وكلما اشيـر اليه فـي مناسبـة من المناسبات، وهي كثيرة، قيل انه لمؤلف مجهول.

ولقد كنت منذ تملكت هذا الكتاب وقرأته، وذلك لعدة سنين خلـت، اعتقدت انه اخو القرطاس وشقيقه، وان مؤلفهما واحد. وظللت كلما مررت بذكره ورأيت نسبته لمؤلف مجهول تعجبت من ذلك واستغربت عدم الاهتداء لمعرفة مؤلفه، مع ان جميع صفحاته تكاد تعلن بالحقيقة وتقول: انني من انتاج صاحب القرطاس؛ وهذا هو الذي جعلني الآن استعرض محتويات هذا الكتاب واسلوبه، وبعض العبارات الخاصة التي تعين شخصيـة مؤلفه، ممـا يعتبر دليلا قاطعا على أنه هو مؤلف كتاب القرطاس نفسه.

(فأولا) ان صاحب القرطاس الذي جعل كتابـه تاريخـا لملـوك المغرب ولمدينة فاس، كان معاصرا لدولة بني مرين يعيش في كنفها ويحيـى تحـت ظلها، وكذلك صاحب الذخيرة السنية. وقد انتهى بتاريخها في كتابه الجامع الذي هو القرطس الى مدة السلطان ابي سعيد بن ابي يوسف، وكذلك فعل

في تصميم كتابه الخاص، الذي هو الذخيرة السنية، فانتهى به الى مدة ابي سعيد هذا.. وانما قلت في تصميم كتابه، لانه قسم الذخيرة الى عشرة ابواب، الباب العاشر منها هو الخاص بابي سعيد ولكن ما طبع منها يقف عند الباب السادس المخصص للسلطان ابي يوسف. ولذلك جاءت هذه العبارة في آخر طبعة الذخيرة : «هذا ما وجد من هذا الكتاب» فهو في تصميمه كان ينوي ان ينتهي به كما انتهى في القرطاس عند دولة ابي سعيد ولكن الاقدار لم تساعده.. هذا اذا لم تكن المخطوطة التي نشر عنها الكتاب مبتورة فتكون هي الناقصة لا الكتاب. والى أن توجد نسخة اخرى منه لا نستطيع ان نجزم بشيء في هذا الصدد. على ان مؤلفنا الذي انهى كتابه القرطاس بالكلام على دولة ابي سعيد ووصفه بما يصف به المؤرخون المعاصرون ملوك زمانهم من تلك الاوصاف الضخمة، ودعا له كما يفعلون، بأحر الادعية، قد افتتح كتابه الذخيرة بذكر دولة ابي سعيد، ووصفه بنفس الاوصاف ودعا له تلك الادعية، فهو ان لم ينته اليه في آخر الكتاب، لم يغفل ان يجعل ذكره اولا. وبذلك تطابق الكتابان في نهاية تاريخهما لدولة بني مرين .

(ثانيا) ان ما يذكره الكتابان معا في اصل بني مرين ونشأة دولتهم متشابه جدا، لا في الرواية فحسب، التي من شأنها ان تتشابه في مثل هذه الحال، بل في المصدر والنسق والعبارة. فهما معا يبدآن بذكر مفاخر بني مرين ومآثرهم على الاجمال، وتأتي اثناء ذلك هذه العبارات التي يقول فيها المؤلف باللفظ الواحد : «أما بنو مرين فهم اعلى قبائل زناتة حسبا، واشرفها نسبا، واغزرها كرما، واحسنها شيما، وارعاها ذماما، وارجحها احلاما، واشدها في الحروب بأسا واقداما، واقواها دينا، واصحها يقينا، واوثقها عقدا، واوفاها عهدا، واوفرها عددا، واطولها في الشدائد يدا... الخ.

واذا كان المؤلف في الذخيرة يتوسع في هذه الحلى اكثر من القرطاس ويطرزها ببعض الابيات الشعرية المناسبة للمقام مما قيل فيهم من بعض شعرائهم، فان مما لا ينبغي ان يغيب عن الذهن ان الذخيرة كتاب خاص بمملكة بني مرين، وهو لذلك اوسع دائرة في اخبارهم وحوادث ايامهم، بل وتواريخ غيرهم من الممالك الاسلامية المعاصرة. فلا عجب اذا رأيناه يفيض حتى في مدحهم اكثر مما فعل في القرطاس. على أنه من الناحية الخبرية الصرف لا يخل في القرطاس بشيء مما يتعلق بدولتهم وان آثر الايجاز، فالقرطاس لا يقل فائدة عن الذخيرة مطلقا .

وبعد الانتهاء من تعداد هذه المناقب المجملة يتعرض الكتابان معا، كذلك لذكر «نسبهم الصريح وحسبهم العالي الصحيح» ويعتمدان في ذلك على النقل عن الفقيه ابى على المليانى فيرفعان نسب مرين فى عداد قبائل زناتة الكثيرة الى قيس عيلان. وتتوسع الذخيرة فتذكر اسماء هذه القبائل وابياتا من الشعر تشهد بصحة هذا النسب. ثم يتطرقان كلاهما لسبب تعجم السنتهم ورحلتهم عن بلاد العرب فى قصة ميثلوجية طريفة مخللة بالاشعار على العادة مع افاضة من الذخيرة وانفراد ببعض الفوائد كذكر أصل المرينيين الاشراف وبنى وطاس الذين يظن انهم من بنى مرين، وهم لمتونيون صنهاجيون يمنيون لا قيسيون، وانما انضموا الى زناتة بعد ذهاب دولتهم وقيام الموحدين عليهم. وبعد هذا يذكران أيضا «كيفية دخولهم للمغرب وظهور ملكهم السنى المعجب» فيسوقان الخبر سياقا واحدا لا يختلف الا فى بعض الزيادات التى تأتى بها الذخيرة مما يقتضيه مقام الاطناب والتوسع، ويستشهدان معا فى تاريخ دخول بنى مرين للمغرب ببيتين من الشعر من بحر الكامل سجل قائلهما ذلك التاريخ نظما، وكذلك بابيات من ارجوزة الملزوزى الشهيرة فى التاريخ ولا يلبثان حتى يختما هذا الفصل بعبارة واحدة هى هذه : «فضعف ملكهم (يعنى الموحدين) بذلك وضوى، وظهر امر بنى مرين واعتز وقوى»

(ثالثا) يساير القرطاس الذخيرة وتسايره فى كل ما يؤرخان به للملوك الخمسة الاولين من بنى مرين، فالتواريخ باليوم والشهر والعام هى هى فيهما، والاوصاف الخلقية والخلقية لهؤلاء الملوك متحدة تماما، والحوادث لا تختلف فى قليل ولا كثير، الا ما سبق ان اشرنا اليه من زيادة البيان والتوسع فى عرض بعض الاخبار التى عند الذخيرة.. وكل ذلك بعبارة تكاد تكون واحدة، بل ان ما ينقص منها فى احدهما تجده تاما فى الآخر، بحيث يمكن أن يوصى بتصحيح أحد الكتابين على الآخر اذا أعيد طبعهما ... ولا شك ان مؤلفا مهما بلغت جرأته فى السطو على آثار الآخرين، لا يستسيغ ان ينقل كلام غيره بنصه وفصه بل قل ان ينسخه من غير تبديل ولا تغيير وينسبه لنفسه. فلم يبق الا ان الكتابين معا هما لمؤلف واحد، يذكر فى القرطاس ما يناسب وضعه ومنهاجه، من كونه تاريخا لملوك المغرب من بنى مرين وغيرهم فيقتصر على المهم من الاخبار وما يخص موضوع التأليف. ويذكر فى كتاب الذخيرة ما يناسب فكرته وتصميمه من كونه تاليفا خاصا بمملكة بنى مرين فيستوعب ما ذكره فى القرطاس ويزيد على ذلك ما يقتضيه المقام من شروح وايضاحات.

ويلفت نظرك في هذا الباب بعض الاخبار الخاصة والجزئيات التي تميز هذا الكتاب عن ذلك، وبها تتفاضل الكتب فيما بينها، فانها واحدة في كل من القرطاس والذخيرة لا ينفرد واحد منهما عن الآخر بشيء منها. وذلك فيما يتعلق بملوك بني مرين طبعا.. فمثلا والد الامير عبد الحق كان ممن شهد غزوة الارك مع المنصور الموحدي متطوعا فعقد له على جميع من كان في العسكر من زناتة وابلى البلاء الحسن وتوفي متأثرا بجراحاته في تلك الغزوة، وعبد الحق كان «قليل الولد فريدا في العدد» فرأى رؤيا فسرت له بأنه يلد اولادا يملك المغرب منهم أربعة، وانه لما قتل في حربه مع عرب رياح اقسمت بنو مرين «الا يدفن حتى تأخذ ثأره، وتحمي ذماره، فحملوا على رياح حملة الاسد على الثعالب، وانقضوا في جيوشهم انقضاض البزاة في اليعاقب، وهزموهم !؛ هذا كله مما يتفق فيه لفظ الكتابين ومعناها ويدل على أن شخصية مؤلفهما واحدة .

وفي ترجمة الامير ابي يعقوب يذكر الكتابان معا من اوصافه ولا سيما شجاعته ما يقرب بعضه من بعض، ثم يعبران بهذه العبارة قائلين : «فهو كما وصفه صاحب الارجوزة» يقصدان شاعر دولتهم عبد العزيز الملزوزي وارجوزته التاريخية التي سبقت الاشارة اليها. ويأتيان بعد ذلك بخمسة ابيات من هذه الارجوزة في وصفه .

وفي ترجمة الامير ابي يحيى يتفق الكتابان على أنه لما قصد اليه السعيد الموحدي، وهو بمكناس، خرج ليلا وحده فطاف بعسكر السعيد ، فلما رأى ما هاله تخلى عن مكناس وبايع للسعيد، وانه لما طلب من هذا الاخير ان يمده بالعدد والعدة ويرسله لحرب يغمراسن، شاور السعيد وزراءه فقالوا له «لا تفعل، فان الزناتي اخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه فنخاف ان يصطلحا عليك ويجتمعا على حربك» وان اهل فاس بعثوا الى الامير ابي يحيى فبايعوه بالرابطة التي بخارج باب الشريعة، واخرجوا والي الموحدين عنهم فأمنه ابو يحيى وارسله في خفارة خمسين فارسا الى وادي ام الربيع ... كما انهم لما انتقضوا على واليه فقتلوه واراد الانتقام منهم قام اليه شيخ من بينهم يعرف بابن الخبا فدله على من تولى ذلك الفعل، وهم ستة اشخاص من بينهم القاضي فقتلهم واخذ سائر اشياخهم بغرم المال الذي اخذوه من القصبة لما قتلوا الوالي «فذلوا ولم يبق فيهم من يرفع رأسا بعدها الى اليوم» بهذه العبارة تقريبا في الكتابين معا.

وهكذا سجل الكتابان أيضا أخص الانباء عن السلطان ابى يوسف المنصور... وابرز ما يلاحظه المطالع لهما ان المؤلف لما اتى بهذا العنوان المتشابه : «الخبر عن سيره الجميلة ومآثره الجليلة» قال فى القرطاس : «نذكرها مختصرة وجيزة، ونقتصر منها على ما ذكر صاحب الارجوزة» وفى الذخيرة ما نصه : «اذكرها مختصرة وجيزة، من نظم صاحب الارجوزة «ثم اتى فى الكتابين معا بسبعة وعشرين بيتا من الرجزية خصصها الملزوزى لذكر يعقوب المنصور وسيرته. وحين عرضا لتاريخ سير هذا السلطان الى مدينة مراكش وحصاره بها للمرتضى الموحدى، استشهدا معا باربعة ابيات من رجزية الملزوزى. وفى جوازه الاول للاندلس وايقاعه بزعيم النصرانية ضون نونة ذكر الكتابان معا ان ابن اشقيلولة كان من جملة من هناه بهذا النصر المبين، وضمن كتاب التهنئة قصيدة عينية من وزن الكامل، فاورداها معا بنصها التام الا بيتين انخرما من نسخة القرطاس، وقد تكلمنا على هذه القصيدة ونسبتها فى غير هذا المحل (1) . ويطول بنا الكلام لو تتبعنا مثل هذه الجزئيات التى يتوافقان فيها بالنص والحرف من ترجمة المنصور، ونحن انما نريد ان نقول ان شخصية الكتاب، بمعنى خصائصه ومميزاته، من شخصية المؤلف. فلو اختلف مؤلف الكتابين لما توافقا الى هذا الحد الذى ذكرناه .

(رابعا) ترجم المؤلف فى القرطاس لبعض الاعيان من العلماء وغيرهم الذين توفوا أثناء هذه المدة، التى نشأت فيها دولة بنى مرين، كالعلامة ابن تاخميست والامير ابى مالك بن يعقوب المنصور، وسجل بعض الحوادث المهمة فى الاجتماع والعمران التى حصلت فى هذه الاثناء كوقوع الغلاء والقحط وبناء باب المحروق بفاس مع بيان سبب تسميتها بذلك وبناء سور مدينة بادس والمزمة ومليلة.. وكل هذه الامور مما اثبتته الذخيرة وبالعبارات نفسها التى وردت فى القرطاس .

(خامسا) بالرغم من ان الاسلوب الكتابى فى المؤلفين معا اسلوب عربى فصيح، لا يعكر عليه فى بعض المواضع الا التحريف الذى يرجع لعدم التصحيح وسقم النسخ الاصلية، فان المؤلف قد يستعمل بعض الكلمات العامية المغربية مما يجرى على الالسنة كثيرا ويستعمله الموثقون، والمؤلف منهم فيما

1) انظر الحلقة العاشرة من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب

يقال، رغبة في الايضاح، ونجد هذا في الكتابين معا.. وذلك كالقطائن بمعنى القيود والدخيل بمعنى الشفيع والمحلة بمعنى الجيش. فهما اذا يستمدان من مصدر واحد .

(سادسا) وهو اقوى الادلة : ان المؤلف لما تعرض لاولية بني مرين قال في القرطاس: «نقلت من تقييد الفقيه أبي على المليانى بخط يده» وقال في الذخيرة : «ذكر الفقيه الكاتب البارع ابو علي المليانى رحمه الله في نسبهم ما نذكره ان شاء الله، ونقلته من تقييد بخطه» وعند ما تكلم على دخول مرين للمغرب قال في القرطاس : «حدثني من اثق به من اهل التاريخ انه لما دخلت مرين المغرب تفرقت قبائلها في انحائه...» وقال في الذخيرة : «اخبرني من اثق به من اهل العلم والمعرفة بالتاريخ وأيام الناس، وهو الشيخ الفقيه أبو العباس بن الجبر، وادركته وقد اخذت منه السن للعالية : ان بني مرين، انجدهم الله تعالى، لما دخلوا المغرب تفرقت قبائلهم في جهاته وانحائه...» فزاد في الذخيرة تسمية الشخص الذى نقل عنه الحديث ومطط العبارة على عادته فيها وان كان المؤدى واحدا. وفي ترجمة الامير عبد الحق، وهو بصدد الكلام على اخلاقه وصفاته، يقول في القرطاس : «اخبرني الفقيه القاضي ابو محمد عبد الله بن الودون واخوه الفقيه ابو الحجاج يوسف، انهما قدما على امير المسلمين ابى يوسف بن عبد الحق رحمه الله في وفد اهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء بمدينة رباط الفتح، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وستمائة للسلام عليه حين قدم من حضرة مراكش يريد الجواز الى الاندلس برسم الجهاد فجرى في مجلسه رحمه الله ذكر والده الامير ابى محمد عبد الحق فقال امير المسلمين : كان والله الامير عبد الحق صادق اللسان...» ويقول في الذخيرة : «اخبرني الشيخ الفقيه القاضي المبارك ابو محمد عبد الله الودون انه قدم على امير المومنين ابى يوسف يعقوب بن عبد الحق المذكور في وفد اهل مدينة فاس..» فهذه احاديث تلقاها المؤلف مباشرة من رواتها وذكرها بصيغة واحدة في الكتابين معا، مما يدل دلالة قاطعة على أنه المؤلف لهما وانهما من انتاجه بغير شك ولا ريب.

هذا كله بالنسبة لمقابلة الكتابين ومحتوياتهما المتعلقة بتاريخ بني مرين، وثم ادلة اخرى منها :

(سابعا) ان مؤلف الذخيرة فاسي، كما يظهر لمن يتتبع كلامه فيها من اعتنائه بأخبار عاصمة العلم وذكره لرجالها وحركة العمران فيها واحوالها الاجتماعية وغير ذلك مع اظهاره لمزيد العطف وعظيم الميل نحوها مما لا يصدر الا ممن يكن لها ودا مكينا وحبا راسخا عملت على تكوينه وانمائه النشأة وطول السنين... وهكذا كان شأن صاحب القرطاس. الم يجعل مؤلفه القيم يحتوي على موضوعين اثنين : تاريخ ملوك المغرب ومدينة فاس ؟ وهاك مثلا ما يقوله في الذخيرة بشأن بناء المدينة الجديدة (فاس الجديد) عاصمة بني مرين : «وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت يمن وبركة ومزية، دل على طول بقائها، وكثرة عمارتها واتصال خيراتها، وما يجيء اليها من الاموال . فكانت والحمد لله مدينة مباركة. فاتخذها (يعقوب المنصور) دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده، يجيء اليها جميع خراج المغرب. ومن بركاتها وسعادتها ويمن طالعها انها لا يموت فيها خليفه، وانها لم يخرج منها قط جيش الا ظفر ولم يعقد بها قط لواء الا نصر، ومصداق ذلك ان امير المسلمين ابا يوسف الذى اختطها وبناها وشيدها وبنى اسوارها وجامعها واسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه توفي رحمه الله غائبا عنها في المدينة التي بناها امام الجزيرة الخضراء من بلاد الاندلس. ثم ولده الخليفة بعده أمير المسلمين أبا يعقوب توفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناها بتلمسان وهو محاصر لها فاستوطنها ومدنها واتخذها حضرته الى ان توفي بها على ما يأتي بيانه. وكذلك حفيده الخليفة بعده وهو الامير ابو عبد الله بن ابي يعقوب المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة. وكذلك اخوه الوالي بعده ابو الربيع سليمان فانه توفي ايضا بقصبة رباط تازة» .

وقد ذكر في القرطاس هذه المزية ايضا، ولكنه لم يستعرض اماكن وفيات هؤلاء الملوك. ونحن آثرنا ذكر نص الذخيرة بكامله لتأكيد ما قدمناه من أن تصميمها كان يشمل بقية ملوك بني مرين الى أبي سعيد الذى انتهى اليه القرطاس، فاما انه لم يتم وضعا واما ان النسخة المطبوع عليها كانت مبتورة... وعلى كل حال فان الكتابين هما من نبعة واحدة بهذا وذاك.

(ثامنا) تمتاز الذخيرة عن القرطاس كما قلنا بالتوسع في حكاية بعض الانباء المتعلقة ببني مرين، وذلك مما يقتضيه كونها كتابا خاصا بدولتهم، كما تمتاز بالتعرض لبعض اخبار الممالك الاسلامية في المشرق وترجمة بعض العلماء المشارقة بمناسبة ذكر وفياتهم، فمما تجده فيها من ذلك اخبار عن مملكة بني ايوب والحروب الصليبية، وهجمات التتار على بخارى وسمرقند

ثم بغداد وقتل الخليفة المعتصم العباسي وانقراض الخلافة العباسية مع ذكر مدة بقائها، وتراجم للفخر الرازي وابن الصلاح وابن الحاجب وامثالهم مما ينبىء عن ثقافة تاريخية واسعة تعد صاحبها لان يكون مؤرخا عموميا ومن اصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة... وهو ما يشير اليه ويتحدث به صاحب القرطاس حينما يحيلنا في بعض المواضع من كتابه المذكور على مؤلفه الكبير الذي سماه (البستان في أخبار الزمان) فما في الذخيرة من ذلك انما هو اثارة من علم هذا المؤرخ الضليع الواسع الاطلاع .

ويظهر ان تاليفه للذخيرة متاخر عن كتابيه المذكورين، فانه في القرطاس يحيل على البستان ولا يذكر الذخيرة، وبطبيعة الحال ان الخيرة اوفر مادة من القرطاس في موضوعها فلا محل للاحالة فيها عليه. واما عدم الاحالة على البستان في الذخيرة فلان ما يذكره من الاخبار العارضة الخارجة عن موضوع الكتاب انما هو تبرع منه فما قل منه يكون كافيا في توسيع دائر معلومات قارئه، واذا لم يكن مقصودا بالذات فلا موجب للاحالة على البستان ولا على غيره فيما لم يقع فيه الاستيعاب .

وبعد فان بالمكتبة الوطنية بمدريد اوراقا عدتها 15 صفحة من الحجم الكبير يوجد في اولها هذا العنوان : «ذكر الياقوتة الجلية، في الذرية السعيدية المرينية المباركة العبد الحقية (كذا) اطالها (كذا) الله تعالى وخلدها، واعلى كلمتها وايدها» وهي تشتمل على أولية بني مرين وأخبار الملوك الاولين منهم المترجمين في الذخيرة بمثل نسقها وبالعبارات نفسها الواردة فيها، ولكن على سبيل الاختصار مع تحريف بعض الاسماء والخطأ الشنيع في بعض العبارات، وهلهلة الاسلوب واضطراب حبل الارتباط بين الجمل... وفي نظرنا أن هذه العبارات المتشابهة ان لم تكن نقلا عن تاريخ سابق او تقييد رسمي استمد منه كل من صاحب القرطاس والذخيرة، وصاحب هذه الاوراق، فانه لا معدى عن ان تكون هذه الاوراق شبه اختصار للذخيرة من احد المتطفلين على التاليف... وعلى كل حال فلا علاقة بينها وبين مؤلفنا صاحب الذوق الفني الجميل وخاصة في تسمية كتبه. فاين يقع هذا الاسم المهلهل من اسم الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، وانظر الى التزام النون في السجعتين الذي تم به تناسقهما. ومن اسم الانيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ ملوك المغرب وبناء مدينة فاس، فانه أيضا اسم متسق تنسيقا بديعا ، وصاحبه لا يقول الياقوتة الجلية في الذرية السعيدية المرينية الخ...

•

وانما قلنا ان هذه الاوراق ربما كانت اختصارا للذخيرة لمسايرتها لها في الاخبار التي تتضمنها عن بني مرين مقتصرة على المادة التاريخية الخاصة بهم لا تتجاوز الى غيرها، ولاسمها هذا الذي يفيد انها تقف عند ابي سعيد ايضا وان كان الموجود منها يقف عند ابي يوسف، فكادت أن تكون مسخا من الذخيرة. وربما رجع وقوفها عند ابي يوسف كون الذخيرة لم تكمل وضعا وان المطبوع منها هو ما كتبه صاحبها الذي وضح انه هو صاحب القرطاس رحمه الله.

خوسي أغيليـرا بليغيتويلـو

وثائق تتعلـق بالسفـارة المغربية الـى البابـا

لـيـون الثـالـث عشـر

كان موضوع السفارة الشهيرة التى أوفدها السلطان مولاى الحسن بن محمد الى البابا ليون الثالث عشر بمناسبة اليوبيل الكهنوتى لتوليته محل دراسة مـن لدن كتاب عديدين ذوى كفـاءة وأهلية. وهذا المقـال اذ يأتـى بوثائق لم تنشر لحد اليوم ويحتفظ بها فى «الخزانـة التاريخيـة بتطوان» (وهى كلها وثائق مستخرجة من الارشيف السابـق للسيد الحاج محمد بن العربى الطريس الوزير الشهير لشؤون خارجية السلطان) فانما يحـاول ان يكون تتميما لتلك الابحاث ويشارك الى حد ما فى استجلاء حوادث التاريخ المذكـورة .

واولى الوثائق التى عثرنا عليها فى تلك الخزانة وتتعلق بهذا الحـدث الذى لم يسبق له نظير فى تاريخ الامبراطورية المغربية مؤرخة باليوم الرابع من شهر ربيع الثانى لسنة خمس وثلاثمائة وألف (20 دسمبر 1887) .

وكـان قد مر ما يزيد علـى خمسة شهور مـن الحيـرة والشك على المحادثات التى أجراها الراهب الاسبانـى الكبيـر الاب خوسي ليرتشوندى مع السلطان منتهزا قدومه الى الرباط بوصفه ترجمانـا ومستشارا للسفارة التى كان يرأسها الوزير المفوض السنيور «ديوسدادو» والتى كانت مجـردة عن مراسيم القصور فحدث السلطان خلالها عن أيام الحبـور والفرح التـى كانت تقترب بالنسبة للعالم الكاثوليكى بمناسبة أعياد اليوبيل لقداسة البابا ليون الثالث عشر .

وأبان ذلك العـالم والراهب المتواضع عن حمية وغيرة وهو الذى كان يعرف الشعب المغربى حـق المعرفة فتأثر السلطان بنصائحه وواعده بارسال سفارة الى صاحب القداسة على النحو الذى كان سيفعله غيـره مـن الملوك المسلمين .

أما الوثيقة التى وجهها السلطان الى الحاج محمد بن العربى الطريس فهذا نصها :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

(طابع مولاى الحسن بن محمد)

خديمنا الارضى الحاج محمد بن العربى الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فقد اقتضى نظرنا الشريف توجيه خديمنا الارضى القايد عبد الصادق ابن احمد الريفى سفيرا لعند رئيس البابليون بروما بقصد الحضور فى عيدهم وتهنيته ببلوغ فقاهته الى خمسين سنة وتجديد المحبة والمودة التى كانت بين اسلافنا المقدسين وبين الرهبان البابليون ورؤسائهم. وتعزيزه بكاتبنا الارضى الطالب احمد الكردودى واصحابه بالتحفة المبينة بالتقييد طيه للرئيس المذكور وبكتابنا الشريف لهذا الرئيس الواصلة اليك نسخة منه بطيه ايضا كما اقتضى نظرنا الشريف ان يكون توجهه على يد الصبنيول فى مركبهم وان يرافقه البدرى خوسي رئيس رهبان الصبنيول وهو الذى يترجم له المكاتيب الموجهة للباشدور فى هذا القصد وقد امرنا بالكتابة لباشدورهم فى ذالك بما فى النسخة طيه وعليه فتلاق انت والسفير المذكور مع الباشدور وتفاوضا معه فى ذالك وحيث توجه دولته المركب والرهيب المذكور يتوجه الخديم والكاتب المذكوران صحبة الرهيب المشار اليه وليكن ذالك منكم على وجه السر والكتمان بحيث لا يعلم احد بتوجهه ولا بالمحل الذى توجه له والسلام. فى 4 ربيع الثانى عام 1305 .

وتاريخ المكتوب الثانى هو ثانى عشر ربيع الثانى 1305 (28 دسمبر عام 1887) وهو نسخة من رسالة بعثها الحاج محمد بن العربى الطريس الى السفير الاسبانى وهذا نصها :

الحمد لله. نسخة من كتاب وجه لباشدور الصبنيول نصه

المحب العاقل الناصح الكبلير الساعى فى الخير بين الدولتين المحبتين منيسطر دولة الصبنيول الفخيمة المعتبر خسي ديزددوا كستيليوا بعد مزيد السؤال عن احوالك ومحبة ان تكون بخير على الدوام فلا يخفى عليك ايها المحب ان اسلاف مولانا المنصور بالله المقدسين كان بينهم وبين الرهبان البابا ليون رؤساء الرهبنة الفرنسيسكانية ما لا مزيد عليه من المحبة

والصحبة حتى انهم كانوا اعطوهم الحرية واباحة السكنى مع النصرى وكانوا يعاملونهم ويعينونهم على امور دينهم . ولاجل ذالك اقتضى شريف نظر مولانا نصره الله ان يقتدي باسلافه الكرام ويقتفي أثرهم في معاملتهم بذالك وأن يوجه خديمه الارضى الانجد الانصح القائد عبد الصادق بن احمد الريفي سفيرا لعند المحترم رئيس اساقفة الملة النصرانية الجالس على كرسي رئيس الحوارية لقضاء الدعاوى الدينية المعظم المفخم البابا ليون الثالث عشر لرومة ليحضر في العيد معه ويهنيه بما من به الله القادر عليه من بلوغ فقاهته الى خمسين سنة ويقرر له محبة الجناب الشريف كما يوجه له سائر الدول سفراءهم بقصد ذالك وان يعزز السفير المذكور بكاتب حضرته الشريفة الفقيه الارضى الانبل السيد احمد الكردودى وان يصحب معه السفير المذكور الكتاب الشريف الواصلة اليك بطيه نسخة منه والتحفة المبينة بالتقييد الذى بطيه ايضا لرئيس البابا ليون المذكور امارة ودليلا على المحبة والمودة وان يتوجه مع السفير المذكور الكبلير البدرى خوسى لكونه عزيزا عند مولانا نصره الله ورافق غير ما مرة سفراء حضرته الشريفة لدولتكم الفخيمة وان يكون توجيه السفير على يدكم وفى مركبكم لما لكم من المحبة فى جنابه الشريف ولما يسمعه اعزه الله من محبة رئيس البابا ليون المذكور لسلطانتكم الفخيمة وأمرني أيده الله بتطيير الاعلام لك بهذا على وجه السر والكتمان لتعلم به دولتك المحبة عاجلا لتيسر المركب لركوب السفير المذكور وتوجه الكبلير البدرى خوسي المشار اليه لمرافقته وها السفير والكاتب المذكوران يردان عليك بقصد ذالك فكن ايها المحب عند ظن الحضرة الشريفة بك في الوقوف معهما حتى يتوجها ودمت بخير .

وختم فى 12 من ربيع الثانى عام 1305 .

أما الوثيقة الثالثة من الوثائق التى نخصها بالدراسة فى هذا البحث فمؤرخة باليوم الثالث عشر من ربيع الثانى 1305 (29 دسمبر 1887). ولربما تأثر السلطان باحدى الاعتبارات السياسية كالريبة التى قد يثيرها ايفاد السفارة على متن بارجة حربية اسبانية أو بدافع المحافظة على السمعة فوجه الكتاب التالى الى الطريس. الا أنه لم يكن لهذا الكتاب اى تأثير على المشروع الاول .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

(طابع مولاى الحسن بن محمد)

خديمنا الارضى الحاج محمد بن العربى الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد اقتضى نظرنا الشريف ان يركب السفير الخديم عبد الصادق من طنجة سرا فى بابور جانبنا العالي بالله وينزل بالمرسى المسماة سيبيطا ايقيا التي بينها وبين رومة نحو ساعتين وعليه فنامرك ان تعلم باشدور اسبانيا بذالك وان وافق على ركوبه بالبابور المذكور فيركب به والا فبمركبهم كما قدمناه لكم والسلام . فى 13 من ربيع الثاني عام 1305 .

اما الوثيقة الرابعة التى يحتفظ بها فى الخزانة التاريخية بتطوان والتى لها علاقة بموضوعنا فتحمل تاريخ 23 فبراير 1888. وهي عبارة عن المكتوب التقليدى للفاتيكان فى تحديد اليوم والساعة اللذين سيستقبل فيهما البابا سفارة المغرب برئاسة الطريس (المذكور فى النهاية بسبب مرض عبد الصادق). ويحكى في هذا الشأن انه لم تكن عند المجلس الادارى الاعلى للكنيسة الرومانية مسابقة للمراسيم التى يتعين استقبال السفارة بها . الا أن البابا ليون الثالث عشر قد أصدر أمره باستقبال السفارة بجميع التشريفات التى كانت تستقبل بها سفارات الدول المسيحية الكبرى .

والوثيقة محررة باللغة الايطالية وهذه ترجمتها :

مدينة الفاتيكان فى 23 فبراير 1888

صاحب السعادة الحاج محمد بن العربى الطريس وزير الشؤون الخارجية لجلالة امبراطور المغرب .

ان الموقع عليه وهو الكاردينال أمين الدولة لم يتأخر فى إخبار الاب المقدس بالمهمة الحميدة التي ارتأى جلالة سلطان المغرب ان يعهد بها الى سعادتكم وبرغبتكم فى القيام بها على الوجه الحسن المناسب للنوايا الطيبة لجلالة ملككم المبجل .

وان صاحب القداسة الذى يقدر هذه الالتفاتة حق قدرها والتى شاء صاحب الجلالة أن يخصه بها بمناسبة اليوبيل الكهنوتى ورغب فى أن يقوم مندوبه بالمهمة المنوطة به على اتم وجوه العناية قد قرر أن تجرى مقابلة البعثة الخاصة يوم السبت الذى هو اليوم الخامس والعشرون من الشهر الجارى ،

وذلك على الساعة الثانية عشرة بالتوقيت الشمسي المحلي. وفي الوقت الذى يتفرغ فيه الكاردينال صاحب هذا الكتاب الى القيام بالواجب العاجل الذى هو احاطة سعادتكم علما بهذا الخبر فهو يرجوكم ان تتفضلوا بقبول عبارات تقديره الاسمى» .

الامضاء : م. كارد. رامپوپا

ويحكي لنا الاب مانويل كاستيانوس فى كتابه «تاريخ المغرب» كيف استقبلت السفارة المغربية من جانب صاحب القداسة يوم 25 فبراير بقاعة «ارازى» من قصر الفاتيكان وكيف تبودلت الخطب بين الطريس بالعربية والبابا بالايطالية فقام الاب ليرتشوندى بترجمتها وكيف قدم السفير المغربى البابا فى النهاية رسالة بخط السلطان . وقد احتفظ بنسخة من هذه الرسالة فى خزانة السيد الحاج محمد بن العربى الطريس . ولا شك فــى أن النص الاصلى محفوظ فى خزانة الفاتيكان وهو :

الحمد لله　　　　نسخة من كتاب شريف نصه

بسم الله الرحمان الرحيم　　　　ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

من عبد الله المتوكل على الله المفوض اليه امره فى سره ونجواه امير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وهو

ايد الله نصره وزين بكل خير عصره الى المحب المعظم المحترم المفخم رئيس أساقفة الملة النصرانية الجالس على كرسى رئيس الحوارية لقضاء الدعاوى الدينية الذى اشتهر علمه وانتشر البابا ليون الثالث عشر، اما بعد حمدا لله الذي لا اله الا هو العلي العظيم فمن المعلوم عند الناس والخاص والعام من الاجناس ان اسلافنا المقدسين ملوك المغرب كان بينهم وبين الرهبان البابا ليون رؤساء الرهبنة الفرنسيسكانية مزيد المحبة والمودة والصحبة حتى انهم كانوا اعطوهم الحرية واباحة السكنى حيث النصرى وكانوا يعاملونهم ويعينونهم على امور دينهم، ونحن بحول الله على آثار اسلافنا رحمهم الله فى معاملتهم بذالك واقتضى نظرنا الشريف اعلامكم ايها المحب بهذا لما ينهى من محاسنكم وفضلكم الينا ويتلى من شهرة وصفكم بالخير والحق والعلم لدينا وبمزيد محبتكم في المحبة الفخمة سلطانة دولة اسبانيا المعظمة وان نعطوكم امارة ودليلا على محبتنا ونوجه

لكم سفيرا من شريف حضرتنا كما يوجه سائر ملوك الدول سفراءهم لعندكم برومة ليحضروا عيدكم ويهنوا جانبكم بما من بـه الله القـادر عليكم من بلوغ فقاهتكم الى خمسين سنة، فاخترنا لذالك خديمنا الارضـى الانجد الانصح القايد عبد الصادق بن احمد الريفي وعززناه بكاتبنا الارضى الانبل الطالب احمد الكردودى وعينـا لمرافقتهما الكبليـر البـدرى خوسى لرجونادى كبير الرهبان الذى هو عزيز عندنا لانه رافق غير ما مرة سفراءنا للدولة الصبنيولية ونحن على يقين من انكم تقابلون سفيرنا المذكور ومن معه بمثل ما تقابل به مجادتكم سفراء الاجناس المحبين من الاعتناء والبـرور فـى الورود والصدور وتصدقونه فيما يذكره لكم عنا من المحبة والمودة ودمتـم فـى سرور وهناء ملحوظين بعين الاعتبار والاعتناء . وختم فى 20 من ربيع الثانى عام 1305 .

اما الوثيقة السادسة والاخيرة من الوثائق المتعلقة بالسفارة المغربية الى البابا ليون الثالث عشر فمؤرخة باليوم الرابع والعشرين من جمادى الثانية لسنة خمس وثلاثمائة والف (8 مارس 1888). وهذا الكتاب موجه من روما من جانب الدبلوماسى الحذق والرعية المخلص محمد بن العربـى الطـريس الى الحاج محمد الزكارى الذى كان يقوم مقامه ابان غيبته وهذا نصه :

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

محبنا وأمين سيدنا الاعز الاسعد السيد الحـاج محمد الزكـارى دعاك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد فقد وصلنا كتابك معلما بأنه ورد عليكم من الحضرة الشريفة كتابان شريفان احدهما لنا والآخر لباشدور الصبنيول امر مولانا ايده الله ان يدفع له بيـده فدفعتـه لـه طبق الامر الشريف ودفعت له الكتاب الشريف الذى هو لنا واكدت عليه فى وصوله الينا فقد وصل وعملنا بمقتضى ما فيه وها جوابه للحضرة الشريفة يصلـك فوجهه للحضرة المولوية واخبرت بأن الاحوال بخير لا ما يشوش البال الا ما كان من قونصوا المركان فانه لا زال على حاله نطلب الله ان يكفينا شره وشر كل ذى شر وذكرت ان ولدنا اصلحه الله وصل لتطـوان صحبة الامة فالحمد لله على سلامتهما ويسلم عليكم رفقاؤنا الكاتب وغيره ونحـن جميعـا بنيـة السفر مـن رومـة غد التاريخ ان شاء الله ودمتم بخير وعلى المحبة والسلام فى 24 جمدى الثانية عام 1305 .

محمد بن العربى الطريس لطف الله به

وهناك وثيقة سابعة مؤرخة باليوم الرابع عشر من رجب 1305 (27 مارس 1888). وهي عبارة عن كتاب موجز وجهه السلطان مولاي الحسن بن محمد الى الطريس يخبره فيه باستلامه كتابا سابقا . ورغم ان ذلك الكتاب لا يتعلق مباشرة بتلك السفارة فنحن نشير اليه لانه يذكر بعض المحادثات التي أجراها الطريس مع سفير اسبانيا بروما أثناء اقامته بها. غير أن نوع هذه الاتصالات الدبلوماسية التي أجراها الوزير السلطاني النشيط لا يمكن أن تستنتج من هذا المكتوب القصير الذي كان يتعلق فيما يظهر بمشكلة امتيازات الحماية التي أصبحت في ذلك العهد مرضا مزمنا بالنسبة للمغرب.

ولا شك في أن هذه المسالة وغيرها من الوسائل الهامة في تاريخ المغرب خلال الفترة الحرجة التي استمرت أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ستزداد وضوحا بقدر ما تتقدم الدراسة التي نجريها الآن في محتويات خزانة الطريس الواسعة .

احمد المكناسي

دراسة تمهيدية عن الخزف الاسلامي القديم في المغرب

في مقالنا المنشور في مجلة «تمودة» (1) اعلمنا عن بدء حملة استكشاف اثرى في ساحل غمارة، وعلى وجه الدقة بمدينة تيجيساس التاريخية الواقعة بقبيلة بني زيات، على بعد كيلومترين من بوحمد، نحو البحر

وقد اجرينا قبل ذلك لاول مرة، استكشافات وتنقيبات اثرية اخرى في المدينة الاسلامية القديمة القصر الصغير، ونشرت النتائج الاولى في المقالة التي سبقت الاشارة اليها. ونحن نحاول في هذه الدراسة ان نبين بشيء من التفصيل، مجموع النتائج الاركيولوجية لتلك الحملات، وان نقدم مختلف كسرات الخزف الاسلامي التي عثرنا عليها حتى الآن في المغرب. ومن المناسب، قبل الشروع في هذه الدراسة ان نأتي بخلاصة تاريخية عن المدينتين التاريخيتين اللتين جرى التنقيب فيهما لاول مرة.

يحدثنا عن القصر الصغير مؤلفون قدامى مثل ابن خلدون، وليون الافريقي، ومارمول كاربخال، وينسب هؤلاء المؤرخون بناء هذه المدينة الصغيرة المقامة وسط شاطىء مضيق جبل طارق، الى رابع امراء الدولة الموحدية، يعقوب المنصور ويذكرون هذه المدينة بأسمائها المختلفة : القصر الصغير ، وقصر مصمودة، وقصر المجاز. وكان الغرض من تأسيس هذه المدينة إيجاد مكان صالح لابحار البعوث العسكرية الى الاندلس، التي كان محل رسوها «طريفة» في العدوة المقابلة. ويذكر كتاب القرطاس ان السلطان المريني ابا يعقوب، امر ببناء سور قصر المجاز واقامة ابوابه، وذلك في شهر رمضان سنة 685 هـ. (11 اكتوبر ـ 8 نوفمبر 1287 م.) ويؤكد طوريس بالباس في مذكرته المقدمة لمجلس رعاية البحوث والثقافة الرفيعة بالمغرب في سنة 1955، أن الخصائص المعمارية لما هو ظاهر من انقاض الباب الكبير الذي يوجد وسط القلعة البرتغالية ، ترجع الى ذلك التاريخ .

---

1) تمودة ـ عدد 5 النصف الاول من سنة 1957، ص 161 ـ 164.

وفى سنة 1458 م. غزا «الفونصو الخامس» ملك البرتغال مدينة القصر الصغير. وقد خرب البرتغاليـون المدينة وحصونهـا عند مغادرتهم لها سنة 1540 م. وبقيت مدينة القصـر الصغير منذ ذلـك الحين بلقعا يبابا ، وغطى انقاضها النبات البرى .

وتظهر معالم التخريب فى بقايا الباب وفى السور المحيط بالمدينة. وكان هذا التخريب وحشيا فظيعا. وفى ساحل بـوحمد توجـد كمـا قلنا، مدينة تيجيساس القديمة، المعروفة بين سكان ذلك المكان بالسطيحات. ويذكر ابـن خلدون ان تيجيساس كانت موجودة كمدينة قبل الفتـح الاسلامـى وكـانت خاضعة لحكومة سبتة تحت امرة الكونـت «يوليـان» المعـروف، وعند الفتح الاسلامى انتقلت الى امرة صالح بن منصور الحميـرى فاتح الريف وصنهاجة وغمارة، سنة 90 هـ. وكانت تيجيساس تابعة لمملكة النكور مقر صالـح المتقدم الـذكـر .

وفى عهد الدولة الادريسية، اثنـاء حكـم ادريس الاكبر وابنه ادريس الثانى، انتقلت هذه المدينة الى حكومة وليلى «فوليبيليس»، فولى عليها وعلى اقليم غمارة كله الامير عمر بن ادريس الثانى، وعقب ذلك مباشرة اصبحت تحت حماية خليفة قرطبة مع اقليم شمال المغرب كله تقريبا، وولى عليها امراء مثل محمد بن على ابى العيش بن ادريس بن عمر سنة 338 هـ.

وعند انتهاء حماية قرطبة صارت تيجيساس الى ايدى بنى حمود حتى سنة 476 هـ. حينما استولى عليها سكوت البرغواطـى، وعنـد سنـة 541 هـ. اصبحت تحت حكم المرابطين ثم ضمها العزفيون ولاة سبتة باسم الموحدين . وبقيت في أيديهم الي سقوط هذه الدولة . وقد خربت مدينة تيجيساس تخريبا كاملا ــ حسب النصوص القديمة ــ حوالى أواخر القرن التاسع من الهجرة ، حينما كانت تحت حكم العلج فارح بن مهدى حاجب السلطان المرينـى ابى عامر ابن ابى سالم، وذلك بسبب الحروب الداخلية والفتن التى اجتاز بها هذا العـهـد .

ويحدثنا «كارلوس بيريدا رويغ» عن تيجيساس فى «الدليل الاركيولوجى لغمارة» المنشور فى كتاب المؤتمر الاركيولوجى الاول بالمغرب (1) مستندا على ما قاله فرناندو دى كاراتنا (2) «كان يطلق على تيجيساس، المدينة الفينيقية

(1) المؤتمر الاركيولوجـى الاول بالمغرب المنعقد بتطـوان بين 22 و 26 من شهر يونيو سنة 1953 .

(2) «صور من افريقيا الشمالية» ــ تطوان 1952

الاصل، اسم (طانيا لونكا) ايضا، لكونها مرفا صالحا ذا مرسى ثابت ومياه عميقة تواسى الملاح المرهق بخصوبة جنانها ووفرة المياه الباردة بنهرها.

• • •

كان اهتمامنا متجها، منذ الشروع في التنقيب نحو تحديد تاريخ تيجيساس، وقد اكدت لنا نتائج الاستكشاف، بما لا يدع مجالا للشك، انه لا توجد في القطاع كله الذى تقوم به الخرائب وفي كل ما يحيط به، اثر من العهد السابق للاسلام : الفينيقي او الروماني. ونحن على يقين من هذا، اذ لم يقع في ايدينا غير الخزف الاسلامي من مختلف العصور، استخرج من عمق يبلغ ثلاثة امتار وينتهي هذا العمق احيانا عند صخور صلدة او ارض عذراء.

وقد اتبعنا في تنقيبنا في القصر الصغير وتيجيساس الطريقة الفنية الحديثة لفتح حفائر متسعة قليلا او كثيرا، وذلك باتباع طريقة الحفر طبقة فطبقة لجمع الادوات المستخرجة اثناء الحفر، وعلى هذا المنوال نتعمق في باطن الارض. وفي هذه العملية الاولى لم نعثر على بقايا اى بناء اثرى ضخم، وكل ما عثرنا عليه هو بقايا دور واحواض وجباب. قد استطعنا ان نتبين في القصر الصغير طبقتين، تتالف الطبقة السطحية من بقايا بناء عربي استغله البرتغاليون لابنيتهم العسكرية، اما الطبقة الثانية التى تظهر في عمق مترين فهي البناء العربي الاصيل ليس به مزج من اى نوع كان.

واقدم خزف التقط من اعمق المستويات، التى تتراوح بين 3 و 1,90 م هو طين مطبوخ من غير ميناء مزخرف بعصائب من دهان اسود اللون او مائل الى الحمرة احيانا . ويبدأ صنع هذا النوع من الخزف الاسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد ويظهر بكثرة كبيرة، مشوبا بالطين العادى المطبوخ من غير دهان (لو. رقم 1). وقد قارناه ودرسناه مع نفس الخزف الموجود في متحف القصبة بمالقة فوجدنا انه من نفس الصنع والنمط، وهو يعود الى العهد الاول من خلافة قرطبة، واصل كسراته الملتقطة اوان من حجم متوسط .

ويأتي بعد هذا الخزف نمط آخر يسمى «العسلي» للون الميناء المدهون بها، فهي تشبه كثيرا لون العسل. ويظهر ممتزجا بالخزف الذى سبقت الاشارة اليه ويبدأ مع خلافة قرطبة، وهو طويل البقاء ويظهر في جميع الطبقات المتتالية تقريبا، واحيانا يظهر حتى في الطبقات السطحية. وقد استطعنا ان نفصل الالوان التالية : اصفر فاتح، اصفر غامق، بني فاتح، بني غامق، واخضر زجاجي فاتح. واللون الاصفر بجميع اصباغه يوجد دائما تقريبا مزدانا

بعصائب من لون بنى غامق (لو. رقم 5، شكل 1) واكثر نماذج الخزف شهرة وذيوعا فى المغرب والاندلس هو الخزف المصنوع من الطين المطبوخ المطلى مع الخزف العسلى.

ويمكننا ان نتخذ ـ حسب ألوان ميناء «العسلى» التقسيم التالى :

(أ) ـ للون الاصفر الفاتح الوفير . (ب) ـ للون الاصفر الغامق (ج) ـ للبنى الفاتح . (د) ـ للبنى الغامق . (هـ) ـ للاخضر الزجاجى الغامق .

وقد ادهشتنا كثيرا وفرة هذا الخزف فى تنقيباتنا الاولى، وكانت دهشتنا اكبر حينما وجدناه بوفرة اكثر فى مستودعات متحف مالقة. وكان هذا الخزف شائعا جدا فى الدولة الاسلامية الغربية، صنع بكثرة فى المغرب والاندلس، ومن الراجح ان يكون قد صنع ايضا فى الجزائر وتونس .

ويعد هذا الخزف يظهر مباشرة على عمق 1,90 الى 0,50 الخزف المسمى «بالحبل اليابس» الهام الذى بدأ مع أوائل عهد خلافة قرطبة. وقد لقطنا من هذا الخزف نوعين مختلفين، أحدهما بدائى خشن، يعود الى أوائل الزمن الذى بدىء فيه صنع الحبل اليابس. اما النوع الآخر فانه ينتمى الى الحبل اليابس المصنوع بعناية ودقة. وقد تقدمت صناعة هذا الخزف بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد، خصوصا فى عهد الدولة الموحدية والمرجح ان يكون قد استمر الى اوائل القرن الرابع عشر. وقد عثر على كسرات من الحبل اليابس فى بجاية (الجزائر) وفى قلعة بنى حماد (تونس). اما فى المغرب فقد عثر المسيو فيكير على كسرة منه فى فاس سنة 1933، كما عثر م. شاطولان المدير السابق لمصلحة الآثار فى المغرب، على اربع قطع من الحبل اليابس بالقرب من (تمارة) بضواحى الرباط، وقد وقع العثور على كسرة اخرى مزخرفة على طريقة الحبل اليابس فى مراكش، اما ما وقع العثور عليه فى مدينة سلا فهو أهم .

ان وضع الميناء فى دوائر دقيقة حول الزخارف يمكن ان يكون اصل هذا الخزف فى المشرق من عهود سحيقة، وقد بلغ هذا الخزف فى القرون الوسطى من الروعة الزخرفية شأوا عاليا. وعاد هذا الفن الى الظهور فى ايامنا هذه فى جهات عديدة من اسبانيا (1) .

---

1) غونثالث مرطى : «خزف شرق اسبانيا». برشلونة طبع لابور، 1944، ج 1، ص 50 .

وقد فرز السنيور غوميث موريتو والسنيور غونثالث مرطى خلفين من الحبل اليابس من حيث شكله الزخرفي، وهما خلفان لا يمتازان بطريقة صنعهما المتشابهة دائما : يكون الاول باحاطة الآنية كلها بشبكة من الحبل اليابس وتعمير فجواتها بالميناء ، والآخر بتعمير هذه العناصر الزخرفية بالغشاء الملون فقط. (لو. رقم 2) .

وقد عثرنا كذلك على نوع آخر منحدر من هذا الخزف شاع من القرن الثانى عشر الى القرن الرابع عشر للميلاد وتزينه اشكال نباتية بالميناء الخضراء على رقعة بيضاء . والصنعة المنحدرة من الحبل اليابس والمطبقة على خزف آخر لا توجد الا فى الزخارف الخارجية للكؤوس والاوانى لكى تحفظ السوائل الغير الدهنية : الخل والخمر والماء الخ . وكان هذا النوع من الخزف معدا للاستعمال العادى . وقد عثرنا فى تنقيبنا على كسرات من هذا الفخار (لو. رقم 3) وقد استخرجت بكثرة فى شرق اسبانيا، حسب غونثالث مرطى، قطع مبثورة وكسرات صغيرة .

والالوان المستعملة بصفة عامة فى صنع خزف الحبل اليابس هى : الابيض القصديرى، الاخضر الزمردى، والاصفر الطينى والبنى الغامق والاخضر الزجاجى والازرق .

فمن اعمق الاعماق وصلنا الى الطبقات الاولى، الى سطح الارض تقريبا حيث لقطنا الخزف المنقوش، المزخرف بمنقش او بقوالب، والمزخرف بالطين المطبوخ أو بالخشب، وهو يوضع فى الفرن مرة واحدة. وكانت هذه الطريقة تستخدم بالنسبة للقطع ذات الحجم الكبير من سيافات الآبار وخوابى وجرار واوان كبيرة ذات شكل دائرى. واشكالها الزخرفية هى دائما ازهار، ورسوم هندسية ونجوم وكتابة بالخط الكوفى واسماء اعلام فى بعض الاحيان . وقد ظهر هذا الفخار ايضا فى قلعة بنى حماد (القرن الحادى عشر للميلاد) بينما لم يظهر فى المغرب واسبانيا الا ابتداء من القرن الثانى عشر الى القرن الخامس عشر للميلاد. وهو لذلك كان سائدا فى العهد الغرناطى كله. وكان شائعا دهن هذا الخزف المنقوش بالميناء الخضراء (لو. رقم 4) وجميع الكسرات التى ندرسها هنا واردة من تيجيساس، ولم نعثر فى القصر الصغير على أية كسرة من هذا الخزف .

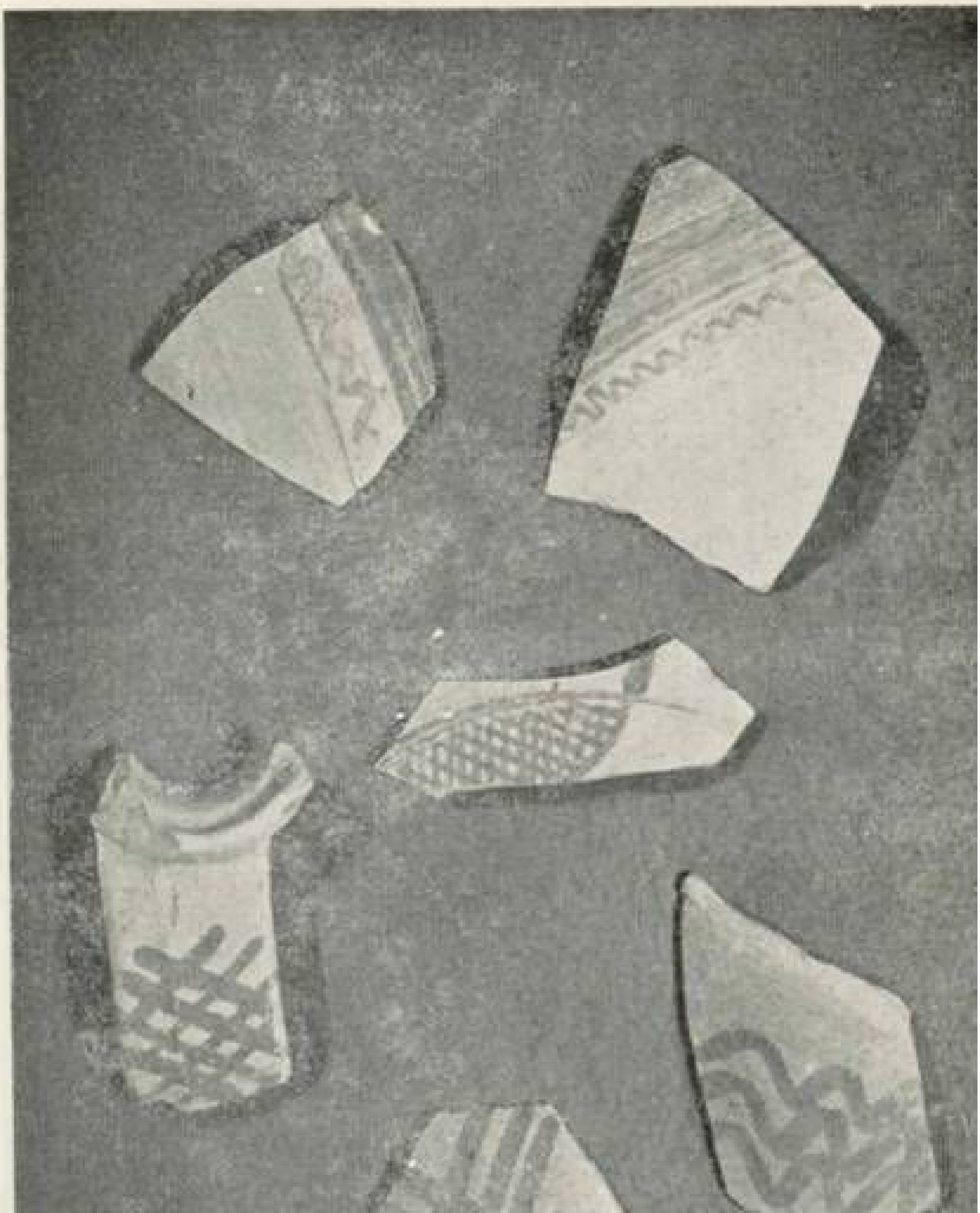
والى جانب هذا الفخار المنقوش، عثرنا بكثرة على الخزف المدهون بالميناء الخضراء بصبغتيها . وقد لقطنا عدة قطع من صحـون عليهـا نقوش دائرية ، واخرى فى شكل جوزة الاناناس (لو. رقم 5، شكل 2). ويبدأ هذ الخزف من القرن الثالث عشر ويستمر لغاية القرن الخامس عشر للميلاد .

* * *

هذه هى اهم نماذج الخـزف الاسلامى المغربى المستخرجة فى تنقيباتنـا الاخيرة. تبتدىء مع الصنـف البدائـى الذى يرجع الى النصف الثانى مـن القرن التاسع للميلاد، وتنتهى مع الصنف المنقوش والاخضر الـذى ينتهـى مع القرن الخامس عشر. وبهذا يمكننا ان نثبت ان مدينتـى القصر الصغير وتيجيساس الاسلاميتين تبدآن وتنتهيان فى تاريخ واحد .

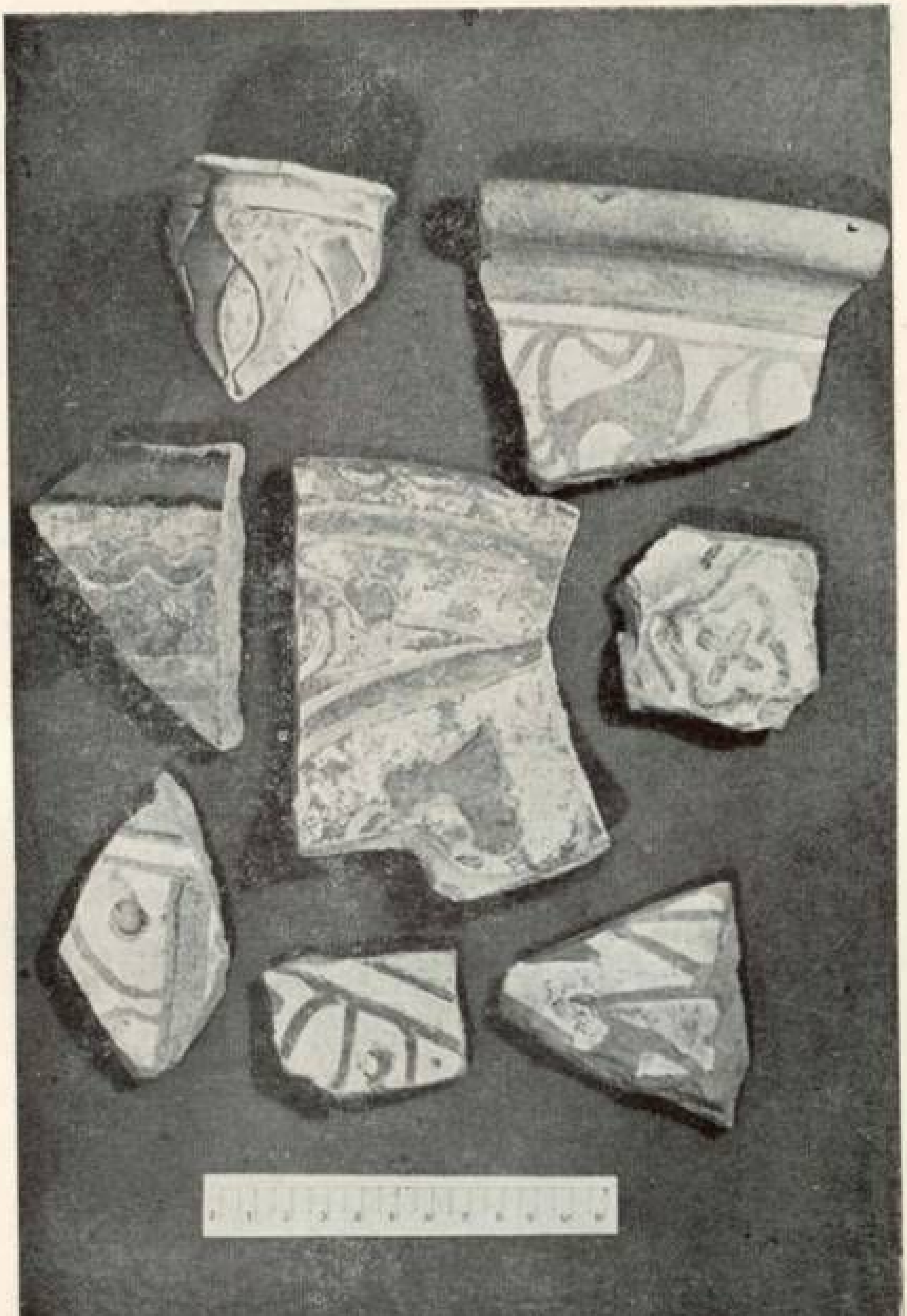
وقد شرعنا فى عملنا الاركيولوجى من جديد، ففى اواسط شهر غشت استأنفنا التنقيب فى القصر الصغير، ونحن نأمل مع ذلك ان ندرس قطاعات شاسعة، وان نحصل على أدوات جديدة لدراستنا وان ننظـف تنظيفا كامـلا قطع السور المحيط بالمدينة .

لسو. رقم ١



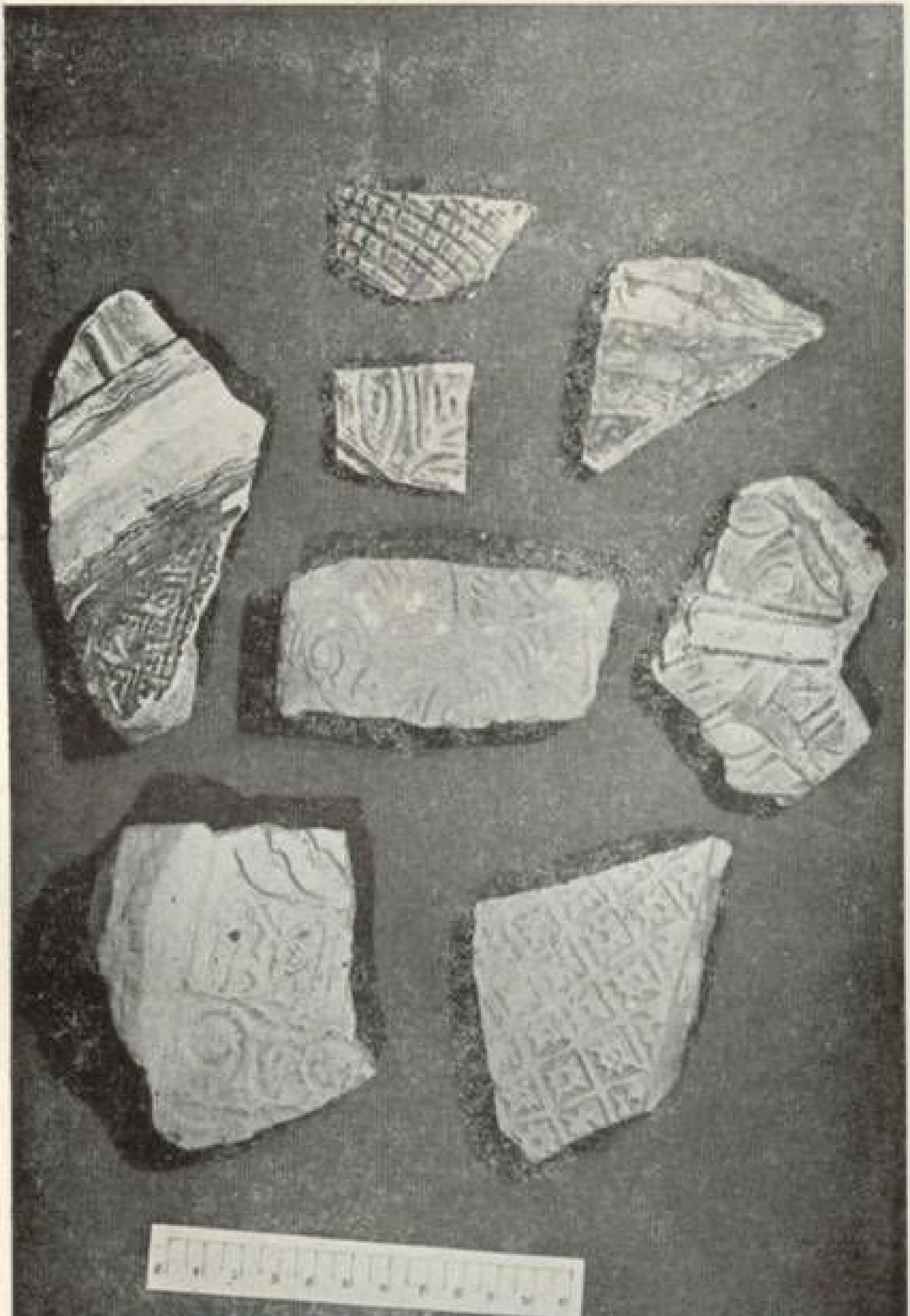
طيـن مطبـوخ مـن غير ميناء مزخرف بعصائب من دهـان
اسود اللون ومائل الـى الحمرة

لـو. رقـم 2

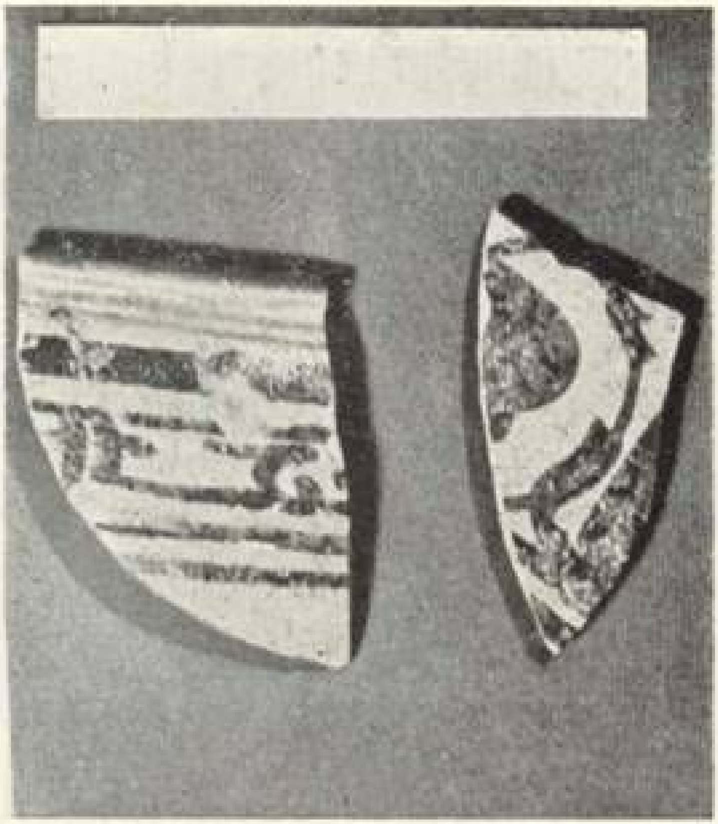


نمـاذج مـن «الجبـل اليـابس»

لـو. رقـم 4



نماذج من الخزف المنقوش. القطع الخمسة الاولـى مدهونة بالميناء الـخـضـراء



شكل 1
قطعتيـن من النوع العسلـى



شكل 2
نوع الخزف المدهون بالمينـاء الخضـراء عليهـا نقوش دائرية
وأخرى فى شكل جوزة الاناناس



حفريـات القصر الصـغير



حفريـات القصر الصغير

في هذه الصورة نلاحظ طبقتين، تتالف الطبقـة السطحية من بقايا بنـاء عربى استغله البرتغاليون لابنيتهم العسكرية، اما الطبقة الثانية التى تظهر فى عمق مترين فهى البناء العربى الاصيـل ليس به مزج من اى نوع كـان



القصر الصغير
السور العربي المستعمل من طرف البرتغاليين



القصر الصغير
احد ابراج المدينة

ميكيل طراديل

«البنيان» حصن روماني بين تطوان وطنجة

الاخبار الاولى

كتب مسيو «تيسو» منذ ثلاثة ارباع القرن مؤلفه المعروف حول المدن القديمة فى موريطانيا التينجيتانية فأشار الى وجود أنقاض حصن رومانى فى السهل الذى يعلوه جبل «صفوية» على الطريق القديمة بين تطوان وطنجة ويعرفه الاهالى باسم «البنيان» وهو الاسم الذى يشار به فى افريقيا الشمالية الى بقايا المدن الرومانية فى غالب الاحوال .

وبعد الوقوف على هذا الخبر الذى زودنا به مسيو «تيسو» والذى اعتمده المؤلفون المحدثون كما سنرى فيما بعد يمكن لنا ان نقول ان تلك الانقاض لم تحظ فيما نعلم بعناية خاصة لحد الساعة. فلم تباشر الا دراسات قصيرة للوقوف على تاريخ تلك الانقاض ومصيرها الى أن أدرجت تلك الدراسة فى برنامج استكشاف المراكز القديمة من طرف «مصلحة الآثار» فبوشرت تلك الاعمال خلال شهر يوليه سنة 1953 .

الموقع

والشيء الذى يمكننا من تحديد موقع «البنيان» بصورة واضحة مدققة هو الطريق الحالى الذى يصل تطوان بطنجة. فالانقاض توجد بين الكيلومترين الخامس والثلاثين والسادس والثلاثين بل انه يوجد بالضبط بين 35,6 و 35,8 على الجانب الايمن من الطريق متى كنا متوجهين الى طنجة .

ولا وجود هناك لاية ظاهرة جغرافية ملحوظة. فالمكان سهل ذو نتوء ضعيف متدرج فيه بعض الهضاب التى يخترقها نهير يسمى «واد السانية» فى الجانب القريب من «البنيان». غير أنه يسمى قبل ان يصل هذا المكان باسم «واد عين حمو».

وعلى بعد كيلومتر واحد على التقريب من الانقاض نحو الشمال الشرقي توجد هضبة «بوكوردوس» ويظهر في افق جبل «صفوية» نحو الشمال والشمال الغربي. واذا علمنا ان الطريق الجديدة تسير على العموم حسب الطريق القديمة بين «تمودة» و «طنجي» وجدنا ان «البنيان» يقع على نصف الطريق بين المدينتين القديمتين لان المسافة بين هذه الانقاض وطنجة خمسة وعشرون كيلومترا وبينها وبين «تمودة» ثلاثون.

ونجد من جهة اخرى ان الطريق الحالية الى (العرائش) تتصل مع الطريق السابقة في الكيلومتر الثلاثين اى على بعد قليل من المكان الذى يهمنا الآن. وفي مستطاعنا ان نفترض ان الطريق الى الناحية الشاطئية الاطلسية كانت تمر في عهد الرومانيين في نفس ذلك الاتجاه. فقد دلت القرائن والبقايا الاثرية على أنها كانت تمر مثلا بقرية «دار الشاوي». وعليه فالطريق كانت تبتدئ من «البنيان» او من ضواحيه فكان الحصن الروماني ملتقى الطريقين.

البقايا الظاهرة

ان الجدران الظاهرة والتى يمكن تتبعها دون اجراء الحفر في مكان الانقاض قليلة. وقد ظهر ان المكان قد تغير عما كان عليه في النصف الثاني من القرن المنصرم عند ما وقف عليه «تيسو» بسبب الافراط في استخراج الحجر منه.

ومع ذلك فانه من السهل التحقق من أن الجزء البارز كان فناء مسورا مستطيلا يبلغ عرضه مائة واربعين مترا وطوله مائة وثلاثة وثمانين مترا. أما الضلعان الطويلان فيتجهان من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي بينما يتجه الضلعان القصيران من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي.

ويلاحظ في طرفي السور الذى يسد الواجهة الجنوبية الشرقية أمارات برجان مربعان كانا يقومان عند الزوايا. أما البناية فتقوم فوق مكان يرتفع بعض الارتفاع على الطريق التى تسير حول السور الموجود في جهة الجنوب الغربي والذى يسير بدوره في اتجاه منكسر بالقياس اليه.

وعلى جانب الطريق وفي الجانب الاعلى القريب من الزاوية الغربية للحصن يوجد بئر ماء قديم يغلب على الظن انه كان معاصرا لتلك الانقاض. فهو مبني بالحجر وباعمدة حجرية مستقدمة من الحصن نفسه.

وتلاحظ بقايا جدران ذات طابع رومانى علـى بعـد مائـة متر عن الفناء المسور في اتجاه الشمال الغربى. وهذه ظاهرة تؤكد ان الحصن لم يكن هـو البناء الوحيد الموجود فى ذلك المكان الذى كانت توجد به علـى الاقل بنايات خارجية تابعة للحصن .

اعمـال التنقيـب

وكان عملنا فى «البنيان» مقصورا لحد الساعة على اشغال الاستطـلاع لمعرفة تاريخ بناء تلك الانقاض والغاية التى بنيت من اجلها. كما اقتصر على عزل قسم من السور لنتمكن من معرفة خاصيات البناء. ذلك لان الحالة الحاضرة للانقاض لا تسمح بوضع تصميم للفناء المسور ولا بمعرفة الابواب والابـراج التى يذكرها «تيسو» لان العمل من ذلك القبيـل يتطلـب اجراء الحفر حول السور كلـه .

أمـا أعمـال التنظيف فقد بوشرت في ثـلاث نقط :

1 ـ المكان الاول هو الضلع الاكبر الواقع فى جهـة الجنوب الغربـى على مقربة من الزاوية اى فى اقرب الاماكن من الطريق الحالية. فقـد امكـن فى هذا المكان بفضل انحدار فى مستـوى الارض ان نشاهـد قسما من ذلك السور. وقد حفر أخدود يسير محادى له على طـول خمسة أمتار فتمكنا من معرفة خاصية اخرى وهى ان عرض السور يبلغ مترا وانه مبنى حسب الطريقة المألوفة التى تتلخص فى اقامة خطين خارجيين من الاحجار الكبيرة ثم خـط داخلى معمول من الحجر الصغير. غير ان الاحجار الكبيرة قد انتزعت من القسم الظاهر ولم يمكن الاحتفاظ الا بصفين اثنين فى القسم الاسفل (الصورة رقم 1). أما العلو الاكبر الذى احتفظ به فلا يعدو مترا ونصف المتر.

2 ـ اما المكان الثانى فزاوية الطرف الجنوبى التـى أقيـم فيهـا أحد الابراج. غير ان هذا البرج قد حطم تحطيما تاما فى قاعدته بحيـث تصعـب كثيرا معرفة شكله الحقيقى واحجامـه وان كـان يغلـب على الظن ان قاعدته كانت مربعة .

3 ـ وبـوشرت المحـاولات فـى وسط الضلـع الواقع فـى الجنوب الشرقى لتحديد وجـود احدى الابـواب المحتملـة دون أن تأتى تلك المحاولات بنتيجة. فلم يبق فى هذا المكان شيء من السور اذا استثنينا أسسه وبعـض بقايا الجدار.

ولم تسفر كل هذه الحفريات عن مادة عامة تكفل تحديد زمن بناء ذلك الحصن. اذ لم تظهر الا بقايا مهشمة لاوانى ذات حجم كبير على العمـوم دون ان تكون لها أشكال محددة معروفة .

وأمكن التحقق فى الاماكن الثلاثـة من وجود مستوى واحد هو مستوى بنايات الحصن التى تستند بصورة مباشرة على الارض المتينـة. وقد كانـت أعمال الاستكشاف داخل الحصن اكثر تلك الاعمال اهمية. فقد بوشر الحفر فى مركز المحور الواصل بين الشمال الشرقى والجنوب الغربى فى حيـن أن الحفر الآخر قد أنجز على بعد سبعين مترا عن الجدار الواقـع فـى الشمال الغربى ومائة وثلاثة عشر مترا من الجدار الواقع فى الجنوب الشرقى. وقد ظهرت فى هذا المكان قبل الشروع فى الحفـر بعـض الاحجـار ذات الاحجام الكبيـرة .

وأسفر الحفر عن اكتشاف بعض البيوت. غير ان الحفر التام لم ينجـز فى البيت الاكبر بصفة تامة. (الشكل رقم 2). أما الجدران فقد بنيت من الطوب والحجر الصغير وان كانت تعزز فى بعض الاماكن بحجر كبير. ويبلـغ العلو الاكبر مترا ونصف بينما يبلغ معـدل الاتساع خمسيـن سنتيمترا. ويلاحظ بعض النتوء فى شكل مربع أو مستطيل فيكون بمثابة سوارى لا تتصف بنفس الاحجام والمميزات. (الصورتان رقم 2 و 3). اما الحجرات فهى صغيرة بحيث ان الحجـرة الوحيدة التـى تم حفرهـا لا يزيـد طولها علـى سبعـة أمتـار وعرضها خمسة. ولم تكن المواد المستعملة وفيرة وان كانت ذات مغزى كاف. فقد ظهرت اجزاء جرار صغيرة جدا بحيث يصعب تعرف أشكالها .

أما فيما يتعلق بالفخار المستعمل فان المواد القابلة للتصنيف هى اجزاء أوان معمولة من التراب السيجيلاتة الواضح (الشكل رقم 3). وهـى تنتمى الى النوع الرابع من تصنيف «لامبوغليا». وهناك جرتان لهما عنق طويل بارز وهو النوع الذى بدأ استعماله فى القرن الثالث واستمر الى القرن الرابع بعد المسيح. وقد عثر على ذلك النوع من الجرار ايضا ف «فينتيميغليا» وفى شمال المغرب بتمودة والقصر الصغير والزهراء على سـاحـل البوغـاز اثناء حملة الاستكشاف والحفر سنـة 1953 .

وعثر كذلك على اجزاء صغيرة من صحون معمولة من الفخـار المنقـوش فى القرن الرابع بعد المسيح. أما لون تلك الصحون فبرتقالى وبهـا رسوم الايدى وبعض الدوائر المتداخلة (الشكل رقم 4). كما عثر على جزء احد القناديل المستعملة ايضا فى القرن الرابع (الشكل رقـم 4). وتم العثـور أيضا علـى

قطعتين من فم احدى الجرات وعلى مقبض احداها كذلك. غيـر أنـه لا يمكن تحديد شكل هذه الاواني وان كانت البقايا الموجودة تثبت انتماءها لاشكـال متخلفة في زمن الاستعمال (الشكل رقم 5)

ويوجد بكثـرة نسبيـة اوانـي اخرى رديئة الصنع مما يحمل على الظن بانتسابها الى عصر ما قبل التاريخ وقد امكنت إعادة بناء احدى الاواني اعادة جزئية. وهي معمولة من فخار يميل لونه نحو السواد ومجرد عن كل تزويق، وهناك جزآن مزوقان لاحدهما أوتار بارزة وللآخر فوهة بارزة أيضا (الشكل رقـم 6)

ولم يعثر من النقـود الا على قطعة صغيرة من البرونز على عهد «كلود القوطي» وعلى نصف قطعة برونزية ايضا من عهد «فالينتينيان الثاني». كما عثر على قطعة برونزية صغيرة من عهد قسطنطين الاكبر وقطعة متوسطة على عهد «أركاديو» من نفس المعدن أيضا. ويستحيل تصنيف أربع قطع متوسطة وثلاث قطع أخرى صغيرة وإن كانت هذه القطع الاخيرة ترجع الى عهد قسطنطين

وهكذا نصل الى الجزم عن طريق النقود والفخار الى معرفة تاريخ حصن «البنيان» معرفة لا يتطرق اليها الشك. فقد بني أواخر القرن الثالث واستمر خلال القرن الرابع كله الى انهيار الامبراطورية .

الـخـاتـمـة

ويمكننا اليوم بعد هذه التنقيبات والحفريات ان نتبين ان التبصر المعهود في «تيسو» كان على صواب ايضا في اقرار العلاقة بين حصن «البنيان» وبين الحاميات العسكرية المرابطة بالمغرب خلال القرن الرابع من التاريخ المسيحـي والتي وقفنا على أخبارها في كتاب «الانباء المحققة» .

الا أن اقرار علاقة حصن «البنيان» بحصن «دوغا» كما فعل «تيسو» فأمر يحمل على الارتياب في صحة تلك العلاقة. فقد قال «كاركوبينو» في مذكرته «نهاية المغرب الروماني» انه لا يوجد شك فـي وجود قلعة هامة في «البنيان» غير انه لا يوجد ما يبرهن على تسميتها بدوغا او باسم «باغاتيانا» مثلا. وهذا في نظرنا قول صائب .

اما الحقيقة فهي أن «البنيان» كان احد المراكز العسكرية التي ورد ذكرها في كتاب «الانباء المحققة» السالـف الذكـر. وهـذا الكتـاب الـذي يـدرس الامبراطورية الرومانية انما هو بالنسبة الى المغرب تعداد للحصـون وللقوات المرابطة بها. اما الحصون فثمانية وهي :

«تاموكو» و «دوغا» و «أولوكوس» و «كاسطراباريينسى» و «سالا» و «باغاتيانا» و «طابيرناس» و «فريغلاس».

ويوجد اتفاق يكاد يكون عاما حول الموقع الحقيقى لبعض هذه الحصون.

فحصن «تاموكو» هو فيما يعتقد نفس «تمودة» لانه يتفق مع وجود حصن فى ذلك المكان استمر الى سقوط الامبراطورية الرومانية. وهو حصن مشاهد وأنجز حفره بعض الشىء.

أما حصن «أولوكوس» فيعادل «ليكسوس» الذى يوجد فى مصب نهر لكوس.

وحصن «طابيرناس» المعروف بمعر «أنطونينو» فدار تقع على الطريق الساحلية الاطلسية بين «زيليس» وليكسوس فى المكان المعروف باسم «لالا الجيلالية» بجانب الطريق الحالية بين طنجة والرباط والذى أنجزت فيه كذلك بعض الحفريات.

ولعل حصن «فريغلاس» يقابل بل يطابق «فريجيدى» الذى جعله «تيسو» فى المكان المعروف باسم «عين الدالية» على مقربة من الحدود السابقة بين المنطقتين وداخل المنطقة الجنوبية.

أما فيما يتعلق بحصن «كاسطراباريينسى» فيوجد رأيان حول المرجع الحقيقى للاسماء الواردة فى النصوص السابقة. فاذا كان «تيسو» يقول بأن هذا الاسم يرجع الى «كاسطرو باناسينسى» فان «كانياط» يصححه «كاسطرو بابينسى» الذى هو اسم مستعمرة «أغسطس» القديمة والتى كانت توجد «على بعد اربعين ميلا عن ليكسوس داخل البر» والتى لم يتعرف على انقاضها لحد اليوم. وهذا هو رأى «كاركوبينو».

ولم يشك احد فى جعل موقع «سالا» فى مكان مدينة الرباط الحالية الا أن هذا المؤلف الاخير قد زعم استنادا الى بعض النقوش الموجودة فى «المتحف الاثرى بتطوان» انه وجدت مدينة أخرى كان لها نفس هذا الاسم وقامت فى ناحية «أنجرة» نحو الشمال.

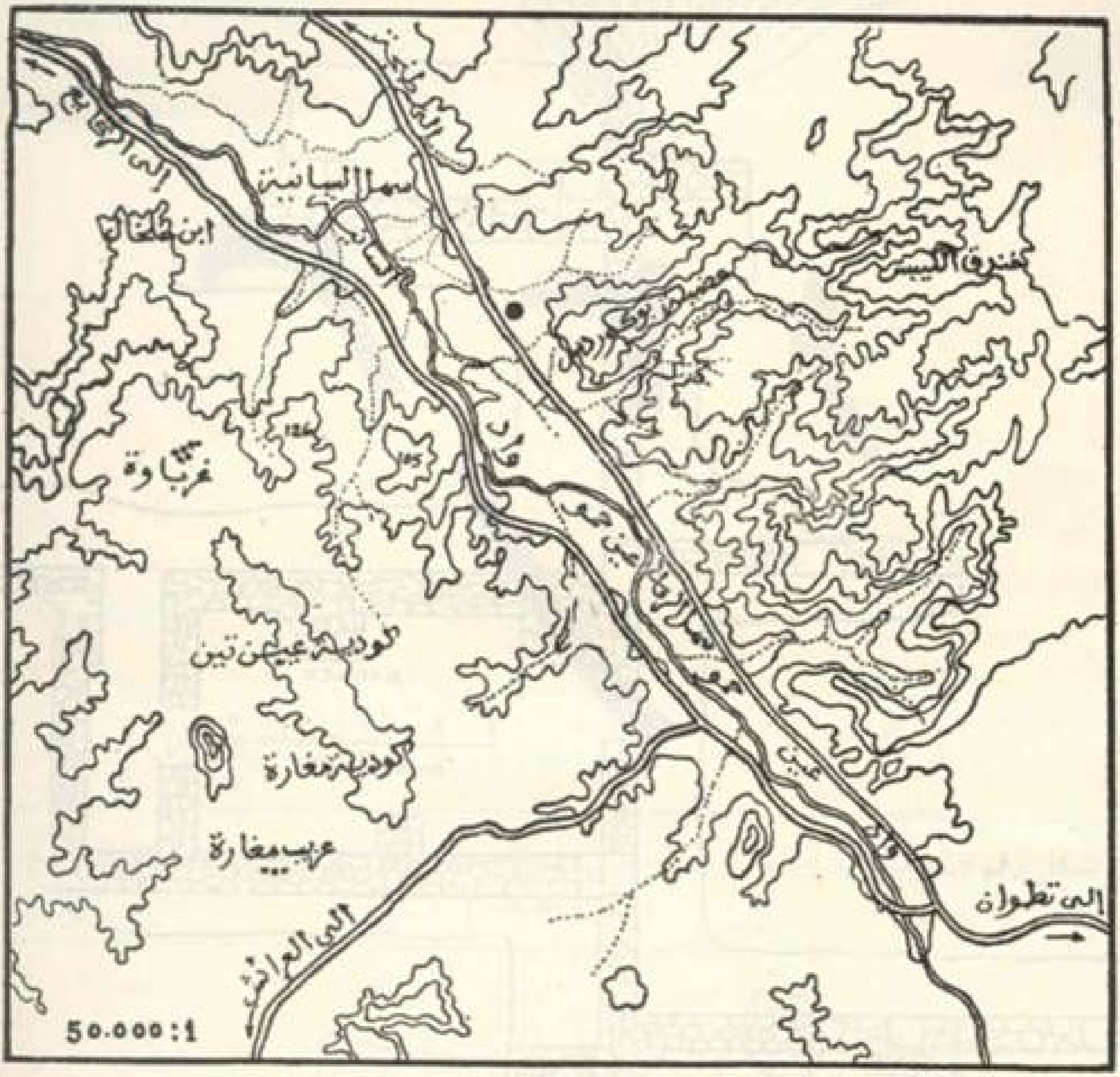
أما الحصنان الباقيان فلا يمكن ان تنسب اليهما الانقاض المعروفة الآن. أما الافتراض بأن «دوغا» هو حصن «البنيان» فافتراض لا يستند على أساس صحيح. غير انه من الراجح ان تكون هذه الانقاض التى تنشر هذا البحث عنها ترجع الى أحد الحصنين. الا انه لا يوجد ما يثبت انتماءها الى أحد الاسمين اثباتا شافيا.



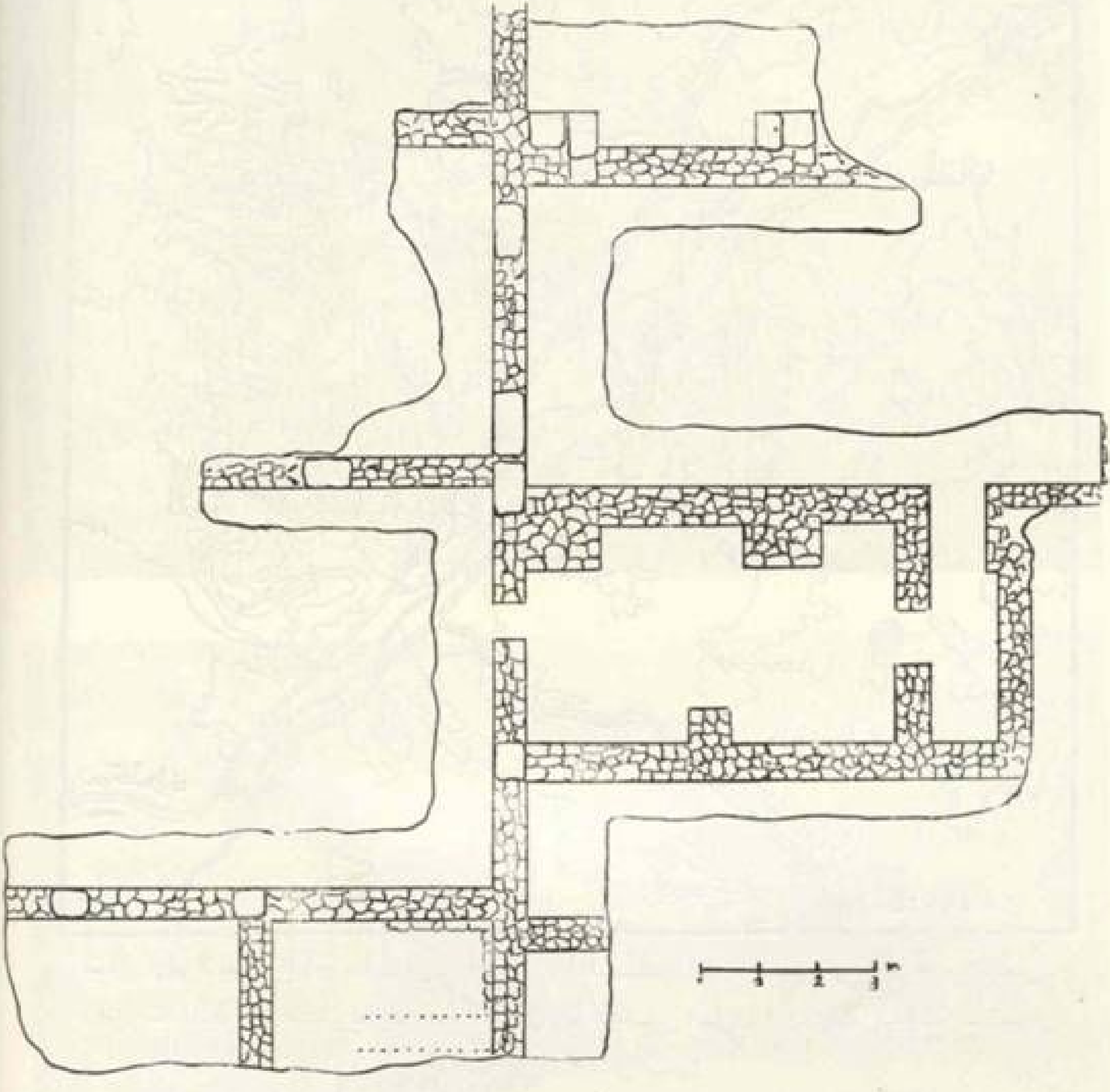
صورة رقم ١.ـ منظر خارجي للسور الذى اجرى به التنقيب رقم ١، ويمكن ان نلاحظ فى الجهة السفلى منه الاحجار الاساسية التى تحيط بمجموعه.



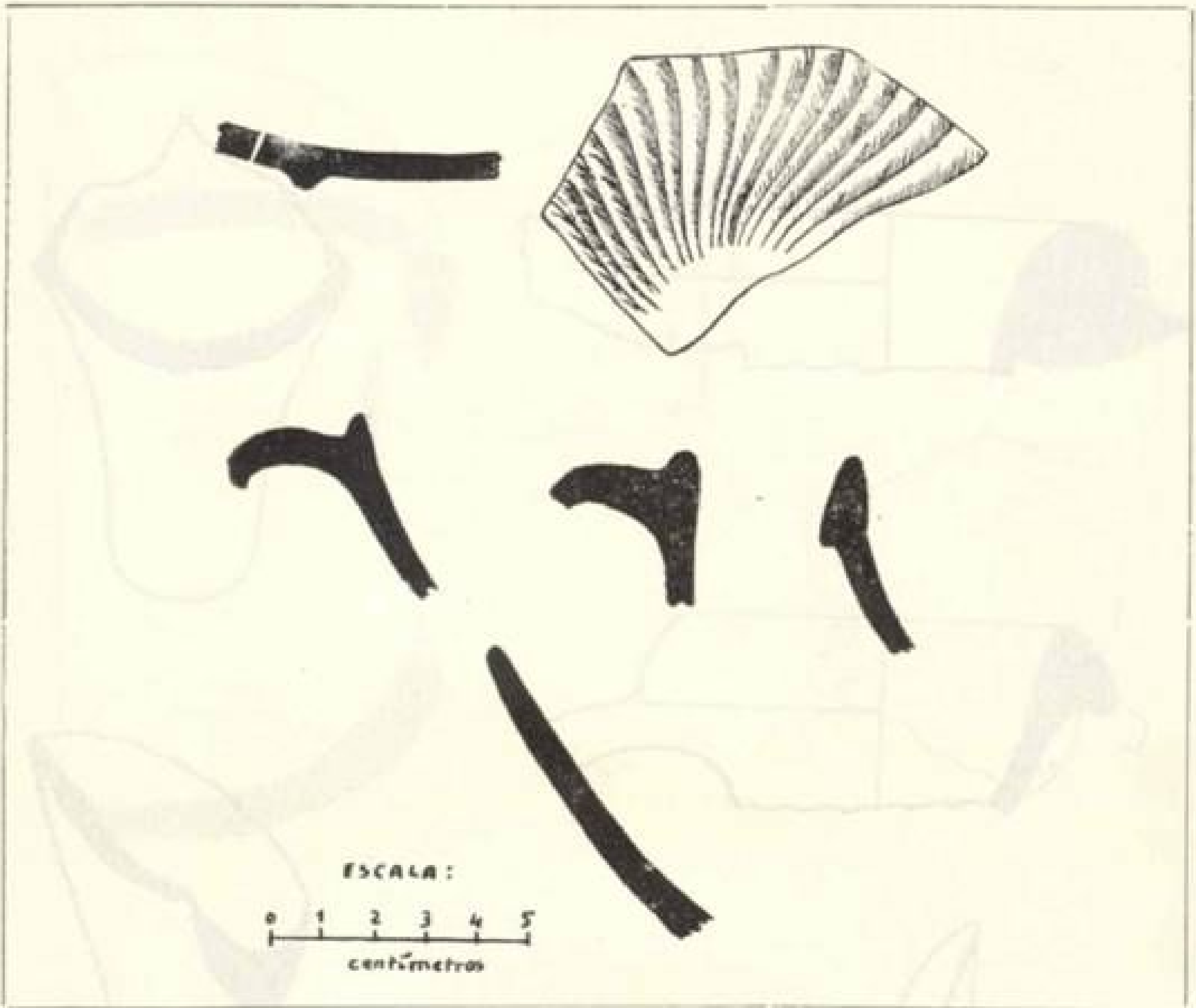




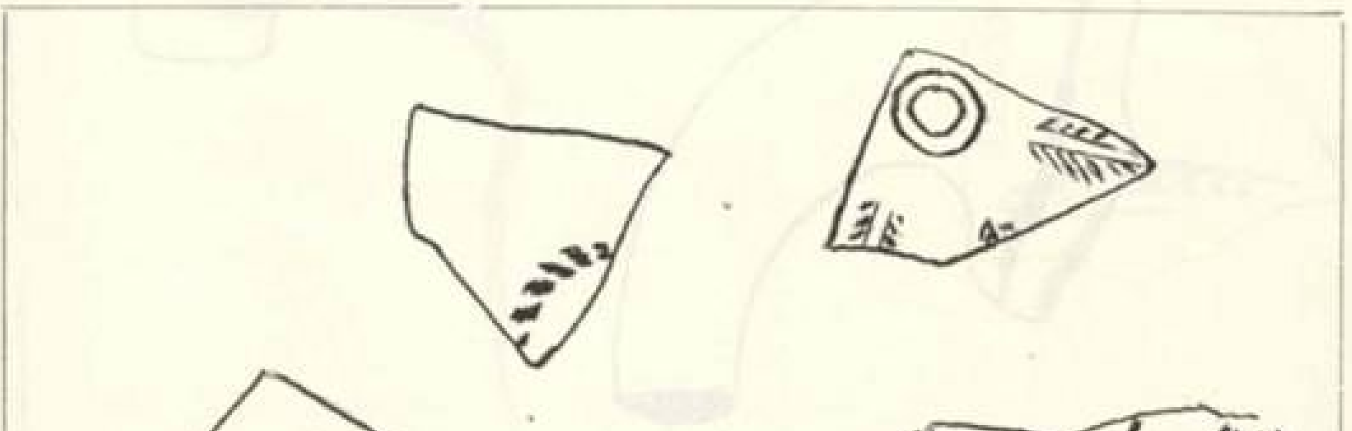
شكل رقم 1.ـ خريطة تحدد موقع البنيان، فالنقطة السوداء تشير الى خرائب البنيان، ومن الملاحظ ان هذا الموقع له اتصال مع ملتقى الطرق الحالية طنجة ـ تطوان وتطوان ـ العرائش .



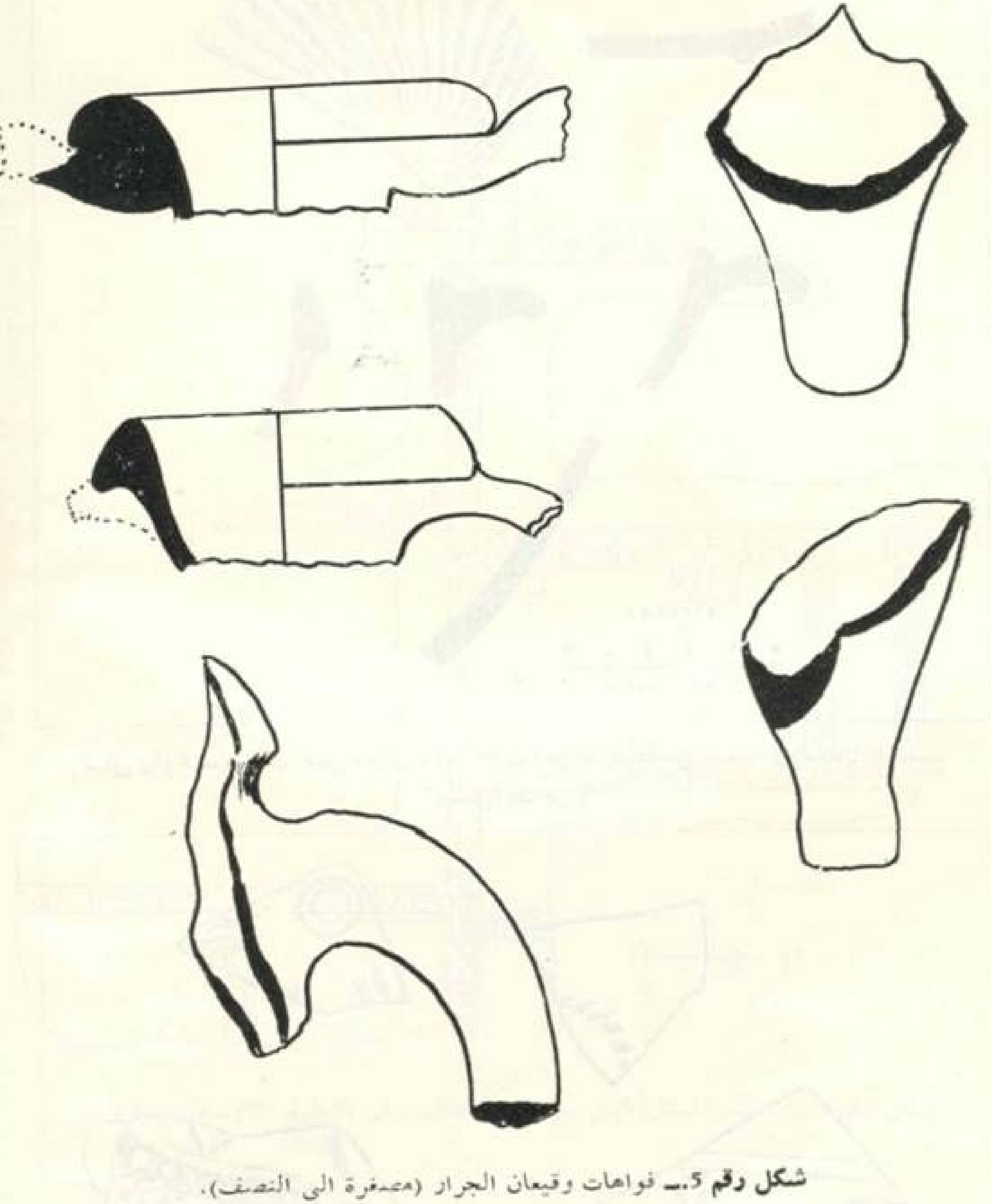
شكل رقم 2.ــ تصميم للمكان الذي جرى بـه التنقيب في القطـع الاوسـط من الحصن



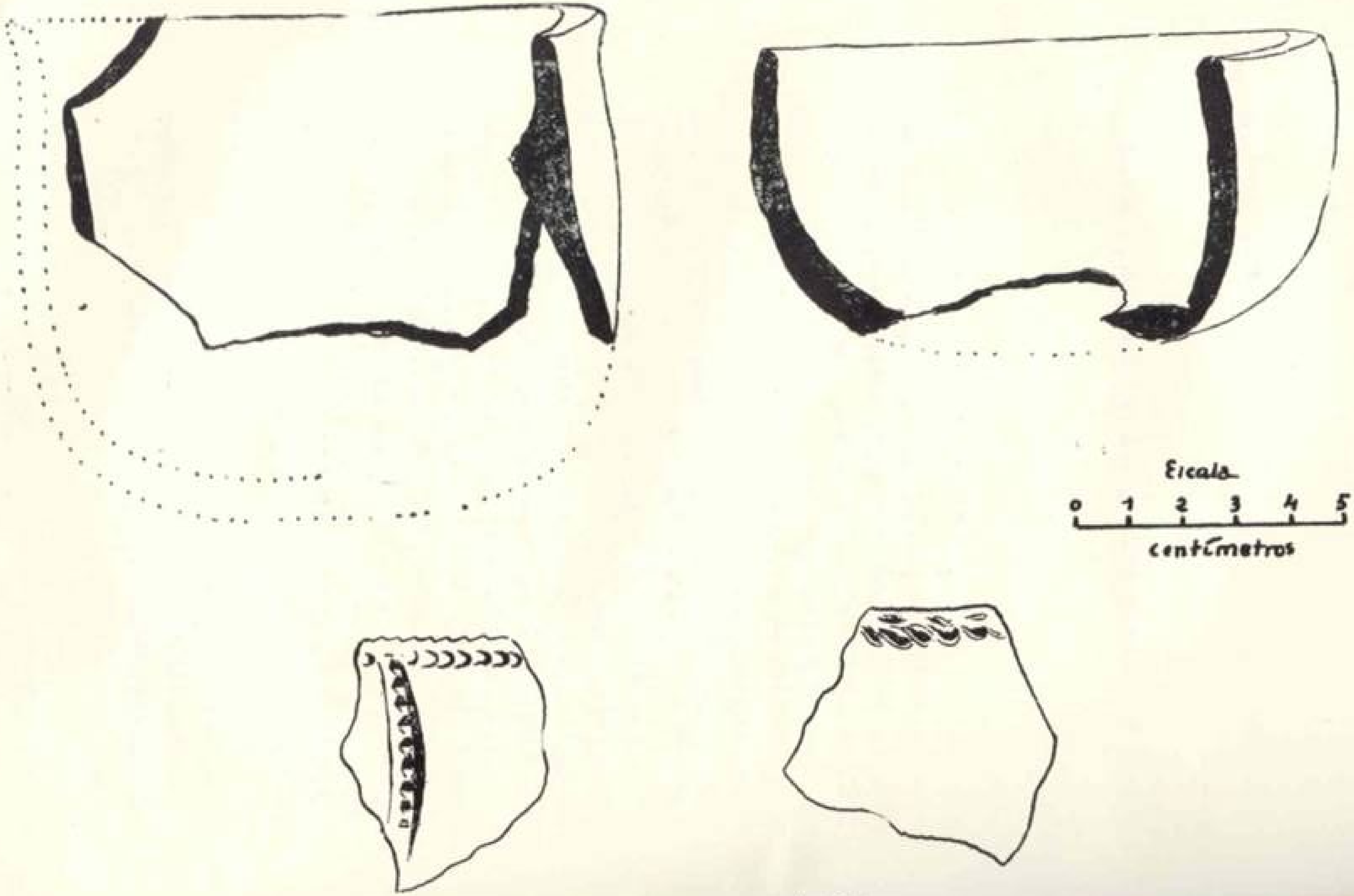
شكل رقم 3.ــ جوانب خمس اكواب وقعر كوب آخر مصنوعة من الفخار سيجيلاتا الواضح
(شيء مصغر)



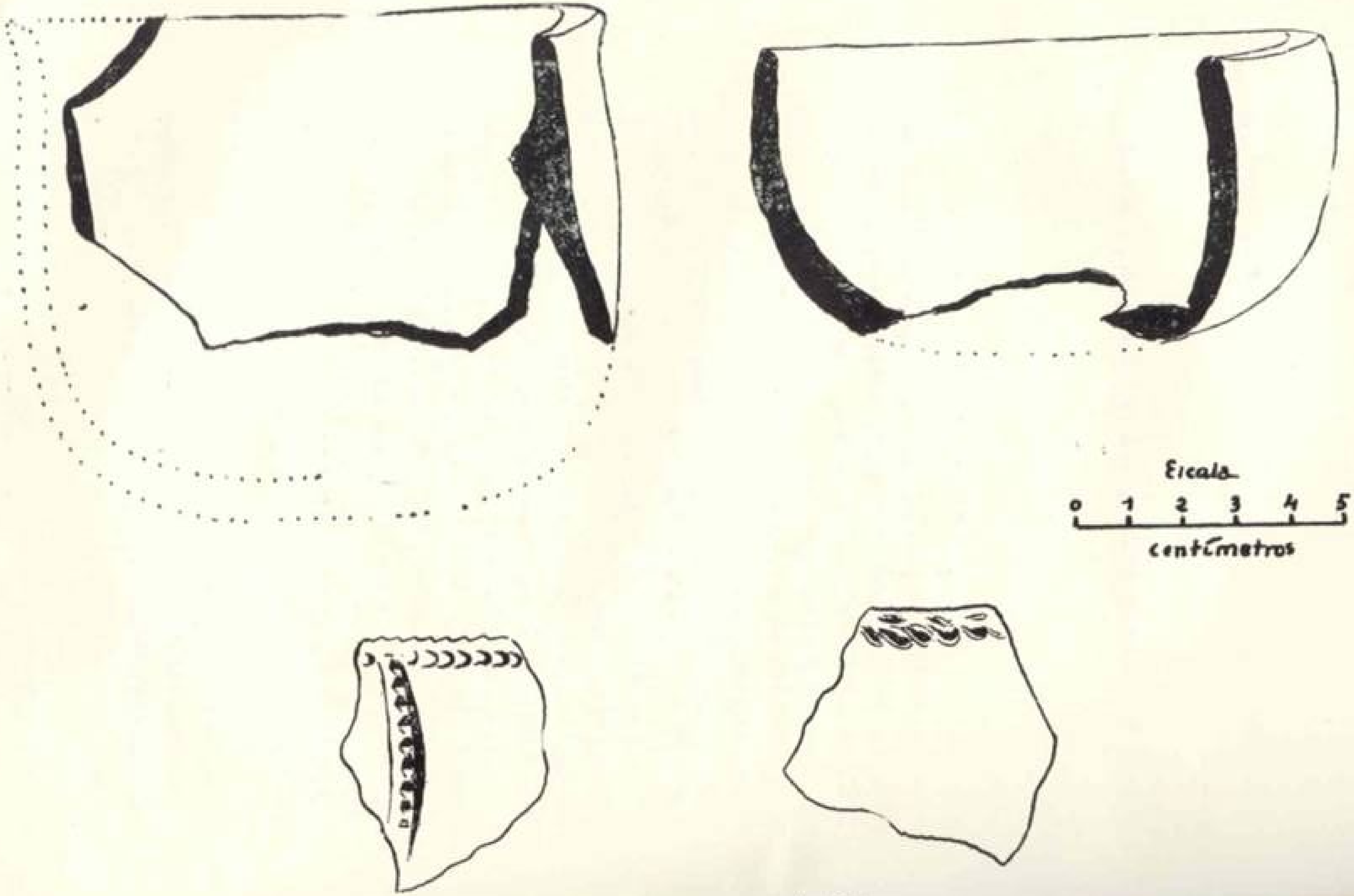
شكل رقم 4.ــ ثلاثة كسرات للجوانب المستطيلة من الفخار المزخرف وكسرة قنديل
يرجع عهده الى القرن الرابع بعد المسيح (قياس عادي).



شكل رقم 5.ـ فواهات وقيعان الجرار (مصغرة الى النصف).



شكل رقم 6.ـــ فخار من صنع ردیء (مصغر قليلا)



شكل رقم 6.ـ فخار من صنع رديء (مصغر قليلا)

خوسي ماريا ميياس فاييكروسا

نصوص خطية جديدة من مؤلفات ابن وافد وابن بصال والطغنري الفلاحية

كنت عائدا في شهر سبتمبر 1954 من «المؤتمر الدولي للمستشرقين» المنعقد في كامبردج فتوقفت بضعة ايام في باريس للبحث في المخطوطات بمكتبتها الوطنية. فسررت بالعثور في بعض المخطوطات العربية الموجودة بها على نصوص لم تثبت بعد في قائمة التصنيف ولا تعرف عليها مؤلفو تلك القوائم، ونريد ان نتحدث اليوم عن نصين في الفلاحة هما «مجموع الفلاحة» لابي المطرف عبد الرحمان بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن محمد اللخمي الطليطلي و «كتاب القصد والبيان» لابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن البصال الطليطلي ايضا، وقد تحدثنا عن الكتابين في مناسبات مختلفة فأخرجناهما من طي النسيان عند المهتمين بالكتب. وقد كان اكتشافنا الاخير للمؤلفين المذكورين في «المكتبة الوطنية» بباريس عند ما كان طبع النص العربي لكتاب ابن البصال في الفلاحة مع ترجمته ودراسته من جانب «معهد مولاي الحسن بتطوان» مشرفا على النهاية.

وسنقدم عرضا قصيرا عن النصين اللذين تعرفنا عليهما مؤخراً . فالمخطوط الواقع تحت رقم 5013 من «المشتريات الجديدة» مخطوط قادم من شمال افريقيا ذو حروف حديثة في خطها كحروف القرن الثامن عشر ويقع في مائة وستين ورقة مرقمة عملت الرطوبة عملها في الاوراق الاخيرة. أما محتوى المخطوط فمختلط. وان كان يحتوي على دراسات شتى تتعلق بشؤون الفلاحة. ولا يحتوي اى منهما لسوء الحظ لا على اسم المؤلف ولا على عنوانه. ونحن لهذا السبب لا نعرف القاعدة التي استند اليها مسيو «بلوشيه» ليؤكد في قائمة المخطوطات ؛ المشتريات الجديدة ـ وفي الصفحة رقم 47 ـ ان نص المخطوط 5013 الذي يوجد بين الورقتين الاولى والحادية والسبعين هو نص كتاب الفلاحة لابي عمر أحمد بن محمد بن حجاج. وسنرى فيما يأتي ضعف هذه القاعدة التي يستند اليها لاصدار ذلك الاثبات .

فالنص الفلاحي يستهل بتقديم قصير بقوله «أطال الله يا أخي ووليي بقاءك في ظل عزه...» ومعنى هذا انه نفس التقديم الذي وجدناه في مخطوط صديقنا السيد محمد عزيمان بتطوان والذي تحدثنا عنه في مقالنا «مخطوط عربي من كتاب الفلاحة لابن وافد». ويتوجه المؤلف في تلك المقدمة الى صديق اجنبي له، أعجب بجمال الرياض والحدائق باسبانيا وطلب منه أن يؤلف كتابا في الفلاحة فأجابه المؤلف الى طلبه وحرره كما يقول على أساس التجربة الشخصية والاخبار والكتب التي ألفها المؤلفون القدماء. ويمكننا ان نلاحظ أن النص مطابق لمخطوط السيد عزيمان الذي يتفق بدوره مع القسم الغالب مما يرد في «كتاب الفلاحة لابي الخير الاندلسي رحمه الله» المطبوع بفاس سنة 1358 من الهجرة والذي تحدث عنه الاستاذ «اميليو غرثية غوميث» في ابانه وكذلك مع نص الترجمة القشتالية الناقصة في القرون الوسطى والتي سبق لنا استخراجها. وان سلسلة الفصول المختلفة تتفق بصورة تكاد تكون تامة مع النص المطبوع في فاس وان كان يحدث بعض المرات في هذا الاخير ان عناوين الفصول تكتب تابعة لنص الفصل السابق دون ابرازها الابراز المطلوب. ونجد في الورقة التاسعة والعشرين من مخطوط باريس كما وجدنا في مخطوط السيد عزيمان عنوان الفصل «اصلاح الزيت حتى يصير مثل الانفاق» الذي افتقدناه في النص المطبوع بفاس. ثم ان مخطوط باريس كمخطوط السيد عزيمان يشتمل على فراغ بالنسبة الى طبعة فاس لان مخطوط باريس يشتمل على فراغ يمتد من السطر الرابع من الصفحة الثامنة والعشرين الى الصفحة الحادية والثلاثين من طبعة فاس. وقد لاحظنا نفس النقص في مخطوط السيد عزيمان .

وكل ما سبق من الملحوظات يحدثنا عن القرابة الوثيقة الموجودة بين مخطوطي باريس وتطوان ويمكن لنا ان نتيقن من ذلك في القسم الخاص بالحيوانات مثل الحمام والبط والدجاج والوقاية من الحيوانات المؤذية كالفيران والافاعي.

غير ان هذه العلاقة تظهر جلية بين النصين الخطيين في الفرق الموجود مع النص المطبوع بفاس. فنحن نجد في هذا النص ان بعض «البعوض» متبع في الورقة 130 من مخطوط عزيمان وفي الورقة 46 من مخطوط باريس بالنص المتضمن «لايام الرجس التي انزلها الله على بني اسرائيل». ولما كان هذا النص موجودا كذلك في كتاب الفلاحة لصاحبه «الطغنري» او الحاج الغرناطي ظننا انه منبثق عن كتابنا هذا. وهذا النص سابق في مخطوطي

باريس وتطوان لسلسلة من المعلومات المتعلقة بزراعة الزيتون والكرم والتين. وهو يكثر من ذكر «يونيوس» حتى ان كثيرا من الفصــول تبتدئ بقولــه : «قال» يونيوس» وقد وعدنا في فرصة اخرى عند التحدث عــن وجود هذين الفصلين في مخطوط عزيمان بأن نعيرهما الاهتمام الذى يستحقانه وهو ما نريد انجازه في يوم قريب. ونريد ان نشير الآن فقط الى ما هو وارد في الورقة الثامنة والاربعين من مخطوط باريس حــول «أبــواب الزيتون» حيث يقال «قال المؤلف قد أورد ما الفت للثلاثة المشاهير من اصحاب الفلاحة في الارض المختارة لغرس الزيتون». والمؤلفون الثلاثة هم «يونيوس» أو «موديراتو كولوميلا» و «ديموكريتو» و «كاسطوس» .

ويورد المؤلف ابتداء من الورقة الخامسة والستين سلسلة من الفصول القصيرة جدا في زراعة مختلف انواع القطانــي والخضــراوات مستندا في الغالب الى قول «يونيوس» باعتباره صاحب القول الفصل. وقد ظهر الكثير من هذه النباتات فــي النــص السابــق لابــن وافد. أما هذا القسم المختصر الموجز فينتهي في الورقة السبعين حيث يبــدأ شرح الداعي الــى تاليــف الكتاب بقوله «وقد اكملت لك أيها الاخ الشقيق كتابي هذا في الفلاحة...»

اما في الورقة الحادية والسبعين فاننا نجد بعد ذلــك الشرح بعــض الاحالات والمعلومات كتبت في الغالب بخط آخر غير خط المؤلف حيث يسجل المصادر والكتاب الذين اعتمدهم بعد التمييز بين القدماء والمحدثين فيذكر من الاولين يونيوس وبارون ولاقطيوس ومن الاخيرين «الرازى» و «ثابــت بــن قرة» وابا حنيفة الدينورى واحمد بن محمد بن حجاج الذى هو مؤلف هــذا الكتاب. ومن الراجح ان ما سبق شرحه هــو الاساس الــذى اعتمده مسيو «بلوشيه» في نسبــة الكتــاب كله اليــه اى الى ابن حجاج من الورقة الاولى الى الورقة السبعين .

غير اننا قد رأينا ان الامر ربمــا كــان متعلقــا في الغالــب بمؤلفين متسلسلين احدهما هو ما نسبناه الى ابن وافــد وهو مــا ورد فــي مخطوط باريس من الورقة الاولى الى الورقة السادسة والاربعين حيث ينتهي النص بالفصل النهائي حول البعوض. ويأتي فيما بعد ذكــر الايام المشؤومة عند اليهود ثم فقرات طويلــة ليونيــوس موديــراتو كولوميلا مع شروح للمؤلف نفسه في بعض الاشجار والنباتات. وما من شك في اننا الآن امام نص آخر ونحن نعتقد بالفعــل ان هذا النص الثاني هو «المقنع» لاحمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي لان شرح غرض التاليف يطابــق الشــرح الــوارد في كتاب

ابن حجاج الذى نقله الينا عالم فلاحى اشبيلى متأخر هو «ابن العوام». ونريد ان نفرغ فى مقال نحن الآن بصدد اعداده لتفصيل القول حول كتاب هذا المؤلف الاسبانى المسلم وحول البيئة الفلاحية المعاصرة له .

وفى الورقة الثانية والسبعين من مخطوط باريس رقم 5013 يبدأ فهرس مؤلف آخر فى الفلاحة. ويظهر ان ورقة قد ضاعت من ذلك الكتاب لان الفهرس يبدأ مع عنوان الفصل الرابع من المؤلف ويشتمل على ستة عشر فصلا. وبعد ذلك يأتى فى الورقة الثالثة والسبعين النص الكامل للمؤلف من الفصل الاول الذى يدرس المياه ثم الفصل الثانى الذى يتناول الاراضى وطبقاتها وانواعها ثم الفصل الثالث الذى يعنى بانواع التسميد . وربما كان عدم تعرف مسيو «بلوشيه» على هذا الكتاب فى قائمته المذكورة يرجع الى هذا السبب. غير اننا سرعان ما نقف امام النص الاصغر المراجع من كتاب ابن بصال فى الفلاحة. وعلى هذا الحال فان مخطوط باريس ذو علاقة وثيقة مع مخطوط السيد عزيمان الذى طالما اشرنا اليه. ونحن نجد فى هذا المخطوط ايضا النص الكامل لكتاب ابن بصال يعقبه كتاب ابن وافد ثم بعض الفقرات التى نعتقد انها مشتقة من كتاب ابن حجاج وقد قارنا مقارنة سريعة بين نصى ابن بصال فى المخطوطين فوجدناهما متطابقين حتى فى الفراغ الموجود فيهما. وهو ما يجعلنا نقول بأن أحدهما تابع للآخر او انهما منبثقان عن مصدر واحد مشترك .

* * *

نقدم الى المطلعين بكل فرح هذا مخطوط جديد من مؤلف «زهر البستان ونزهة الاذهان» فى الفلاحة لصاحبه أبىعبد الله بن مالك «الطغنرى» نسبة الى «طغنر» القريبة من «البلوط». وكنا نعرف بعض المخطوطات من هذا الكتاب الذى يكثر ابن العوام من ذكر مؤلفه فى كتابه الهام فى علم الفلاحة. فالمخطوط الاول هو لضون كارلوس كيروس وهو قادم من تطوان، أما المخطوطان الآخران فقد ذكرهما لوفى بروفنسال وهما بمكتبة «معهد الدراسات العليا» بالرباط تحت الرقمين 459 و 460 ولعلهما كانا فى «القسم الاجتماعى» القديم بمدينة طنجة تحت الرقمين 202 و 203، ذلك القسم الذى ذكره الاستاذ «بيريس» فى كتابه «الشعر الاندلسى باللغة العربية الفصيحة فى القرن الحادى عشر» وتظن الآنسة خواكينا ايغواراس التى تعد الطبعة النقدية لكتاب الطغنرى أن أسرة بنونة بتطوان تملك نسخة أخرى من هذا الكتاب، الا أنها لم تستطع لحد اليوم الوقوف على صحة ذلك الظن .

وكنت خلال سفرتي الاخيرة الى تطوان أختبر بعض المخطوطات بمكتبة صديقي محمد عزيمان مدير التعليم الثانوى العربي بالمنطقة فكانت لي فرصة لاكتشاف هذا المؤلف بينها. وهو مخطوط يقع فى 136 ورقة من غير ترقيم كتبت بنفس الخط المغربى كلها. اما الحروف الاولى والعناوين وبعض الشروح فقد كتبت بمداد أحمر لا زال على حالة جيدة. وقد انتهى نسخ المخطوط يوم 26 من جمادى الاولى لسنة اربع وثمانين ومائتين وألف (1867 ميلادية) الامر الذى يعتبر شيئا حديثا فى هذا الباب. وقام جد السيد عزيمان بالتعليق على هوامشه بكثرة. وهو يقول فى بدايته :

«قال مؤلف هذا الكتاب واسمه حمدون الاشبيلى الاندلسى سامحه الله عنه من الايمة المحققين نفعنا الله به آمين والحمد لله الملك العزيز الوهاب» وبعد ذلك تأتى مقدمة بأسلوب أدبى بليغ .

أما فى مخطوطنا فان الكتاب بالعنوان المذكور منسوب لحمدون الاشبيلى الاندلسى كما هو الحاصل فى المخطوطات الاخرى التى تنسب الى ابن حمدون الاشبيلى أو الى أبى عبد الله حمدون الاشبيلى الذى تتفق كنيته مع كنية الطغنرى. ويمكن تأويل نسبة الاشبيلى بأن المؤلف قد عاش باشبيلية، ولد فى طغنر .

ويتعلق الفصل الاخير من المخطوط المذكور بزراعة النعنع ؛ ويظهر ان الكتاب تام. ولنترك الى غيرنا وخاصة الى الآنسة خواكينا ايغواراس انجاز الدراسة النهائية للمخطوط .

روبرت ريكارد

حرب الستين في مجلة «إيليستراسيون» الفرنسية

كثيرا ما كان الفرنسيون في الماضي موضع الانتقاد بسبب مزاجهم الذي يقتصر على الاهتمام بالشؤون الداخلية ولا يكترث باحوال الغير، واذا كان لهذه المؤاخذة ما يبررها في الظاهر فان الواقع لا يؤكدها على الدوام. فنحن اذا ما تصفحنا مثلا مجموعة مجلة اسبوعية قديمة وشهيرة مثل مجلة «إيليستراسيون» الفرنسية وجدنا أن الاخبار المتنوعة حول مختلف الاقطار تشغل منها مكان الصدارة وتبرهن على اهتمام يقظ بكل ما يتعلق بالخارج. وقد كانت أخبار اسبانيا هدفا لاهتمام فريد ابان الامبراطورية الثانية التي كانت المجلة تقوم خلالها بدور اللسان الناطق باسم الحكومة بصفة شبيهة بالرسمية. ويرجع السبب في هذا الايثار الى جنسية الامبراطورة «أوخينيا» وقد كان لي من حب الاستطلاع ما دفعني الى جمع كل الاخبار المتعلقة بالحرب الاسبانية المغربية والتي وردت عامي 1859 و 1860 في الاجزاء 33 و 34 و 35 و 35 (جزآن عن كل سنة) فكانت أخبارا دقيقة متعددة (1).

أما الاخبار الاولى فقد وردت في العدد 869 الصادر بتاريخ 22 اكتوبر 1859. وقد وردت في غلافه صورة بامضاء «لوبريطون» وهي تمثل الاساطيل الفرنسية والاسبانية والروسية في مرفأ الجزيرة الخضراء (شؤون المغرب) ومن وضع «م. ج. ب.» من ضباط الادارة. ويشاهد في مطلع الصورة منظر جزئي لمدينة الجزيرة الخضراء ثم مدينة جبل طارق. كما يشاهد «جبل موسى» في عمق الصورة غير أن هذا العدد لم يكن يشتمل على أى

1) يمكن القول على وجه التعميم نتيجة لشهادة «الاركون» بأن الحرب قد أثارت اهتماما حقيقيا وعطفا كبيرا بفرنسا. انظر «يوميات شاهد حرب افريقيا» في الصفحتين 183 و 184 من الجزء الاول وفي الصفحات 37 – 42 و 203 من الجزء الثاني طبعة مدريد عام 1931 .

مقال. وكان علينا ان ننتظر العدد القادم وهو 870 الصادر بتاريخ 29 اكتوبر 1859 لنجد في الصفحتين 317 و 318 مقالا بعنوان «القضية المغربية» بقلم مسيو «ف. هيكونيه» مرفوقا بخريطة للمغرب وللقسم الغربي من الجزائر. الا أن هذا المقال الذي يذكر اسباب تذمر اسبانيا من المغرب وموقف انجلترا في النزاع يتعرض فوق كل شيء الى حوادث الحدود التي كانت تطرأ باستمرار بين الجزائر المحتلة والمغرب المستقل، ثم الى العمليات العسكرية التي كان الجنرال «مارتيمبري» يوجهها. وبعد ذلك يعود الصمت الى أن يصدر العدد 873 بتاريخ 19 نوفمبر 1859 حيث نجد في الصفحة رقم 365 صورة من عمل مسيو «ألانجو» ومسيو «إد. بانكري» وهي تمثل تبريك اسقف بلنسية لاعلام الجيش المتوجه الى المغرب يوم 6 نوفمبر مع مقال قصير من وضع مسيو «ل. روزييه» في التعليق على ذلك المشهد.

وأخذت المقالات والصور تتضاعف بعد نشوب الحرب. ففي العدد 875 بتاريخ 3 دسمبر نجد مقالا في التعريف بأودونيل مع صورة له، وهو من وضع «خوان ديل بيرال» ويرد في الصفحتين 399 و 400. أما في الصفحة 405 من العدد 876 الصادر يوم 10 دسمبر فنجد صورتين كبيرتين تمثل أولاهما تحطيم الاسطول الفرنسي لحصن يقع عند مصب النهر المحاذي لتطوان بينما تشخص ثانيتهما احتلال جبل «سيرايو». ونجد في الصفحتين 408 و 409 مشاهد الحرب ومناظر لسبتة ومليلية. اما في الصفحات التالية وهي بالضبط 408 و 409 و 410 فنقرأ ملخصات للمراسلة الواردة من اسبانيا والمغرب المتعلقة بتلك الحوادث. أما الحيز المخصص للحرب الاسبانية المغربية فقد اتسع في العدد التالي (877 بتاريخ 17 دسمبر)، اذ نجد قبل كل شيء مراسلة محررة بمدينة مالقة يوم 4 دسمبر حول «الحملة الاسبانية على المغرب» وهذا المقال يصف لنا بالفعل الحالة العامة لهذا القطر. وترد في الصفحتين 424 و 425 صورة شاملة لمالقة وصورتان صغيرتان لمدينة مراكش ولحصن نهر تطوان بعد تحطيمه بالبوارج الفرنسية «بريطانيا» و «سان لوي» و «فورد» و «تيسيفون». ولنذكر ان هذا العدد يشتمل على تعليق مسهب حول الحملة الفرنسية على قبيلة بني يزناسن تزينه عدة صور (الصفحتان 427 و 428).
أما الاخبار عن الحرب فقد تتابعت بانتظام في الاعداد الاخيرة من عام 1859 ففي العدد 878 الصادر بتاريخ 24 دسمبر نجد مراسلة حول جبل سيرايو بالصفحتين 434 و 435 ويرد فيها ذكر الترجمان هانيبال رينالدي الذي لا نرى ضرورة للاطناب في ذكره نظرا لشهرته. وفي الصفحة 437 نجد صورة لمعسكر

سيرايو حسب تصوير ارسله السنيور «م. ديل بيرال». أما العـدد رقم 879 الصادر يوم 31 دسمبـر فيشتمل علـى مراسلة حول المغرب فى صفحته 450 ومجموعة من الصور (2) التى تمثل بذلات الجيش الاسبانـى والمعركـة التى دارت رحاها يوم 12 دسمبر فى خندق «تراماغيـرا» (3)، وذلك فى الصفحة رقـم 453 .

وجاءت سنة 1860 التى تم فيها احتلال تطوان وابـرام عقد الصلح ومع ذلك فقد ظل موضوع العلاقات الاسبانية المغربية يشغل المكانة الاولى. ومن الحق أنه يمكن للقارىء ان يلاحظ بعض الفوضى التى ترجع الى انعدام الانتظام فى ارسال المقالات. ويشتمل العدد 880 الصادر يوم 7 يناير 1860 على مراسلة قصيرة فى صفحته الثانية وهى محررة فى سبتـة بتاريخ 24 دسمبر 1859 . وترد فى الصفحتين 13 و 14 بعض المعلومات عن الجنرال بريم و «اتشاكوى» مع صورتيهما. اما العدد 881 الصادر يوم 14 يناير فيشتمل على ترجمة موجزة للجنرال لويس غرثية مع صورته فى الصفحتين 21 و 22 وصورة أخرى تمثل نقل الجرحى الاسبانيين بعد معركة كاستييخوس. وكل هذه المعلومات كانت من عمل خوان ديل بيرال. أما العدد 882 الصادر يوم 21 يناير فقد ظهر الاهتمام فيه بفيالق المتطوعين من أهل الباسك الشماليين (والمقال الذى يرد فى الصفحة رقم 44 هو من وضع خوان‌ديل بيرال) وتوجـد فى نفس هذه الصفحة صورة من عمل الفونسو توريكى وتمثل معركة «الجبل الاسود» (14 يناير 1860) (4)

---

2) يظهر ان هذا الفصل القصير كان من تحرير مسيو «ف. بولان»، ومع ذلك فانه يظهر أنه لم يكن للمجلة مراسل خاص مكلف بتتبـع العمليات العسكرية، وكتاب ألاركون على ما أذكر لا يشير بأى حال الى أى مندوب عن مجلة «إليستراسيون» الفرنسية .

3) الحقيقة هى أن شرح الرسم ينص على تاريخ 11 دسمبر. ولعـل ذلك الغلط من عمل المطبعة فقط. لان المقال الوارد فى الصفحة 450 والمذكـور فيما سبق يثبت تاريخ 12 دسمبر الذى هو التاريخ الصحيح كمـا أكـد لى صديقى ضون غييرمو غواسطافينو. الا أن مقال بولان يحرف اسم «تراماغيرا» بتراماغنيرا.

4) تناقش المجلة فى أحد تعاليقها هذا التاريخ وتقول ان يوم المعركة ربما كان يوم 10 يناير. ومن الواضح أنه توجد صعوبة نتجت عن الخلط بين «الرأس الاسود» و «جبل نيگرون» الامر الذى نبه اليه ألاركون فى كتابه، أى فى الصفحتيـن 207 و 208 من الجزء الاول. وقد حدثت بالفعل معركة مريرة يوم 10 يناير (ص 230 من الجزء الاول) ومعركـة أخرى يـوم 14 ينايـر فى

ولم يكن العدد 883 الصادر يوم 28 يناير يحتوي على مثل هذا القدر من المعلومات بل كان مقصورا على مراسلة وجيزة محررة بمالقة (صفحة 50) وعلى صورة تمثل وصول جرحى افريقيا الى هذه المدينة (صفحة 60). ونفس الشيء يحدث في العدد 884 الصادر يوم 4 فبراير والمشتمل فقط على مقال قصير في الصفحة 67 وصورة في الصفحة 72 تشخص الاسطول الاسباني تجاه نهر تطوان. ولا نجد في العدد التالي اي شيء؛ الا أن احتلال تطوان قد مـلأ العددين 886 و 887 اللذين صدرا بتاريخ 18 و 25 فبراير. ففي العدد الاول نلقى مقالا بقلم خوان ديل بيـرال (ص 99 و 100) وصـورا عـديدة (ص 100 و 101) حسب رسوم الليوتنان «بيدرو غاربي» و «خواكين روبيو» و «فال كوميث». ونجد على غلاف العدد الآخر صورة من عمل «م. ا. بانكري» تمثل تقديم غنائم الحرب الى الملكة ايسابيل الثانية زيادة على مقالين قصيرين في الصفحة 114 وخريطة لمعركة تطوان (ص 126) أرسلها جنرال الفيلق «غايرتنر». ولعل هذه الخريطة هي أهم وثائق المجموعة. وفي العمود الثاني من صفحـة 127 نجد فصـلا يحتوي على المراسلة الموجهة الى أشخاص من جبل طارق وتطوان ومدريد في اثبات صحة المصادر التي تستقي الاخبار منهـا. وجاء العدد 888 الصادر يوم ثالث مارس معلنـا افتتـاح مفاوضـات الصلـح ومحتويا على مقال وجيز بامضاء «فيري» (ص 131) ورسم أرسله الليوتنان «إيلديفونسو سانت» (ص 136). غير أنـه لا يأتي أي ذكر لفشل المفاوضات فيما بعد. أما العدد 889 الصادر يوم 10 مارس فقد اقتصر في صفحته رقم 146 على ذكر رمي الاسطول الاسبانـي لمدينتي العرائش واصيلا بقنابل مدافعه (25 و 26 فبراير). ولم تعد الحرب الاسبانيه المغربية الى الظهور الا في العدد 892 الصادر يـوم متم مارس حيـث ورد في الصفحة 194 ذكـر لمعـركـة «سمسة» بقلـم فيري وصورة من عمل الليوتنان إيلديفونسو سانت حول تلك المعركة التي جرت يوم 11 مارس. وجاءت هـذه

«الرأس الاسود» لا في جبل نيكرون (ص 253 ـ 258 من الجزء الاول) ويميل المؤرخ أمام هذه الظروف الى إحقاق قول المجلة. غير انه من الصعب التصديق نظرا لمواصلات ذلـك العهد وللزمن المتعين لانجاز الرسوم وطبعها أن تصدر بباريس بعد سبعة أيام صورة لمعركة حدثت يوم 14 يناير. ونفس المجلة تثبت في الصفحة رقم 44 أن المعركة الهامة التي دارت يوم 14 يناير والتـي فتحت وادي تطوان أمام الجيوش الاسبانية لم تكن تعرف آنذاك الا بواسطة البرق ولم يكن يعرف عنها أي تفصيل. ونحن سنرى أن الاخبار المتعلقة باحتلال تطـوان (5 ـ 6 فبراير 1860) لم تنتشر قبل 18 فبراير.

الصورة على الصفحة 197. الا أنه قد كثر الاهتمام بشؤون ايطاليا بعد ان أخذت حرب افريقيا تقترب من نهايتها. فالعدد 893 الصادر يوم سابع ابريل قد اورد ذكرا قصيرا حول الجنرال «كاسيت» فى الصفحة 223 ومقالا مسهبا للدكتور لوى إرنست بعنوان «رحلة الى تطوان» مع أربعة رسوم (ص 227 و 228 و 229) بينها صورة لمنظر المدينة حسب الصور التى التقطها السنيور «م. دانتيز» الذى كان فى صحبة المؤلف. أما خاتمة التعليقات على الحرب فضئيلة. فنحن نستغرب اغفال المجلة لابرام عقد الصلح وشروط المعاهدة اللذين لا تثبت فى شأنهما ولا كلمة واحدة. ونحن لا نجد تأويلا أو شرحا لذلك النسيان لان المجلة تكثر الحديث عن العود المظفر للقوات الاسبانية. ففى العدد 895 الصادر يوم 21 أبريل نجد مقالا للدكتور إرنست ورسما من عمل «م. ا. بريفوست» (ص 251 و 252)، ثم اننا نجد فى العدد 900 الصادر يوم 26 ماى (ص 336 و 337) مقالا آخر لنفس الكاتب وصورة كبرى للسنيور بريفوست ثم صورتى الجنرالين «ثابالا» و «ثيربينو». ولا يأتى بعد هذا العدد أى ذكر للحرب الاسبانية المغربية فى المجلة الفرنسية.

وتحدث مجموعة هذه المقالات والصور تأثيرا طيبا فى قارىء اليوم. فمن الواضح ان مجلة «إيليستراسيون» قد بذلت مجهودا جديا شريفا بغية إخبار الجمهور بالحوادث، الامر الذى يتجلى فى تعدد الكتاب وتنوعهم. أما الصور فهى من النوع المألوف آنذاك. وقد امتازت المقالات والتعليقات بالايجاز والنزاهة وحررت كلها بأسلوب مشرب بروح العطف على اسبانيا. ونحن اذا حللنا تلك المقالات تحليلا دقيقا وجدنا الاغلاط الجزئية بسهولة؛ الا أننى لم أعثر على غلطة هامة. أما الاسماء العربية فمكتوبة طبق الطريقة السيئة التى كانت متبعة فى ذلك العصر بينما الاسماء الاسبانية يدخل عليها بعض التحريف وقلما يحدث هذا التحريف بكيفية تفوق ما يحدث الآن فى الجرائد والمجلات الحالية. ولن أزعم بحال أن مجلة إيليستراسيون هى المصدر الرئيسى لمعرفة الحرب الاسبانية المغربية. غير اننى أعتقد مع ذلك ان المؤرخ الذى قد يريد فى يوم من الايام كتابة تاريخها لن يستطيع بحال أن يترك تلك المجلة جانبا لان البحوث التى بأيدينا اليوم ناقصة وعتيقة.

رسالة من سلطانة المغرب لالا فاطمة الى «ماريا لويسا دي پارما» أميرة أشتورياس

لقد كان لى حظ عظيم فى العثور أثناء البحث فى الوثائق العربية المتعلقة بالمغرب والمحفوظة فى «قسم الدولة» من «السجل التاريخى القومى» على رسالة فريدة لانها مكتوبة باسم امرأة هى السلطانة لالا فاطمة زوجة مولاى محمد بن عبد الله .

وقد استلفت نظرى العثور على تلك الرسالة بين تلك الوثائق العديدة التى امكنتنى الفرصة من البحث فيها لانها هى المرة الوحيدة التى وجدت فيها وثيقة مذيلة باسم امرأة . والرسالة موجهة الى «مضامة لويزة البرنسيسة ذى أسطرياس» ونصها كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم　　　　ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

من السلطانة العظيمة بالمملكة المغربية لالاتنا ومولاتنا فاطمة ادام الله عزها زوجة مولانا السلطان الاعظم سلطان مراكش وفاس ومكناسة وتافلالت وسوس ودرعة نصره الله

الى ال[ع]ظيمة مضامة لويزة البرنسيسة ذى اسطرياس ها انا كنسلم عليك ونسئل عن حالك ونحب تكون دائمة فرحانة ويطول عمرك وعلى قدر محبتكم فينا بعثنا لك تفكيرة من عندنا قبل هذه الايام على يد القونصوا طماس ابريم قيسارية من اللوبان ولو كان باقى فى طاعتنا نصرانيات ايسيرات لكنت وجهتهم اليك القدر الذى كانوا الان اليسيرات التى كانوا عندنا من اجناس النصارى سرحناهم شىء بالفدية وشىء بقصد الاجر ويصلك صحبة هذه البراءة زوج دمالج من ذهب هما من الذهب الذى ياتينا من جناوة متاعنا وهما من الحلية التى نستعملها فى ايدينا تفكيرة من عندنا اليك والذى ياتى على خاطرنا من عندك هو توجه لنا يسيرة مسلمة او زوج ايسيرات

يطلع فيهم الاجر للجانبين ونحن معكم على المراعات والخير صدر الامر بكتبه من مكناسة حرسها الله فى ثانى عشرين من رمضان المعظم عام خمسة وثمانين ومائة والف.

وهذه الرسالة موجودة في المجموعة 4348 من «قسم الدولة» المذكور وفي هذه المجموعة ايضا ترجمة فرنسية للرسالة.

وكان السلم منشور الاعلام بين المغرب واسبانيا آنذاك وكانت العلاقات بين الملكين كارلوس الثالث ومولاى محمد بن عبد الله علاقات ودية. فلم يكن قد مضى بعد وقت طويل على سفارتي «احمد الغزال» و «خورخي خوان» اللتين انتهتا بالتوقيع على اتفاق 1767 . ثم كانت لاسبانيا قنصلية بالمغرب أسندت مهامها الى «دون طوماس بريموند». وقد تعين مرور وقت طويل لكى تحدث القطيعة بين القطرين ويضرب مولاى محمد بن عبد الله الحصار على مدينة مليلية. فقد كان السلطان قد شرع فى الاستعدادات العسكرية بعد استرجاعه لمدينة الجديدة من البرتغاليين.

وليس فى كل هذه الظروف ما يحمل على الاستغراب من اقدام اميرة أشتورياس «ماريا لويسا دى پارما» والزوجة الذى سيكون كارلوس الرابع على الاهتمام لدى السلطانة لالا فاطمة بمصير الاسيرات المسيحيات اللائى كن فى قبضتها وتطلب منها بعثهن اليها حتى تحصل على حريتهن .

وقد أجابت السلطانة على ذلك المسعى بالرسالة التى اثبتنا نصها والتى تعرب فيها للاميرة عن ارسال هدية اليها بواسطة قنصل اسبانيا بالمغرب «دون طوماس بريموند» . والهدية عبارة عن علبة للحلى معمولة من التبر الاصفر . أما فيما يتعلق بالاسيرات المسيحيات فتقول السلطانة انه لو كان لديها بعضهن لبعثتهن اليها مهما يكن عددهن. أما الاسرى فقد استعادوا حريتهم اما باداء رسم الافتكاك واما بقصد الاجر. الا ان السلطانة قد بعثت الى الاميرة تذكارا هو عبارة عن زوج من دمالج الذهب القادم من السودان مؤكدة لها انهما يستعملان لتزيين الايدى.

وتطلب السلطانة من الاميرة فى ختام الكتاب ان ترسل اليها اسيرة او اسيرتين مسلمتين وان كنا نظن عدم اجابتها الى ذلك الطلب لانه لم يكن لهما وجود آنذاك باسبانيا .

وفى النهاية تقدم السلطانة نفسها للاميرة لتواصل معها علاقات الصداقة الطيبة والوئام . غير اننى لم استطع العثور على ما يثبت استرسال تلك المراسلة.

صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد

صدر المجلد الخامس من هذه الصحيفة محتويا على العددين 1 و 2 اللذين يتكون منهما المجلد الخاص بسنة 1957 وهو يقع فى أكثر من 600 صفحة بين قسميه العربى والاسبانى، ويحتوى على أبحاث قيمة ونصوص محققة بأقلام جمهرة من كبار الاساتذة العرب والاسبان . وقد شارك فيه أيضا من المغرب الاستاذ محمد بن تاويت والاستاذ عبد العزيز بن عبد الله وكاتب هذه السطور

ومن النصوص المهمة التى ظهرت فيه رسالة أسنى المتاجر، فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر لابى العباس أحمد الونشريسى صاحب المعيار. وقد قام بتحقيقه والتقديم له الدكتور حسين مؤنس، أما التقديم فهو دراسة موضوعية للمشكلة حقيقة بالتنويه، واما التحقيق فقد اعتمد الدكتور فيه على نسختين للرسالة، احداهما توجد ضمن مخطوط بمكتبة الاسكوريال يحمل رقم (1758) والثانية هى الثابتة فى الجزء الثانى من المعيار، طبعة فاس الحجرية، وبما ان الخط المغربى ما يزال صعب القراءة على بعض اخواننا الشرقيين، فقد اشتبهت بعض الكلمات فى نسخة المعيار على الدكتور الفاضل مثل كلمة فحينئذ التى ثبتت كذلك فى مخطوطة الاسكوريال، وجاءت فى نسخة المعيار هكذا : فح~ مختزلة على اصطلاح النساخ المغاربة فأشار الدكتور فى التعليق (2) ص (153) الى أنها فى المعيار: (فعجره) ولا شك ان ذلك متأت من عدم الاهتداء الى الاصطلاح المذكور .

ومثل كلمة انتهى فى صفحة (157) التى علق عليها الدكتور بقوله : (لفظ انتهى وارد فى الاصل ـ يعنى مخطوط الاسكوريال ـ ساقط فى م) يعنى نسخة المعيار. والواقع أنه ثابت فى المعيار أيضا بطريقة الاختزال هكذا : (هـ).

وأشار الدكتور فى صفحة (151) الى كتاب عارضة الاحوذى لابن العربى ومظان وجوده مخطوطا فى مكاتب المشرق والمغرب، ولم يشر الى أنه قد طبع بمصر منذ سنوات مع جامع الترمذى الذى هو شرح له. وفى ترجمة

الونشريسي ورد أنه أكب على تدريس المدونة وفرعى ابن الحاجب وبعد لفظ فرعى بين هلالين : (كذا وصحتها فروع) والصحيح هو اللفظ الاول ويشير الى مختصريه الاصلى والفرعى كما هو معلوم .

وفى صفحة (١٨١) توقف الدكتور فى شخصية الامام النووى قائلا : (لم أجد لهذا الشيخ ذكرا فيما بين يدى من المراجع) بعد ان أورد بعض الاسماء التى تحمل هذه النسبة. ومحيى الدين النووى ممن لا يخفى أمره، فهو أحد ائمة الشافعية وحفاظ الحديث وشارح صحيح مسلم وصاحب الاربعين حديثا النووية المشهورة .

ومن أبحاث الصحيفة «النقوش الزخرفية والكتابات على السيوف الاسلامية» للدكتور عبد الرحمن زكي وهو بحث طريف وتنبه على قراءة هذه الآية التى وردت فيه هكذا : (ورد الله الذين كفروا لغيظهم ...) مما نقش على بعض السيوف بأن صواب القراءة بغيظهم بالباء . كما أن هذا البيت من شعر عنترة الذى كا نمنقوشا على أحد السيوف، وهو :

حكم سيوفك فى رقاب العزل وإذا بليت بعار ذل فارحل

صوابه :

حكم سيوفك فى رقاب العذل وإذا نزلت بدار ذل فارحل

فان كان النقش كذلك فالخطأ من الصانع والا فمن القراءة .

ومن أبحاث القسم الاسبانى موضوع بعنوان : نشاط الدراسات الفلكية فى الاندلس للدكتور مياس وهو من أفيد ما كتب فى هذا الصدد وفيه انصاف كثير وقد قدم ملخصه فى القسم العربى. ومنها موضوع : المطبخ الاندلسى المغربى خلال العصر الموحدى الذى قدم فيه الاستاذ ويسى مخطوطا فريدا فى بابه عن الطعام والوانه فى الاندلس والمغرب على عهد الموحدين . واختتمته ببيان عن أنواع الاطعمة والحلوى والمربيات وغيرها الوارد ذكرها فى المخطوط، وهى عدة مآت، مما يدلنا على ازدهار الحضارة فى العصر الموحدى الذى يعد العصر الذهبى فى تاريخ المغرب العربى .

ومع الاسف فان هذا المخطوط مبتور الاول لا يعرف صاحبه. وبالجملة فان هذه الصحيفة عامرة، وتدل على النشاط العظيم الذى يقوم به معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد .

عبد الله كنون

الزجل فى الاندلس

للدكتور عبد العزيز الاهوانى

أصل هذا الكتاب محاضرات ألقاها صاحبه فى معهد الدراسات العربية العالية، وقد فصل الكلام فى موضوعه الى ثلاثة فصول نشأة الزجل، وتاريخ الزجل وحياة الزجالين، ومكانة الزجل وقيمته الادبية. ثم تناول كل فصل من هذه الفصول بما لا مزيد عليه من الدرس والتحقيق. فعن نشأة الزجل يرى الدكتور الاهوانى انه هو والتوشيح يرجعان الى أصل واحد، هو الاغنية الشعبية التى كان لها الفضل فى ظهور التوشيح والاثر فى استقلال الزجل وتطوره .. وذلك فى الاندلس، فهى اذن مبعثهما معا ومنبتهما جميعا، ومنها صدرا الى المغرب والمشرق. ويستدل على ذلك فيما يستدن به (بالخرجة) التى هى ختام الموشحة فانها كثيرا ما تكون فى لغة عامية أو أعجمية، وهذا يعنى أن الزجل بعد تطوره احتفظ بهذا الأثر الذى وقع البناء عليه دلالة على الاصل القديم . وقد أورد خرجات عديدة يؤيد بها هذا الرأى وتنسجم معه تمام الانسجام. وتضمين الخرجة فى الموشح واضح لا غبار عليه اذ يظهر من الفرق بين لغته المعربة ولغتها الملحونة. أما فى الزجل حيث يستويان فى اللحن فقد استدل الدكتور عليها بما جاء فى بعض الازجال من التصريح بتضمينها .

ويثير الدكتور هنا إشكالا فى معنى الخرجة اذ أنه بالنسبة الى الموشح يدل على الخروج من الكلام المعرب الى الكلام الملحون، ولا يكون كذلك فى الزجل، ونحن لا نرى أن هذا هو معناها لا فى الموشح ولا فى الزجل، وانما معناها فيهما معا النهاية والانصراف فهو خروج حسى لا معنوى، وكأنه هذا الشىء الذى يتكلم عنه البديعيون ويسمونه بحسن الختام للاشعار بالانتهاء كبراعة الاستهلال التى تشعر بحسن الابتداء .

وعن تاريخ الزجل وحياة الزجالين، يتحدث الدكتور فيقول : ان الزجل يرجع الى العهد الذى انحرف فيه التوشيح عن بساطته الاولى وذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى حيث عاش عبادة بن ماء السماء . ويوسف بن هرون الرمادى، اللذان ادخلا التغيير على الموشح كما ينص على ذلك ابن بسام فى الذخيرة . ويفيض فى الحديث عن الزجل فى القرن الخامس والسادس، والسابع، والثامن وعند المدجنين فيما بعد ذلك معتمدا فى هذا

على بعض المصادر الاسبانية، كما أنه أفاض في الحديث عن حياة ابن قزمان بالخصوص، وهو الزجال الذى احتفظ لنا التاريخ بديوانه والـذى يعـد امام الزجالين قاطبـة...

وقد تبطن الدكتور حياة هذا الزجال من تحليل زجله، وأظهر ما فى أزجاله من فن وذوق أدبى وتفاعل مع بيئتـه الاندلسيـة التـى تعـرف مدى احتفالها بمجالس اللهو والطرب والشراب، وان كنا نختلف مع الدكتور فى شيء من هذا الفصل بل وفى غيره من الفصول فانما ذلك فـى قراءتـه لبعض الازجال أو تفهمه لبعض جماها، والخطـب فـى ذلك سهـل كما يقولون، اذ لا يترتب عليه خلاف جوهرى فى موضوع البحث .

وفيما يخص الفصل الثالث وهو مكانة الزجـل وقيمتـه الادبيـة يضع الدكتور مقارنة بين الشعر والتوشيح والزجل، أو قل بين قالة هذه الفنون من الشاعـر والوشاح والزجال، فيحدد مذهب كل وثقافته ويعين جمهـوره المعجب به والمشايع له، وهو يجعل الوشاح يقتفى خطـى الشاعر ويخاطـب الجمهور الذى يخاطبه الشاعر، فلا يبعد بالتوشيح عـن مكـان القصيدة فـى وضع أو اعتبار، أما الزجال فهو عنده يقف بين بين، لا الى العامة ولا الـى الخاصة، لان فنه وان لم يكن خاصيا رفيعا فكذلك ليس هو شعبيا عـاميا ، بناء على رأيه السابق فى نشأة الزجل من استقلالـه وتطوره عـن الاغنيـة الشعبيـة .

وهكذا نرى عمل الدكتور متساوقا متماسكا مع رأيه فى الزجـل اولا واخيرا، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على التمكن والاقتدار. وبعد، فقد قال الدكتور الاهوانى فى مقدمة كتابه : (ان الزجل يكاد يكون مجهولا مـن عامة المثقفين وخاصتهم، فليس له مكان فى كتبنا عن تاريخ الادب العربى ولا فى برامج الدراسة فى مدارسنا، ونصـوصه القديمة بعيدة عن أيدى الناس، وتاريخه وأطواره وموضوعاته ولغته ومكانته فى المجتمع، ومنزلته من القصيدة العربية ومن التوشيح ومن الاغنية الشعبية، كل ذلك لم يبسط فيه القـول، ولم تخرج فيه للناس دراسات علمية يعتمدون عليها، ويستغنـى بها الباحث عن الرجوع الى الماضى البعيد، حين يريد ان يتحـدث عـن الحاضـر او عن الماضى القريب) وهذا كله مما يجعل لكتابه قيمته بين الكتب التـى تتناول تاريخ الادب العربى وتطوره وازدهاره .

عبد الله كنون

مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب
في بلاد المغرب والاندلس

نشر الدكتور احمد مختار العبادي وتحقيقه

هذه مجموعة من رسائل لسان الدين ابن الخطيب عمل على تحقيقها ونشرها الدكتور احمد مختار العبادي ابن أخت الدكتور المرحوم عبد الحميد العبادي والمدرس للتاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

وهذه الرسائل هي (1) خطرة الصيف ورحلة الشتاء والصيف. (2) مفاخرة مالقة وسلا ، (3) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، (4) رحلة ابن الخطيب في بلاد المغرب. وهي طرف من كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب

والرسالة الاولى هي وصف للرحلة التي قام بها ملك غرناطة أبو الحجاج يوسف بن نصر الى الثغور الشرقية من مملكته ومعه وزيره لسان الدين، وليست رحلة الى المغرب كما توهم بعضهم ونبه على ذلك الناشر.

اما الرسالة الثانية فان موضوعها ظاهر من اسمها، ولقد كال ابن الخطيب فيها من الفضل لمالقة بقدر ما بخس سلا حقها ويظهر ان الجرح الذي أوحى اليه في سلا برسالته (مثلى الطريقة في ذم الوثيقة) لم يندمل قط . فبعد أن تناول في هذه الرسالة الشخص الذي لم يستجب لدعوته بسبب ما تقتضيه خطة الشهادة من الورع ـ على ما ظنه لسان الدين ـ وتناول معه الشهود والخطة أيضا، عاد في رسالة المفاخرة فتناول المدينة التي آوته في ابان محنته بما لا مزيد عليه من الازراء ، وهذه عادة الادباء في ذلك العصر بل وكل عصر، الا من رحم ربك، ومن اثنى عليك بما ليس فيك عابك بما ليس فيك .

ولم يشر الناشر الفاضل الى ما يحتمل ان يكون سبب تحامله على سلا من هذه الواقعة، وحبذا لو فعل ذلك، وأضاف الى مجموعته المفيدة رسالة مثلى الطريقة ايضا، فانها من بابة هذه الرسائل في الجملة . وأما الرسالة الثالثة فهي المعروفة بمقامات البلدان، واسمها هو ما ذكره الناشر، وقد وصف فيها ابن الخطيب عددا من مدن الاندلس والمغرب بأسلوبه الفني المعجب، ومنها سلا التي بعد ما ذكر كثيرا من محاسنها عاد فذمها أيضا بملخص ما في رسالته الخاصة بها وبمالقة .

وقد طبعت هذه الرسالة بفاس سنة 1325 فى مطبعة أحمد يمني ويظهر أن الدكتور العبادى لم يقف على هذه الطبعة فلذلك لم يذكرها عند اشارته لمن عني بالرسالة من الباحثين والناشرين . وأما الرسالة الرابعة فهي طرف من كتاب (نفاضة الجراب) لابن الخطيب وبالتدقيق هو كما يقول الناشر وصف للرحلة التى قام بها المؤلف فى بعض نواحي المغرب حينما لجأ هو وسلطانه المخلوع الى هذه البلاد ما بين سنة (760) و (763) على ما يذهب اليه الناشر خلافا لما هو مشهور من أن تاليف ابن الخطيب لهذا الكتاب كان فى المدة الاخيرة التى قضاها بالمغرب قبل وفاته .

ويرى القارئ من هذا العرض أن فائدة هذه الرسائل للدارسات المغربية عظيمة جدا، فاذا أضفنا اليها ما علق به عليها ناشرها الفاضل وما مهد لها به من دراسة موضوعية محققة كانت فائدتها أكمل وأهميتها أعظم. ولا نشير الى ما نخالف فيه المحقق من قراءات وتفسيرات لبعض العبارات الواردة فى نصوص هذه الرسائل فان ذلك مما لا يقدح مطلقا فى عمله من الوجهة العلمية والتاريخية، وكفانا انه نفحنا بهذه الذخائر الثمينة التى كانت تتقطع دونها الآمال فى حلة قشيبة من النشر والتعليق ... على أننا ننبه من جديد الى هذا الاشتباه الذى يقع لبعض الباحثين بين الامير اسماعيل بن الاحمر مؤلف روضة النسرين ونثير الجمان وبين ملك غرناطة يوسف الثالث الذى أثبتنا فى مقدمة ديوانه أنه مؤلف كتاب البقية والمدرك من شعر ابن زمرك ونبهنا هناك الى الاشتباه الذى وقع فى شأنه لبعضهم بالامير اسمعيل المذكور فلينظر ذلك فى مقدمة الديوان المشار اليه .

عبد الله كنون

ابن بصـال = كتـاب الفلاحـة

نشره وترجمه وعلق عليه
خـوسى ماريا ميـاس بييكـروسا ومحمد عزيمـان

231 صفحـة بالاسبانية و 182 صفحـة بالعربية . تطوان ـ المغـرب
معهـد مـولاى الحسن ـ 1955 (1)

عظم دين الدكتور مياس الاستاذ بجامعة برشلونة علينا مـرة اخـرى باصداره للطبعة الاولى من كتـاب فـى الفلاحـة لاحد المؤلفيـن الاسبانييـن المسلمين، صدر في النصف لثانى من القرن الحادى عشر. أما المؤلـف فهو ابن بصال الذى عظم ذكره فى طليطلة على عهد المأمون (1038 ـ 1075). وقد كانت طليطلة من اكبر مدن اسبانيا الاسلامية من سنة 712 الى عام 1035 اذ كانت مع قرطبة اكثر المراكز الثقافية ازدهارا فى أوربا ابتداء من القرن التاسع الا أن هذا العصر الذهبى قد انتهى نتيجة للمنافسات والخصومات السياسية. فقد تفرقـت الخلافات الاموية سنة 1031 وقام بدل الملـوك الاقوياء ملـوك الطوائف الذين هزمهم الاسبانيون الواحد تلو الآخـر. وقـد تـم استرجاع طليطلة سنة 1085 على يد الفونسو السادس ملك ليـون وقشتالـة. وآثـر الكثير من العلماء المسلمين الطليطليين النزوح الى بلد اسلامى آخر فانتقـل ابن بصال الى اشبيلية حيث عاش بها فى عهد المعتمـد (1068 ـ 1091) دون ان تعرف سنة وفاته .

ولم يكن ابن بصال هو العـالم الوحيـد بشؤون الفلاحـة فى اسبانيا الاسلاميـة، فيكفـى ان نتذكـر ابن الوافد وتلميذه «ابن اللوينقو» والمؤلف الغفل لكتاب «العمدة» والجغرافى القرطبى «البكرى» وأبا عمـر بـن الحجاج وأبا الخير الاشبيليين وغيرهم من العلماء لنجزم بمعرفته لهم .

وقد كانت لابن بصال حنكة عظيمة لانه كان مكلفا بروض النباتات الملكى فى طليطلة وكانت له معلومات نظرية وتطبيقية فى شؤون الفلاحة وغـرس الخضر علاوة على سفره فى صقلية وسوريا ومصر وذهابه لقضاء فريضة الحج وكان مؤلفه فى الفلاحة اهم المؤلفـات فى نوعهـا بـأوربا منـذ عهد العلماء

1) رأينا من المفيد ان نتـرجم لقرائنـا الملخـص الذى كتبه جورج سارطون الاستاذ بجامعة هارفارد لكتاب الفلاحة لابن بصال ونشره فى مجلة «ايسيس» مجلد 47 الصادر فى مارس 1956 ـ صفحة 74 ـ 77 .

الرومانيين فى الفلاحة. ولا نعثر على عالم فـى العصور الوسطـى المسيحية قبل القرن الثالـث عشر تمكـن مقارنتـه بابن بصال . وقد كان ابن العوام الاشبيلى ـ وهو أشهر العلماء الفلاحيين المسلميـن ـ معروفـا فى الاوساط الغير عربية ابتداء من سنة 1802 على الاقل. اما سالفه ابن بصال فكان مجهولا بينما كانت مؤلفاته تعتبر ضائعة. ولهذا السبب لا يذكـر فى كتاب «مدخل الى تاريخ العلم». وعليه فالاشارة الى طبعة «مياس» هى بالنسبة الى المؤلف عمل محبب لانه يكفل له ملء فراغ فى نفس كتابه .

وقد اكتشف الدكتور مياس فى مكتبة كتدرائية طليطلة ترجمة لمؤلفات ابن بصال الضائعة الى اللغة القشتالية كما كانت فى العصور الوسطى فنشر شذرات منها سنـة 1942. وقـام بمجهـودات بدون جدوى لاكتشاف الاصل العربى رغم انه كان واثقا من ضرورة وجود عدة نسخ فى اسبانيا. وقد ذهب حريق الاسكوريال سنة 1671 بالفين من المخطوطات . أما النشر الاول للنص العربى فقد حدث فـى طبعة عادية للاستعمال الشعبى صدرت بفاس سنة 1939 وهو أمر غريب حقا. وفى الختام تمكـن السيـد محمد عزيمـان مساعد الدكتور مياس من العثور على مخطوط عربى كان فى الحقيقة نسخة متأخرة (القرن الثامن عشر او القرن التاسع عشر) تطابق نسخة العصور الوسيطة مطابقة كبيرة كافية. وسنكون مسرفين فى الامل اذا نحن انتظرنـا العثور على مخطوط آخر فى احدى المكتبـات الكثيرة الموجـودة بشمال افريقيا لان النص الذى طبعه مياس ليس هو النص الكامل فيما يظهر. وان النص العربى كما هو عندنـا الآن والترجمـة الاسبانية يتوافـران على بعض الفراغـات او البحيرات التى تتكامل فيما بينها وتتطابق فيهما احيانا .

اما النص فينقسم الى ستـة عشر فصلا . ويكفـى عد هذه الفصـول للدلالة على غنى المادة . والظاهرة القوية العجيبة فى الكتـاب هى خاصيته. فهو كتاب عملى تطبيقى مدقق. فنحن لا نجد فيه اى راى يتعارض مع مـادة الطب او السحر او التنجيم، فقد كان المؤلف رجلا ذا تجربة تطبيقية. غير انه ليس من الراجح ان لا يكون قد اعارا الاهتمام لمن سبقه مـن العلمـاء . فقد كانت كتب اليونانيين فى الفلاحة قد ترجمت الى العربية. أما كتـب العلماء اللاتينيين فى نفس الموضوع فلم تترجم. ولما كان هؤلاء قد استقوا معلوماتهم من النماذج اليونانيـة بصـورة مباشرة فان غيبة العلماء اللاتينيين فى هذا الباب لا تهم كثيرا. وما من شك فى أن الفلاحة النبطية لابن وحسية قد كانت

فى متناوله. اما مؤلفات «ديوسكوريديس» فقد ترجمها الى العربية فى قرطبة «حاسداى بن شبروت» بعد سنة 951 بقليل. وقد كتب «ابن خلخل» رسالة بالعربية حول «ديوسكوريديس» عام 982 فى قرطبة ايضا. ثم ياتى ابن الوافد الذى اتصل به ابن بصال. والغالب ان المامون قد أقام روضه النباتى فى طليطلة بفضل ابن الوافد فأحسن ابن بصال استعماله .

ولما كان ابن بصال قد اقتصر على دراسة الفلاحة فان المعلومات النباتية لابن الوافد و «ديوسكوريديس» قد ظلت بعيدة عن قصده. غير انه قد ورث بطريقة أو اخرى علوم الفلاحة القديمة عن النبطيين وعن عرب المشرق ايضا .

واذا كان «فارون» وابن الوافد وابن العوام وغيرهم يثبتون ذكر الكتاب السابقين فان ابن بصال لا يفعل شيئا من ذلك اذ انه كان عالما تطبيقيا لا يكتب للمختصين العارفين وانما يكتب لمن يغرسون الارض ويحتاجون الى طرائق احسن دون ان يكون لهم اقل اهتمام بشؤون التاريخ والكتب الموضوعية

وقد استورد النصيب الاكبر من معلوماته من الشرق الذى سبقت له زيارته. ولعل بعض المعلومات قد استقاها من الزائرين الشرقيين الذين كانوا يستقبلون فى الاندلس احسن استقبال . وقد بذلت جهود عديدة لجعل نباتات الشرق وفواكهه تتحمل طقس الغرب البعيد . أما النباتات الاجنبية فقد جاءت تصحبها اسماؤها الاجنبية ايضا. لذلك فكثير من الاسماء العربية الواردة فى كتابه هى اسماء اجنبية إما فارسية او إما يونانية. أما عدد الكلمات التى تكاد تكون تامة الشبه فيما بينها من النصين العربى والاسبانى فعدد ضخم طويل. وعلينا أن لا نجزم بأن الاسبانيين قد نقلوا تلك الاسماء حتما عن جيرانهم العرب. اذ ربما كانت الاسماء العربية والاسبانية مستقاة كلها من اللغة اليونانية .

ان كتابا مثل هذا قابل لعدد لا يحصى من التعليقات على هذا المنوال غير انه يتعين علينا ان ننهى هذه الخلاصة .

ونرجو ان يتمكن الباحثون من العثور على مخطوط للنص يكون احسن من مخطوطنا هذا واكثر منه مطابقة للاصل المكتوب فى القرن الحادى عشر . ولو تم الحصول على ذلك المخطوط لاصبح من الواجب ان نعيد طبع النص سواء بالعربية او بالانجليزية .

ونحن في انتظار ذلك ممنونون جدا للاستاذ مياس وللسيد محمد عزيمان لما قاما به من تزكية معلوماتنا حول الشؤون الفلاحية في القرن الحادى عشر الى هذا الحد. والعيب الوحيد الملحوظ في الكتاب هو عدم اشتماله على فهرس النباتات ولا على موجز لما اشتمل عليه من المواد. وقد ترجمت المقدمة بالاسبانية الى العربية. لذلك فالجزآن العربي والاسباني متساويان تماما بحيث ان قراءة الكتاب يمكن الشروع فيها من الطرفين . والحروف العربية والقشتالية حروف جيدة ايضا. وان هذا الكتاب لا يشرف مؤلفيه فقط بل يشرف كذلك «معهد مولاى الحسن بتطوان» الذى نتمنى له الازدهار المطرد .

جورج سارطون

ـ في أواخـر شهر يوليو 1958 اجتمعت في تونس اللجنة المشتركة الدائمة للتعاون الثقافي والفني بين المغرب وتونس في اطاره العملي، بعد ما حددت مبادئه وأهدافه في معاهدة الاخوة والتضامن في البلاغ المشترك الذي صدر عقب زيارة رئيس الحكومة المغربية لتـونس. وتتنـاول هذه الاتفاقية دراسة العلاقـات الثقافيـة في المناهج الدراسية وتبادل الاساتذة والبعثات الثقافية والرياضية، كما تتناول تبادل الفنيين والخبراء في ميادين الطب، والاشغال العمومية، والبريد، والاذاعة .

ـ انعقـدت الدورة الثالثة لمؤتمر اتحاد الطلبة في تطـوان. وجـرى افتتاح هذا المؤتمر في قاعة المحاضرات بنيابة التربيـة الوطنيـة باشراف وزير التربية الوطنية وبحضور رئيس المجلس الوطني الاستشاري كما حضر جلسة افتتاح ممثلون عن اتحادات الطلبة في الخارج. وتكلم في حفلة التدشين رئيس اتحاد طلبة المغرب ثم تلاه مندوبون عن اتحادات الاقطار الاخرى . وفي نهاية الحفلة تكلم وزير التربية الوطنية، ونوه بنشاط الطلبـة واتحادهم، كما ألمع الى المشاريع التعليمية والتربوية التي ستقـوم وزارتـه بانجازها في المستقبل القريب، ثم تـلاه بالكلمة رئيس المجلس الاستشاري، فممثل التعليم الحر. ودامت هذه الدورة من يوم 24 يوليو الى 31 يوليو منـه تخللتهـا عدة اجتماعات تدارس فيها الطلبة شؤونهم ومشاكلهم .

ـ صدرت في المغرب الكتب الآتية : «مظاهر الحضـارة المغربية» الجزء الثاني للبحاثة المعروف الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله، «المغرب المستقل ضد اللادينية» للاستاذ ادريس الكتاني، «البيبليوغرافيا المغربية» وهو ملحق للعدد الاول من مجلة «تطوان»، «كتـاب بسط الارض فـي الطـول والعرض» لابن سعيد المغربي، قـام بتحقيقه الدكتـور خوان فرنيـط خينيس استاذ بجامعـة برشلونة، «ديوان ملك غرناطة ـ يوسف الثالث» حققه وقدم له ووضع فهارسه الاستاذ الكبير السيد عبد الله كنون. والكتب الثلاثة الاخيرة قام باصدارهـا معهد مولاي الحسن بتطوان .

ـ وشح صاحب الجلالة صدر الاستاذ علال الفـاسي بوسام الاستحقاق العلمي والفكري. وقد قال جلالته بعد توشيحه صدر الاستاذ الفاسي «...انتم الذين تستحقون أسمى وسام، وأنتم أول عالم نوشح صدره بهذا الوسام... أنتم اهل لكل أوسمة الدولـة، ونظـرا لكونكم العالم الاول، ولكم آثار خالدة

عظمى، زيادة على آثارهم العلمية والثقافية، نقلدكم هذا الوسام بالصفة العلمية وهو اول وسام نقدمه لكفاءتكم الثقافية والفكرية» .

ـ انضم المغرب الى المركز الدولى لحفظ الآثار الثقافية واحيائها .

ـ غادر المغرب قاصدا انجلترا الاستاذ محمد ابن تاويت، وذلك لمتابعة دراسته فى احدى الجامعات الانجليزية بمنحة من الحكومة البريطانية .

ـ زار المغرب فى أواخر شهر نوفمبر 1958 بعض الصحفيين السوريين وهم السادة : سعيد التلاوى صاحب جريدة الفيحاء، وفوزى امين صاحب مجلة النقاد، وبشير العوف صاحب جريدة المنار، ووجيه الحفار صاحب جريدة الانشاء وتصدر هذه الصحف بسوريا .

ـ لاول مرة انتخب المغرب عضوا فى اللجنة التنفيذية لليونيسكو .

ـ صدر عن ديوان صاحب الجلالة سيدى محمد الخامس كتاب فى ثلاثة اجزاء بعنوان «انبعاث امة» ويشمل هذا الكتاب على جميع الخطب التى القاها ملكنا المعظم فى شتى المناسبات بتداء من 7 نوفمبر 1955 الى 17 نوفمبر 1958 انه لسفر جليل يؤرخ لحركتنا الانبعاثية فى اطوارها وحلقاتها ووثباتهـا مـن خلال الخطب الملكية الكريمة .

ـ يفكر الاستاذ عـلال الفاسى فى طبع ديوانه الذى أطلق عليه «روض المـلـك ».

ـ اصدر الاستاذ الكبير السيـد عبد الله كنـون كتابـا جديدا بعنوان «خل وبقل» محتويا على مقالات مهمة تتناول الادب والنقد والاجتماع .

ـ مثل المغرب فى الدورة الرابعـة لمؤتمر الادباء العرب الـذى انعقد بالكويت من 20 دجمبر الى 28 منـه الاساتـذة : عبد الكبيـر الفاسى، سفير المغرب فى تركيا وايران، عبد الهادى التـازى، رئيس القسم الثقافـى بوزارة التربية الوطنية، محمد عزيمان، نائب وزارة التعليم فى الشمال، عبد القادر حسن من وزارة الخارجية .

ـ يشتغل الاستاذ عبد الله السعدانى فى كتاب عن الادب المغربى المعاصر سيكون محتويا على منتخبات شعرية ونثرية وقصصية لالمـع ادبـاء المغـرب المعاصرين مع ترجمات عن حياتهم واعمالهم التى قاموا بها فى الحقل الادبـى المغربى الحديث، وقد اتصل ببعض رجال البحث والفكر والادب فى المغـرب ليزوده بانتاجهم وترجمات حياتهم وصورهم الشمسية .

ـ سيصدر لشاعر الحمراء الخـالد المرحـوم محمد ابن ابراهيم ديوانه الذى طالما انتظره القراء، وقد أشرف على طبعه السيد محمد بوستة .

ـ عكف الاستاذ السيد عبد الله كنون على مراجعة كتابه القيم «النبوغ المغربي في الادب العربي» واضافة مواد جديدة فيـه ليقدمه للطبع في نهج جديد في البحث. وقد كان للطبعة الاولى التي صدرت منذ زمان نجاح كبيـر لا في المغرب فحسب بل في الشرق وعنـد المستشرقيـن الذين استندوا اليه في ابحاثهم عن المغرب الادبي ونال عليه الدكتوراه الشرفية من جامعة مدريد.

ـ على اثر الدراسات التي قام بها الدكتـور صـلاح الديـن المنجد في مكتبات المغرب العامة والخاصة صرح بأن المغرب يشتمـل على قـدر عظيم من مخطوطات عربية هامة . وذكر انه وجد في مكتبة ابزو نسخة قديمة من كتاب كان يعتبر مفقودا يشتمل على رسائل الجاحظ، كما عثر الدكتور في مكتبة الجلاوي بمراكش على نسخة قديمـة مـن كتاب «انساب الاشراف» للبلاذري وهو الكتاب الذي يقوم معهد المخطوطات بطبعه اليوم .

ـ استدعى معهد الدراسات العالية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة المغربية لالقاء سلسلة من المحاضرات عن المغرب وميادينه الثقافية .

ـ انتخب الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة المغربية عضوا عاملا في المجمع اللغوي بالقاهرة .

ـ صدر للاستاذ محيي الدين المشرفي كتاب باسم «تاريخ المغرب» ارخ فيه لعصور المغرب الاولى حتى عهد الاستقلال .

ـ يؤلف الشاعر السوري المعروف الاستاذ انور الجندي كتابا عن الادب المغربي المعاصر، وقد اتصل ببعض رجال البحـث والفكـر والادب في المغرب وطلب منهم ان يزودوه بالمعلومات الكافية التي تهمـه عـن الادب المغربي في ماضيه وحاضره. ويعمل الاستـاذ الجندي اليوم محررا بجريدة «الجمهورية» بالقاهـرة .

ـ ظهر في تونس حديثا كتاب «القضاء التونسي» لرئيس ودادية الحكام التونسيين الاستاذ محمد بن عمار النتاتي .

ـ عقد المجلس الاداري لمعهد باستور بالعاصمة التونسيـة اتفاقية مـع اعضاء مجلس باستور بباريس. وتحدد هذه الاتفاقية كيفية المساعدات الفنية التي سيقدمها معهد باستور بباريس الى معهد تونس، كما تتنـاول الاتفاقيـة تنظيم بعثة من التونسيين للدراة في باريس الى جانب تبادل المعلومات فـي ميدان البحث العلمي.

ـ اصـدر الاستاذ مصطفى زبيـس متفقد الآثار فى المعهد القومـى والفنون فى تونس كتابا بعنوان «آثـار المغرب العربـى» وذلك فى سلسلـة «كتاب البعث» التونسية .

ـ تهتم كتابة الدولة للثقافة القومية بتونس احداث معهد قومى للابحاث الفنية والعلمية. وسيبتدىء المعهد اعماله فى الايام القريبة. وينتظر ان يكون لهذا المعهد اهميـة كبـرى، وان تتولـد عنه نتائج مهمة. والمرشح لادارة هذا المعهد هو الاستاذ محمد على العنابى .

ـ صدرت فى الايام الاخيرة بتونس الكتب الآتية : «فى رياض التعليم» للاستاذ عبد الرحمن للونة، «الحريق» وهى قصة من وحى الثورة الجزائرية، لمؤلفها الاستاذ نور الدين بوجندرة، «المختار من شعر الوزير» للاستاذ احمد المختار الوزير .

ـ اكتشف السيد احمد بن الطيب الوزانى كهفا بناحية جروان الشمالية. ويقول مكتشفه انه من بقايا العهد الحجرى بالمغرب بناء علـى ما تشير عليـه الحجارة ونقوشه وتماثيله البدائية .

ـ صدر بتطوان العدد الحـادى عشر مـن مجلة «تمـودة» التى تصدر بالاسبانية عن كل ستة اشهر. وقد ساهم بابحاثهم فى هـذا العـدد الاساتذة: مريانو اريباس، خوسى فراديخـاس، ميياس فيياكـروسا، ليونـور مرتينث مرتين ، ميكيل طرادبل ، غييرمو غواسطافينو ، احمد المكناسى . والى جانب الدراسات والابحاث يشتمل هذا العدد على فصلين احدهما لنقد الكتب والثانى للانباء الثقافية بتطوان . وتضم مجلة «تمودة» ملحقا بعنوان «كتامة» وهى مجلة تعنى بترجمة الشعر العربى الى الاسبانيـة الـى جانـب اهتمامها بالشعر الاسبانى ونقله الى العربية. ويشتمل القسم العربى من هذا العدد على قصيدة ماكس اوب ترجمها الى العربية الاستاذ عبد اللطيف الخطيب، وقصيدة الطين لاليا ابو ماضى نشرت احتفالا بذكراه مترجمة بقلم الدكتورة ليونـور مرتينث مرتين، ومختارات من شعر خـوان رامون خيمينـث نقلهـا الى العربية محمد الصباغ، وقصيدة لشفيق بلعاوى من لبنان، وترجمة لقصيدتين لبول ايلوار .

ـ تنوى حكومة الجمهوية العربية المتحـدة تاسيس معهـد لها بالمغرب تكون مهمته القيام بنشر المخطوطات المغربية وتقديم دراسات عنها، وسيكون على غرار معهدها بمدريد .

أعد الانباء محمد الصباغ

فهرست

الطبيعيون الاسبان فى المغرب، بقلم طوماس غرسيا فيغيراس، وتعريب الاستاذ نجيب ابو ملهم ـ تطوان 1953

كناش الحائك، او مجموعة اغان معربية فى القرن الثانى عشر الهجرى، بقلم الدكتور فرناندو بلديراما مرتينيث ـ تطوان 1953

جوائز «المغرب» و «مرويكوس» للآداب لسنة 1953 ـ تطوان 1953

جوائز «المغرب» و «مرويكوس» للآداب لسنة 1954 ـ تطوان 1954

جوائز «المغرب» و «مرويكوس» للآداب لسنة 1955 ـ تطوان 1955

ابن الابار ـ كتبه وحياته ـ جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1951، تاليف الدكتور عبد العزيز عبد المجيد ـ تطوان 1954

تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، **جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1952**، تاليف محمد عبد الرحيم غنيمة ـ تطوان 1953

الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب، بقلم الاستاذ عبد العزيز ابن عبد الله. القسم الثانى من كتاب «لسان الدين ابن الخطيب ـ حياته وكتبه»، **جائزة معهد** مولاى الحسن لسنة 1948 ـ تطوان 1953

ابن الخطيب من خلال كتبه، الجزء الاول، للاستاذ محمد بن ابى بكر التطوانى، جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1948 ـ تطون 1956

ركب الحاج المغربى، بقلم: محمد المنونى ـ تطوان 1953

رسائل سعدية، اعتنى بها وجمعها عبد الله كنون ـ تطوان 1954

الريف بعد الفتح الاسلامى، بقلم احمد بن عبد السلام البوعياشى ـ تطوان 1954

البحرية العربية وتطورها فى البحر الابيض المتوسط فى عهد معاوية، بقلم: فلهلم هوئيرباخ ـ تطوان 1954

مختصر تاريخ تطوان، جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1953، تأليف محمد داود تطوان 1955

كتاب الفلاحة لابن بصال، نشره وترجمه وعلق عليه خوسى ماريا ميياس فاييكروسا ومحمد عزيمان ـ تطوان 1955

علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالاندلس، بقلم خوسى ماريا ميياس فاييكروسا، تعريب عبد اللطيف الخطيب ـ تطوان 1957

مشاهير رجال المغرب، بقلم عبد الله كنون

الارقام من 1 الى 9 نفدت والباقى من 9 الى 25

الفن والمفنون المسلمون، لمؤلفه أنطونيو غرسيا خاين ـ مدريد 1951

قائمة منشورات نيابة

التربية الوطنية والشبيبة والرياضة بالشمال

فهرس المؤلفين والعناوين للكتب الموجودة بالمكتبة العامة بتطوان، من وضع: احمد ابن محمد المكناسي ـ تطوان 1952

فهرس خزانة الصحف العربية بتطوان، من وضع: محمد ابن عزوز حكيم ـ تطوان 1953

الشرق الاسلامي والحضارة العربية الاندلسية، بقلم: ليفي بروفنصال ـ تطوان 1951

قصتان مغربيتان : «احمد» كتبها انريكي دي رويدا غريدو ، و «طه» كتبها احمد الحسن السكوري ـ العرائش 1941

تاريخ المحاكم الاسلامية ، الجزء 2 ، للفقيه السيد محمد المرير ـ تطوان 1955

نوبة اصبهان ، لاركاديو دي لاريا بلائين ـ تطوان 1956

ابن خلدون ، بقلم الدكتور محمد عبد الله عنان ـ القاهرة 1939

رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ،بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة 1939

ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، تاليف شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمساني. ضبطه وحققه وعلق عليه الاساتذة: مصطفى السقا، ابراهيم الابيارى، وعبد الحفيظ شلبى ـ القاهرة 1939

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، تاليف الاستاذ آدم متز. نقله الى العربية الدكتور عبد الهادى ابو ريدة ـ القاهرة 1940

أمام الذكرى المئوية السابعة لوفاة ابن البيطار، بقلم: خوليو كولا البريك ـ تطوان 1948

واحة الفكر ، بقلم عبد الله كنون ـ تطوان 1948

دراسة سلالة شمال افريقيا ، بقلم خوليو كولا البريك ـ تطوان 1948

ضون انخيل كونثالث پلينثيا (1889 ـ 1949)، محاضرات بقلم ضون ماريانو اريباس پلاو والسيد محمد عزيمان وضون كييرمو غواسطافينو كيينت وضون طوماس غرسيا فيغيراس ـ تطوان 1950

حياة الصوفى التطوانى الشريف سيدى عبد السلام بن ريسون وكراماته ، بقلم عبد الرحيم جبور ـ تطوان 1951

لباب المحصل في اصول الدين ، لابن خلدون الحضرمي ، الجزء الاول. تحقيق الاب لوسيانو روبيو ـ تطوان 1952